



القدِّيس باسيليوس الكبير

سيرته ومنهجه
مع
روائع من كتاباته

الجزء الأول

إعداد / القمص تادرس يعقوب ملطي

الآباء الكبادوك

القدِّيس باسيليوس الكبير

سيرته، ومنهجه مع روائع من كتاباته

٣٢٩م - ٣٧٩م

الجزء الأول

طبعة تحضيرية
٢٠١١

إعداد
القمص تادرس يعقوب ملطي
كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس
سبورتنج - الإسكندرية

باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس

الإله الواحد، آمين.

اســـم الكتــاب: القدِّيس باسيليوس الكبير ـ الجزء الأول
إعـــــــــداد: القمص تادرس يعقوب ملطي
الطبعــــــــة: تحضيرية ٢٠١١
الناشـــــــــر: كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس ـ سبورتنج ـ الإسكندرية
فصل ألوان، وطباعة:
مطبعة دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبي بمريوط
موبايل: ٠١٢٢١٥٢٨٥٦ & تليفاكس: ٠٣٤٥٩٦٤٥٢
رقـــم الإيـــداع: ١٥٤٩٤ / ٢٠١١
الترقيـم الدولـــي: I.S.B.N.: 978 - 977 - 392 - 213 - 8



صاحب الغبطة والقداسة

البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧

القدِّيس باسيليوس الكبير
رئيس أساقفة قيْصريَّة

❖ **تعالوا أيُّها الأرثوذكسيّون لنسجدَ للربِّ يسوع المسيح...**

فإن الأصوات الصادقة التي للأنبا باسيليوس العمود العظيم، قد ملأَت كل العالم...

فمَنْ يقدِر أن ينطق بالقوَّات العظيمة والعجائب الكثيرة التي للأنبا باسيليوس؟

وأي لسان جسداني يستطيع أن يتلو كرامته ونسكيَّاته؟...

مرحبًا بقدومك إلينا في هذا اليوم يا مُعَلِّم التقوى ومؤدِّب كل المسكونة... الأنبا باسيليوس الأسقف.

الدفنار - ٦ طوبى

هذه العبارات تَنطِق بمكانة هذا القدِّيس في الكنيسة الجامعة، وفي كنيستنا القبطية على وجه الخصوص، لِمَا اشتمل عليه من التقوى والفضيلة والعلم الديني الغزير. وجميع كتاباته مُعتبَرة، بل ونُصلِّي بالقدَّاس الذي يحمل اسمه.

مع تقدير الكنيسة القبطيَّة لشخصيَّة العظيم بين القدِّيسين باسيليوس الكبير، إلاَّ أنني أشعر بأن كثيرين لا يعرفون الكثير عن شخصيَّته ونظامه الرهباني. فإنَّنا إذ نتحدَّث عن الحياة الرهبانيَّة تتلألأ أمامنا الكواكب العظام القدِّيسين أنبا أنطونيوس الكبير وأنبا بولا وأنبا باخوميوس ومقاريوس الكبير وآمون وغيرهم، لكن قليلين هم الذين يتحدَّثون عن القدِّيس باسيليوس. وقد نشر دير السريان العامر مُجلَّدًا عن هذا القدِّيس وقوانينه. وإني أرجو في الرب أن أُقَدِّمَ صورة مُبسَّطة عن حياة هذا القدِّيس ولاهوتيَّاته وأفكاره ونظامه الرهباني وأثره على الكنيسة في الشرق والغرب.

دُعِي بالقدِّيس باسيليوس **الكبير**، بسبب مؤهِّلاته الفائقة في التدبير الكنسي، وتفسير العقيدة، ودفاعه عن الإيمان خاصة ضد الأريوسيَّة، كما عُرِفَ كأبٍ للرهبنة في المنطقة، واهتم بخدمة العبادة، فوضع ثلاثة نصوص لليتورجية الإفخارستيا، لازالت الكنيسة القبطيَّة تستخدم أحدها، وآخَر تستخدمه بعض الكنائس الأرثوذكسيَّة الأخرى.

دعاه بهذا اللقب "الكبير" صديقه **القدِّيس غريغوريوس النزينزي** وهو في أثناء حياته[1]، واستخدمه أخوه القديس غريغوريوس النيصي بعد نياحته في كتابه عن أختهما القديسة ماكرينا.

[1] *Greg. Naz., Letter 25.*

القدِّيس باسيليوس في نظر الكنيسة الأولى

كان القدِّيس باسيليوس - باستثناء البابا أثناسيوس الرسولي - من أقوى الشخصيات في عصره ممّن شغلوا مناصب في الكنيسة. وقد طارت شهرته إلى ما بين النهرين حيث كان **مار أفرام السرياني**، فاشتاق ذاك أن يراه. وفيما هو كذلك رأى يومًا عمودًا من نورٍ، وسمع صوتًا يقول: "هذا هو باسيليوس الكبادوكي". فازداد شوقه إلى رؤيته والتبرُّك منه، فقام وذهب إلى قيْصريَّة حوالي عام ٣٧١م، ودخل الكنيسة يوم الأحد، وحضر قداس عيد الظهور الإلهي بملابسه المُهلهلة. وكان القدِّيس باسيليوس يقوم بخدمة القدَّاس الإلهي بملابس كهنوتية ثمينة؛ فتشكك مار إفرام من تصرُّفه. وفي أثناء العظة شاهد كلمات القدِّيس خارجة من فمه وكأنها ألسنة ناريَّة صغيرة تستقر في قلوب السامعين. وفي أثناء القدَّاس رأى فمه كأنه ملتهب نارًا، كما أبصر حمامةً تنطق من فيه.

رأى القديس باسيليوس كأن ملاكيْن يحيطان بالراهب أفرام، فأرسل إليه شماسًا يستدعيه بعد العظة مُباشرة، لكنه التمس أن يكون اللقاء بعد التناول. وبالفعل التقى الاثنان بقبلةٍ أخويّةٍ، وتبارك كل من الآخَر. ثم قال له القديس باسيليوس على انفراد: لماذا شككت؟ مُظهرًا له أنه يلبس مسحًا من الداخل، قائلاً له: "أمّا هذه الملابس الخارجية الفاخرة، فهي من أجل كرامة الخدمة فقط".

وقد مدحه آباء كثيرون، منهم **ثيؤدوريت أسقف قورش**، الذي قال عنه: [العظيم باسيليوس نور الكبادوكيِّين، أو بالحري نور العالم[1].]

وصفه **صفرونيوس** بأنه مجد الكنيسة.

وتكلَّم عنه **إيسيذورس الفرمي** كإنسان مُوحَى إليه من الله.

يقول عنه **فوتيوس** ***Photius***: [القدِّيس هو موضوع عجبٍ الكثيرين، فقد توازنت عنده مواهب مختلفة، كالفلسفة والبحث العميق والأدب والإدارة].

[إنه (باسيليوس) رائع في كل كتاباته أكثر من أي إنسانٍ آخَر. يعرف كيف يستخدم أسلوبًا نقيًّا، مُتميّزًا، مُناسبًا، وبصفة عامة لم يكن الثاني لأحدٍ ما.

كان مُغرَمًا بالقدرة على الإقناع في عذوبة وتألُّق. كلماته تفيض مثل مجرى يتدفَّق تلقائيًّا من ينبوعٍ[2]].

---

[1] *Epistle 146.*

[2] *Bibl. cod. 141.*

أمّا صديقه **القدّيس غريغوريوس النزينزي** (الثيؤلوغوس) فقد أفرد له مديحًا طويلاً جاء فيه:

[لقد ناظر بطرس في غيرته، وقوّة بولس وإيمانه والنطق السامي الذي لابنيّ زبدي، واعتدال جميع الرسل وبساطتهم. ولذا فقد أؤتمن أيضًا على مفاتيح الملكوت... وهو لم يُدعَ - لكنه أصبح - ابن الرعد، وإذ اتّكأ في حضنِ يسوع، جذب من هناك قوّة كلمته وعمق أفكاره. وفي فضائله المُتعدّدة الجوانب فاق كل رجال عصرنا].

[مُعلِّم الفضيلة في إقليم بنتس].

[إذ رفع رأسه عاليًا، وألقى بعيني نفسه نحو كل اتجاه، نال رؤية عقلية للعالم كله، خلال انتشار كلمة الخلاص[1]].

[صوته وعقله هما هذا كله: بوق يخترق اتساع الفراغ، أو صوت الله الذي يُطَوِّق العالم، أو زلزال جماعي يصدر عن معجزة أو عجب جديد[2]].

[كان جمال باسيليوس هو الفضيلة، وعظمته هي لاهوتياته، وطريقه هو التحرُّك الدائم يبلغ إلى الله بتقدُّمه، وسلطانه هو غرس الكلمة ونشرها.

فإنني لن أتردّد في القول هكذا: بلغ كلامه إلى كل الأراضي (مز ١٩: ٦)[3]...].

ضعفات القديس باسيليوس الكبير

بالحقيقة نتطلّع إلى القدّيس باسيليوس ككوكبٍ مُنيرٍ في وسط جيلٍ معوجّ وملتوٍ (في ٢ : ١٥)، غير أنه يلزمنا أن نُدرك أنه ليس بين البشر من هو بلا ضعفات. فقد أرسل أحد الأحباء في عام ١٩٨١م يلومني لذكر بعض ضعفات القدّيس يوحنا الذهبي الفم. وكثيرًا ما أتعمّد ذِكر ضعفات بعض القديسين لنُدرك أن كمال القديسين ليس مُطلقًا بل نسبيًا. وأن ذِكر ضعفاتهم يسندنا، فلا نيأس بل نترجّى دومًا عمل الله فينا.

ففي كتاب "**القديس يوحنا الذهبي الفم**" سبق أن ذكرت:

[كثيرًا ما أشار الذهبي الفم أن الله يسمح للكهنة والأساقفة أن يخضعوا لأهواء الحياة والضعف، **حتى يتعلّموا من ضعفاتهم أن يترفّقوا بالخُطاة**، ويغفروا للآخرين. هذا ما حدث مع

[1] *Greg. Naz. Oration 43:41 The Panegyric on St. Basil.*

[2] *Greg. Naz. Oration 43:65 The Panegyric on St. Basil; (cf. Gregory Naz. Letter 46:2).*

[3] *Greg. Naz. Oration 43:66 The Panegyric on St. Basil.*

القديس بطرس في العهد الجديد وإيليا النبي في العهد القديم[1]. لكنه لا يقدم عذرًا لأخطاء الكهنة: "**إن أخطأ كاهن فخطأه أعظم من غيره، وعقوبته تكون أشد**[2]".

[الكنيسة في تعلُّقها بالقديسين لا تؤمن بعصمتهم من الخطأ. هُم مُقدَّسون في الرب، يسلكون بالروح، لكنهم ليسوا بغير ضعفات. إنهم في حالة توبة مُستمرة!].

[الله في محبته يسمح بإظهار بعض ضعفات كبار القديسين، ربما ليكون هذا بمثابة شوكة تنخسهم على الدوام فلا يتعالون، لكن في نفس الوقت يحول الله هذا الضعف لبنيانهم ولخير الكنيسة ومجد اسمه القدوس].

[كثيرون في عرضهم لسيَر القديسين يخفون ضعفاتهم أو يحاولون تبريرهم، مع أننا لا نؤمن بالعصمة من الخطأ. على العكس، فإن كشف ضعفاتهم لا يُقلِّل من كرامتهم، بل يُعطي للنفوس الضعيفة رجاء وقوة للجهاد. هذا ما انتهجه الكتاب المُقدَّس في عرضه لسير الآباء والأنبياء والرسل].

أحد هذه الضعفات للقديس باسيليوس أنه إذ كتب لأحد الموظفين العموميين يُدعى *Demosthenes* مدحه بطريقه لا يُعلى عليها[3]، بينما عندما كتب عنه لآخرين دعاه "أول وأخطر شرورنا[4]"، كما دعاه حيوان بحري مرعب وضخم[5] "*fat sea monster*".

---

[1] *In 2 Tim. , homily 2: 2-3 , Jo. Homily 87:4 , Jo homily 87: 4.*

[2] *In Matt. , homily 26: 6; 76: 6; De Virginitate , 24 .*

[3] *Letter 225 to Demosthenes.*

[4] *Letter 237.*

[5] *Letter 231.*

قيْصريَّة في القرن الرابع الميلادي[١]

كبادوكيا (كبدوكية) Cappado'cia[٢]

يـرى *Benfey* فـي كتابـه *Monatsnamen* أن اسـمها *Kappadakja* وتعنـي "إقلـيم الخيل الجيدة". وهى من أكبر ولايات أسيا الصغرى القديمة، كانت تقع في الجهة الشرقية. يَحِدّها شمالاً بنطس (بنتس) *Pontus*، وشرقًا الفرات وأرمينيا الصغرى، وجنوبًا جبل طوروس *Tourus* (خلفه سوريا وكيليكية *cilicia*)، وغربًا غلاطية. وهى سهل مرتفع تخترقه سلاسل من الجبال، المياه فيها وفيرة، وأراضيها صالحة للزراعة ورعاية الماشية.

فـي أيام هيرودوت *Herodotus*، كـان سُكَّانُها يُدعَون بالسريان البيض، علـى خـلاف السكان الذين كانوا خلف طوروس الذين كانت بشرتهم غامقة بسبب الشمس.

خضـعت كبادوكيـة لفارس في أيـام كورش *Cyrus* وبعد عصـر إسكندر الأكبر، وكـان ملوكها من الإقليم بالرغم من خضوعها للسلوقيين.

اشترك بعض سكانها في عيد يوم الخمسين في أورشليم حيث حلَّ عليهم الرُّوح القُدُس (أع ٢ : ٩). كان مسيحيّوها من جملة الذين رَاسَلَهم القدِّيس بطرس الرسول (١ بط ١:١).

كانت كبادوكية مَحْمِية رومانية في القرن الأول قبل الميلاد، ثم ولايـة رومانية فـي القرن الثاني الميلادي، وصـارت فيما بعد مركز إشعاع مسيحيًا، لـه أثره البعيد في انتشار المسيحية، قسَّـمها فـالِنس الإمبراطـور الأريوسـي فـي عـام ٣٧١م إلـى كبادوكيـا برايمـا (كبادوكيـا الأولـى) وعاصـمتها قيصـرية، وكبادوكيا سيكوندا (كبادوكيا الثانيـة) وعاصـمتها تيانا Tyana. وقد قـاوم القديس باسيليوس ذلك التقسيم ولكن دون جدوى كما سنرى.

قيصرية *Caesarea*

كانت قيصرية عاصـمة كبادوكيا، تأسست علـى شمال غرب جبل أرجوس *Argaeus*، يبلـغ ارتفاعهـا أكثـر مـن ٣٩٠٠ مترًا، وتُعتبَر أعلـى جبل فـي منطقـة كبادوكيـة. موقعهـا مُتميِّز وجميل، وهى في الطريق الرئيسي بين فارس والفرات وبين القسطنطينية.

---

[1] *Cf. James Hanrahan: The Life of Saint Basil the Great, 1979, The Basilian Press, Toronto.*
راجع للمؤلف: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها.

[2] *Mcclintock & Strong's Cyclopedia.*

كان اسمها الأصلي *Mazaca*؛ في عام ١٧م عزل الإمبراطور طيباريوس *Tiberius* آخِر ملك لها، وجعلها مقاطعة، ودعاها قيصرية.

كان تعدادها في القرن الرابع حوالي ٢٠٠.٠٠٠ نسمة، وكانت أكبر مدينة في كبادوكية، لا تُضارِعها مدينة سوى مدينة تيانا *Tyana* في الجنوب الغربي لها، على الطريق إلى أبواب كيليكية خلال جبال طرسوس. كانت نزيانزا ونيصص تعتبران قريتين بالنسبة لها.

كانت مدن منطقة أسيا الصغرى بوجه عام تُحسَب من الدرجة الثانية إن قورنت بالعواصم الكبرى مثل الإسكندرية وأنطاكية، بينما كانت القسطنطينية تنمو بسرعة.

كانت كبادوكية أقل تَقَدُّمًا من غيرها، مع هذا فإن قيصرية كانت على الدوام تحتك بأحداث هامة. إذ تقع على الطرق الرئيسية التي تربط الشرق بالغرب والشمال بالجنوب، تأثرت بالأحداث الجارية والأفكار السائدة. لهذا لا نعجب أن المسيحية نشأت هناك في وقتٍ مبكرٍ. فقد جاءت الرسالة الأولى للقديس بطرس يوجهها إلى المُتغرِّبين من شتات بُنْتس وغلاطية وكبادوكية وأسيا وبيثينية (١ بط ١: ١). في القرن الثالث، كان المسيحيون فيها يُمَثِّلون نسبة عالية من سكانها عندما جاء إليها أوريجينوس سنة ٢٣٥م، وشهد عن التعليم المسيحي هناك. أحد تلاميذه القديس غريغوريوس صانع العجائب الذي صار أسقفًا على قيصرية الجديدة ببنتس (تنيح عام ٢٧٠م). عند نياحته سأل عن عدد الوثنيين بالمدينة. قيل له: أنهم سبعة عشر شخصًا. قال: "شكرًا لله، عندما جئت هنا كان يوجد فقط سبعة عشر مسيحيًّا". جاء عنه أيضًا أنه تَمَسَّك بوعد السيد المسيح، ونقل جبلاً من مكانه![1]

تَعَرَّفت ماكرينا جدَّة القديس باسيليوس وعائلتها على القديس غريغوريوس صانع العجائب، رسول بنتس وأسقف قيصرية الجديدة. سمعت عظاته وهي في صباها، وكانت تروي لأحفادها خاصة القديسيْن باسيليوس وغريغوريوس أسقف نيصص الكثير عنه، وما سمعته منه.

في سنة ٢٥٠م طلب القديس غريغوريوس صانع العجائب من شعبه أن يختفوا في البراري والتلال والغابات، بسبب الاضطهاد في عهد داكيوس. ولهذا تعرَّضت عائلتا كل من والد ووالدة باسيليوس لمصادرة ممتلكاتهما، واختفى جدِّي باسيليوس بسبب الاضطهاد، وكما قال القديس غريغوريوس النزينزي إنهما قضيا سبع سنوات أو أكثر وكان الله يعولهما بطريقة معجزيه[2]. وكان ذلك في أيام الإمبراطور مكسيمين دايا *Maximin Daia* (٣٠٣ - ٣١٤م).

---

[1] *Adrian Fortescue: The Greek Fathers, San Francisco, 2007, p.46.*

[2] *Greg. Naz. On St. Basil, 5-8.*

في عام ٣٢٠م أمر ليكينوس *Licinius* نسيب الملك قسطنطين مرؤوسيه بعبادة الأوثان، واستُشهِد أربعون جنديًا بسبسطية[1] *Sebastea* بأرمينيا، وربما في ذلك الوقت استُشهِد جِدٌّ باسيليوس من جهة أُمِّه. وفي سنة ٣٢٤م، في أيام حُكم قسطنطين، إذ غلب نسيبه ليكينيوس، استرد والدا باسيليوس ممتلكاتهما، وربما صارا في حالٍ أفضل ممّا كان عليه قبل مصادرة ممتلكاتهم. وقد ذكر القديس غريغوريوس أسقف نيصص عن أخته ماكرينا أنها كانت تقول: "مصادر العائلة نمت، شكرًا لإيمانهم، حتى لم يكن في ذلك الوقت مَنْ هُم أكثر غِنَى منها[2]".

الآباء والكُتَّاب الكبادوك[3]

تكشف حياة ماريسيلليوس وباسيليوس أسقف أنقرة *Ancyra* عن مدى ما عانته أسيا الصغرى من الجدال الأريوسي في النصف الأول من القرن الرابع. وظهر من هذه المنطقة بعض الأسماء التي عُرِفَتْ كقيادات للهرطقة الأريوسية منهم: أستيريوس السوفسطائي، وغريغوريوس الكبادوكي، وجرجس الكبادوكي، وأخطرهم إفنوميوس[4] *Eunomius of Cyzicus* والذي كان بينه وبين القديس باسيليوس جدال كبير، أكْمَلَه غريغوريوس النيصي.

القدِّيس باسيليوس في نظر القدِّيس غريغوريوس النيصي

في أول يناير ٣٨١م ألقى القدِّيس غريغوريوس النيصي تأبينًا بمناسبة مرور عامين على نياحة أخيه يكشف عن شخصية القدِّيس باسيليوس[5].

---

[1] حاليًا سيفاس *Sivas* بتركيا.

[2] *Greg. Nyssa: Life of Macrina 20: 14-16.*

[3] راجع المؤلف: نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى، ترجمة دير القديسة دميانه، ٢٠٠٨، ص ٢١٤.

[4] أفنوميوس مات سنة ٣٩٤م؛ من أصل كبادوكي، سِيمَ أسقفًا على *Cyzicus* في مسيا *Mysia*. تتلخّص عقائده في الآتي:

أ. الابن ليس مولودًا من الآب وليس واحدًا معه في الجوهر، إنما جبله الآب مباشرة، وأعطاه قوة الخلق، بها صار مُشابهًا له.

ب. احتل الرُّوح القُدُس المركز الأول بين الكائنات التي خلقها الابن، وهو أداته في تقديس النفوس.

ج. تقوم التقوى لا على الابتهال إلى الأسماء المقدسة، ولا باستخدام الطقوس والرموز، وإنما في دقة التعليم الذي يتجاهل الأسرار الكنسية والممارسات النُّسكية.

لم تدم تعاليمه كثيرًا، فسرعان ما نُسيتْ. بقيت أهميتها فيما كتبه الآباء الكبادوك عن الثالوث القدوس خلال نقدهم لتعاليمه.

Cross: Oxford Dict. of the Christian Church, 1974, p. 480.

[5] *A note regarding the text, A Eulogy for Basil the Great: the critical text prepared by Otto Lendle may be found in Gregorii Nysseni Opera, vol. x, tomus 1, published by E.J. Brill (Leiden, 1990),*

١. قارنه بالقديس يوحنا المعمدان في جهاده ضد هيرودس.

٢. ضمه إلى شخصيات كتابية عظيمة مثل الأنبياء موسى وصموئيل وإيليا وأيضًا القديس يوحنا المعمدان، والرسول بولس. وحسبه نموذجًا حيًّا، يلزمنا الاقتداء به.

❖ أتحدَّث عن باسيليوس، الإناء المُختار (أع ٩: ١٥)، المشهور بحياته المُكَرَّمة، وكرازته. منذ ميلاده كان موضع سرور الله، سلوكه وقور منذ شبابه، تَعَلَّم **مثل موسى** بكل حكمة (أع ٧: ٢٠ - ٢٢)، انتعش بالكتب المُقدَّسة من سن المُراهقة حتى الرجولة، واستمرّ ناميًا ومُزدهِرًا. لقد عَلَّم كل أحدٍ الحكمة الإلهية والدنيوية. كشجاعٍ كان مُختبِرًا ومُسَلَّحًا ضد المقاومين بكل نوعٍ من المران؛ هزمهم بضبط النفس، مُواجِهًا الذين يقاومون الحق والذين يُسِيئون شرح الأسفار المُقدَّسة بهرطقات خلال مزجهم التعليم الهيليني بتعاليمهم الخاصة[1].

❖ احتلَّ **المركز الثاني بالنسبة للرسل**، مُعلِنًا الخلاص بطريقة صريحة في حواره بخصوص المسيح. لو أن باسيليوس عاش في نفس الوقت الذي لبولس لبلغ ذات السمو الذي بلغه سلوانس وتيموثاوس[2].

❖ إن كنا **نكرم بولس** الذي عاش في الماضي، وباسيليوس الذي عاش بعد أجيال عديدة، يُمكِننا القول أن عناية الله من أجلنا هي السبب، وأن كليهما ليس منهما من هو أقل في الفضيلة. كمثالٍ لدينا موسى، جاء متأخرًا جدًا بعد إبراهيم، وصموئيل جاء بعد موسى، وبعد ذلك إيليا، ثم جاءنا يوحنا (مت ١١: ١١)، وبولس، وأخيرًا باسيليوس[3].

❖ طهَّر (باسيليوس) الحياة التي نُمارِسها نحن جميعًا، بواسطة تعليمه ومثله الشخصي. بكل وضوح إن أفضل نفع للطبيعة البشرية أن تُعلن محبة الله باتِّساع في شخصٍ ما... **بولس وباسيليوس** اللذان أَحَبَّا الله بكل قلبيهما وبقياسٍ واحدٍ لحُبٍّ مُشترك، بالتأكيد لم يُفارِقا الحقّ[4].

---

pp.109-34. Within the translation, I have referred to this edition by the letters "J" and the appropriate page number. Also within the translation are the letters "M" and the appropriate column number which refers to the edition by J.P. Migne, Patrologia Graeca, vol. 46.778-817 (Paris, 1858).(cf. the internet: basil.htm)

[1] *Brill 110.*

[2] *Brill 110.*

[3] *PG 46: 792.*

[4] *PG 46: 800.*

❖ لم يَرْتَدِ **يوحنا (المعمدان)** ثيابًا ناعمة، ولم يكن بالقصبة التي تُحَرّكها الريح. لقد فَضَّل البرية عن المناطق المسكونة (مت ١١: ٧ - ٨)... إن كان الحق يحمل شهادة لمُعَلِّمنا (باسيليوس)، أمّا يلزمنا ألاّ نجعله أقلّ من العظيم يوحنا، إن وضعنا في اعتبارنا هذه الملاحظات؟

مَنْ لا يعرف أنه كان يشجب كل نوعٍ من وسائل الحياة الرقيقة والمُترَفة؟ في كل شيءٍ كان يسعى وراء ما هو أكثر صعوبة، يُمارِس العمل الشاق عوض الملذات، ويحتمل حَرَّ الشمس والبرد والتداريب الجسمانية من أصوام وضبط للنفس، والسُّكنى في المُدن عنده لا تختلف عن الحياة في البريّة (ليس شيء من ظروف الحياة كانت تؤذيه)، وكان يجعل من البراري مُدنًا.

في حذره لم يجعل نوع الحياة يُرْبِكه، وذلك عندما كان ينسحب إلى حياة العزلة، فقد كان يُجَرِّد نفسه من ضروريات الحياة تمامًا مثلما كانت حياة المعمدان، فجعل من البرية مدينة اجتذبت الكثيرين.

لم يكن قصبة تَتَحَرَّك بسهولة نحو الآراء المُضادة، إنما برهنت حياته أن الآراء لا تحرِّكه. منذ البداية وجد مَسَرَّته في الفقر، وكان حُكمه كالصخرة التي لا تتزعزع.

اشتاق أن يقترب إلى الله خلال الطهارة، كان اشتياقه جبلاً، وليس قصبة، لا ينحني نحو رياح التجارب الغريبة[1].

❖ تَحَدَّث يوحنا بكل حريةٍ مع هيرودس، (وباسيليوس) مع فالنس (فالنز أو والنس)...

عندما يكون الإيمان في أمانٍ وغير مُلَوَّثٍ، فإن العصيان (لملكٍ) يُظهِر أن الأرض كلها مُخطئة...

لقد ظَنَّ هيرودس أن يوحنا قام من الموت، وأعداء باسيليوس سمحوا له بالعودة من النفي عندما انسحب التهديد الموجه ضدّه[2].

القديس غريغوريوس النيصي

قارن القديس غريغوريوس النيصي القديس باسيليوس بإيليا النبي، قائلاً:

❖ كان (لباسيليوس) ملامح تُعْلِنُ عن قوة نفسه، ذا وقارٍ بسيط، صمته أكثر فاعلية من الكلمات... بمثل هذه السمات تَمَثَّل المُعَلِّم **بمعجزات إيليا**.

---

[1] *J. Brill, 120.*

[2] *PG. 46: 804; J. Brill, 122.*

ربما يُقدِّم أحد مثال الصوم الأربعيني (الذي مارسه إيليا)، يمكننا أن نقول إن مُعَلِّمنا صام كل حياته.

امتناع (إيليا) عن الطعام استمر لمدة قصيرة، في المقابل امتد (بالنسبة لباسيليوس) كل حياته[1].

❖ في عصرنا لدينا مثال مُشابِه (لإيليا الذي لجأ إلى أرملة أثناء المجاعة) في مُعَلِّمنا. عندما كانت المجاعة عنيفة في المدينة التي كان فيها (باسيليوس) حاضرًا، وقد تأثرت كل المنطقة، باع ممتلكاته، واشترى بالمال طعامًا حيث كان يوجد عجز.

بهذا أَعَدَّ كمية ضخمة من الطعام، أَعَدَّ للشعب المائدة. وضع (باسيليوس) في اعتباره الشعب القادم من كل مكانٍ في وقت المجاعة، بما فيهم شباب المدينة واليهود الذين تَمَتَّعوا بسخائه تمامًا مثل الآخرين[2].

القديس غريغوريوس النيصي

كتب **القديس غريغوريوس النيصي** مقالاً يحوي حديثه مع أخته ماكرينا، جاء في مقدمته:

[باسيليوس العظيم بين القديسين قد رحل إلى اللَّه من هذا العالم. لقد حَزِنَتْ عليه كل الكنائس! كانت أخته "المُعَلِّمة" لا تزال حيّة، وقد سافرتُ إليها، لكي نتبادل التعزية من أجل فقدان أخينا.

كانت نفسي بحقٍّ مضروبة بالحزن، وذلك بتلك الصفعة المؤلِمة، فبحثتُ عن شخصٍ يمكن أن يحمل ذات مشاعري على قدم المساواة، حتى يمزج دموعه بدموعي.

إذ كنا معًا في الحضرة ألهبت رؤيتي للمُعَلِّمة كل آلامي، إذ كانت راقدة مُنبطِحة حتى الموت... لقد حاولت أن تُصلح من أمري بالحديث معي، وأن تُصَحِّحَ بلجام (شكيمة) براهينها ما أصاب نفسي من تشويش. لقد اقتبستْ كلمات الرسول إنه لا يليق بنا أن نحزن على الراقدين، فإن هذه هى مشاعر من لا رجاءَ لهم. ويقلب يعتصر ألمًا سألتُها: "كيف يمكن للبشر أن يُنَفِّذوا ذلك؟"[3]].

---

[1] *J. Brill, 123.*

[2] *J. Brill, 124; PG 46: 808.*

[3] *Dialogus de anima et resurrectione qui inscribtur Macrinia.*

الباب الأول

القدِّيس باسيليوس الكبير

سِيرته

حياة القدِّيس باسيليوس

كلمة "باسيليوس" باليونانية معناها "ملوكي[1] *Royal*".

الجدّ الشريد[2]

كانت جدَّة باسيليوس لأبيه - القدِّيسة ماكرينا *Macrina* الكبرى - تلميذة وفيَّة للقدِّيس غريغوريوس صانع العجائب كما رأينا. وقد قاست الأسرة الأهوال خلال الاضطهاد الذي أثاره الإمبراطور دقلديانوس ومكسميانوس الثاني *Second Maximinus*. فاستولى الحُكَّام على أموالهم، وتوارى الجدُّ سبع سنوات في الغابات، فِراشه الأرض وغطاؤه السماء، وقلَّما آوى إلى خيمة راعٍ من الرُّعاة. وطعامه ممَّا يَجنِيه من الثمر البرِّي.

أما جدُّ باسيليوس لأُمِّه *Emmelia* وهو من كِبَار مُلاَّك الأراضي في بلاد بنتس، فقد احتمل العذاب ومات شهيدًا. لقد ورث باسيليوس عن أهله إيمانًا حيًّا حمله على أن يكون مسيحيًا بنَّاءً[3]، كما يُخبِرنا بذلك القدِّيس غريغوريوس الثيئولوغوس أو النزينزي في مَقَالِه العشرين.

بقي من بنيهما اثنان، هما غريغوريوس وباسيليوس، صار الأول أسقفًا على أحد إيبارشيَّات كبادوكيَّة. والثاني أبو القدِّيس باسيليوس، ويُدعَى أيضًا باسيليوس، وكان عَالِمًا مشهورًا ومُعَلِّمًا حاذقًا للبلاغة (البيان) في قيْصريَّة الجديدة ببنتس، ومُحامِيًا عن الفضيلة، كما كانت شخصيَّته مُعتَبَرة جدًّا في الكنيسة نظرًا لاستقامته وتقواه. مع كونه مسيحيًّا غيورًا، لم يَستَخِفّ بالدراسات اليونانية القديمة الكلاسيكية[4].

والدان تقيّان

تزوَّج باسيليوس بامرأة فاضلة يتيمة تُدعَى "إميليا *Emmelia*"، كان أبوها قد قَبِلَ احتمال العذاب والاستشهاد لأجل اسم المسيح وهى فتاة صغيرة، وكانت هى الأخرى مَثَلاً رائعًا للمرأة المسيحيَّة الفاضلة[5].

---

[1] *Adrian Fortescue: The Greek Fathers, San Francisco, 2007, p. 43.*

[2] راجع دير السريان: القديس باسيليوس الكبير: حياته، نسكياته، قوانينه الكنسية، سنة ١٩٦٠.

[3] چان- ماري رونا: القديس باسيليوس الكبير، ترجمة الأب عقيقي اليسوعي، منشورات المعادي، ص ٦.

[4] *St. Gregory of Naz., Oratio 43: 5-8.*

[5] *N.&P.N. Frs, Series 2, vol. 8, p. xiii.*

كانت سبب بركة لرَجُلِها، فمع غناها وثروتها العظيمة وجمالها الفائق، كان الكل يمدحونها من أجل حكمتها وتَعَقُّلها وتقواها. القديس باسيليوس مَدِين لجِدَّته ماكرينا وأمه إميليا. فقد كان هو وإخوته وأصدقاؤه يَتَحَدَّثون عنهما بإعجابٍ شديدٍ.

في حديثه عن والدته وجِدَّتِه، يقول القديس باسيليوس: [لن أنسى قط الآثار العميقة عليَّ كصبي من كلمات هاتيْن السيدتيْن المُكَرَّمتيْن ومثالهما].

كانت إميليا تشتهي أن تحفظ بتوليّتها، لكن والديها توفّيا، فبقيت يتيمة. وكانت جميلة جدًّا فذاع صِيتَ جمالها، وخشيت لئلا يغتصبها أحد المُغرَمين بجمالها، فقبِلَت الزواج من باسيليوس التقي.

أنتج هذا الزواج الموفَّق عشرة أطفال مُمتازِين، خمسة بنين وخمس بنات، يبدو أن أحد هؤلاء الأبناء مات وهو بعد طفل.

وقد شهد القديس باسيليوس الكبير على ما بَذَلَته جِدَّته من جهدٍ في تربيته في صغره، وأشاد بها في قوله:

[هل يمكن أن توجد شهادة أخرى عن إيماني أكثر من قولي إني تربيت على يدي جِدَّتي الطوباوية، تلك السيدة التي كانت تعيش بينكم، أقصد ماكرينا الشهيرة التي قامت بتعليمي كلمات الطوباوي غريغوريوس (صانع العجائب). وكانت تقوم ببنائي وتثبيتي في طريق التقوى منذ كنتُ طفلاً صغيرًا. وعندما نلتُ القدرة على التفكير، نضج عقلي بكمال عمري، وسافرت لفترة طويلة بحرًا وبرًا، وكل من وَجَدْتهم سالكين في قانون الصلاح، أجلس عند أرجلهم كآباء، وأجعلهم قادة لنفسي في رحلتي مع الله[1]].

القدّيسة ماكرينا الصغرى

كانت **ماكرينا** أكبر التسعة الأحياء، تُدعَى على اسم جدَّتها "**ماكرينا الكبرى**". دُعِيَت هذه الحفيدة المشهورة **القدّيسة ماكرينا الصغرى** التي كانت مثالاً رائعًا للحياة النُّسكيَّة. يدعوها أخوها غريغوريوس "مُعَلِّمته". فقد اجتذبَته من رغبتِه الحارة للبلاغة وتولّي مركز الخطيب والمحامي ليعشق الرهبنة والتكريس الكامل للحياة الرهبانيَّة. سيرتها التي سَجَّلها أخوها القديس غريغوريوس أسقف نيصص، هي إنجيل حي عملي مفتوح أمام أعيننا، ترفع النفس إلى السماء لكي يَتَمَتَّع المؤمن بالوعود الإلهية الصادقة. سيرتها تكشف بقوة عن دور المرأة المسيحية في حياة الكنيسة، فقد قَدَّمتْ لنا شخصيات قيادية نادرة بفضل اهتمامها بهم.

---

[1] *Letter 204:6.*

ربَّاها والداها تربية مسيحية وعَلَّمَاها القراءة والاهتمام بأعمال المنزل والتزاماته، وكانت تواظب على قراءة الإنجيل ولا سيّما سفري الحكمة والمزامير. يروي لنا أخوها أنها كانت تُرَدِّد المزامير عند بدء ممارستها لأي عملٍ وعندما تنهيه، وأثناء الأكل وبعده، وقبل النوم وبعده "**كانت مزامير داود على شفتيها بشكل متواصل، ورفيقة لحياتها**".

سمح الله لأخيها القديس غريغوريوس أن يحضر اللحظات الأخيرة ليُسَجِّل لنا اشتياقها الحق للعبور إلى السماء. فقد سار أخوها طريقًا طويلاً ليراها بعد ثماني سنوات. في الليلة السابقة من وصوله إلى الدير رأى في حُلْمٍ أنه مُمْسِك برفات شهداء يشرق منها بهاء شديد بهر عينيه. تَكَرَّر الحلم ثلاث مرات في نفس الليلة ولم يعرف له تفسيرًا.

وإذ بلغ الدير جاء النُّساك من دير الرِّجال يستقبلونه، وقفت الراهبات في الكنيسة ينتظرن إياه. وقد لاحظ أن أخته، رئيسة الدير، ليست بينهن، فأدرك أنها مريضة.

انطلق إلى قلايتها فوجدها مُمَدَّدة علي الأرض فوق لوح خشبي، عاجزة عن القيام لاستقباله. هذا الجسم الذي صار هزيلاً بسبب المرض لم يُحَطِّم نفسها المُلتهبة بحُبِّ السماويات، إذ يقول القديس غريغوريوس:

"أَخَذَتْ تتحدَّث **كلامًا عذبًا عن النفس**، وقد أفرحتني بأسئلتها. عندما تَحَدَّثنا عن ذكر باسيليوس الكبير، حزن قلبي فورًا وتَجَهَّم وجهي. أمَّا الطوباوية ماكرينا فكانت بعيدة كل البعد عن أن تَحزن مثلي...

تَحَدَّثت كثيرًا عن الحياة الآتية، وكأنها مُستنيرة بالروح القُدُس حتى **شعرت بأن ذهني قد ارتفع بأقوالها**، وأني خرجت من الطبيعة البشرية... إلى السماوات، بقيادة أقوالها...

إن كان المرض قد أنهك قواها وقَرَّبها من الموت... **كان ذهنها مأخوذًا في مُعاينة العلويات دون أن يُعِيقَه المرض بالكلية**".

انتَقَلَت من هذا العالم ووَجهها نحو الشرق، وقد رَشَمَتْ نفسها بالصليب، وكانت تُصَلِّي بقلبها وتُحَرِّك شفتيها، إذ عجزت عن الكلام. سأل القديس غريغوريوس عمّا يُكَفِّنونها به، فأجابت لامباذيا وهى الأولى في مصاف الراهبات وشماسة:

"لباس البارّة هو حياتها الفاضلة والطاهرة. هذه كانت زينتها وهى حيّة. فليكن الآن لباسها في موتها...

ما هو الشيء الذي يمكن أن يكون محفوظًا لدينا؟

فها هو أمامك كل ما تملك. هذا هو لباسها. هذا هو غطاؤها. وها هى أحذيتها. هذا هو غناها. هذه هى ثروتها.

لا تملك شيئًا آخَر عمّا تراه، لا في صندوق ولا في قلاية. فإنها قد عرفت مخزنًا واحدًا لغناها، ألاَ وهو السماء".

كأخ وأسقف طلب أن يُقدِّمَ لها شيئًا لدفنها، وإذ كانت جميلة جدًّا صار وجهها يُشرِقُ ببهاءٍ عجيب مُتذكِّرًا الحلم الذي رآه. قالت له إحدى الأرامل: "من الأفضل ألاّ تظهر القديسة على أعين الراهبات مُحلاة هكذا كعروس. إني أملك لباسًا أسود اللون كان لوالدتكم، فمن الأفضل أن نضعه فوق جسدها المُقدَّس، كي لا يَظهر جمالها الطاهر المُشعّ من جسدها والذي اشتد لمعانه بهذا اللّباس الغريب عنها".

استمر بهاء وجهها مُشرِقًا حتى بعد تغطية جسدها باللّباس الأسود.

بقية أبناء وبنات باسيليوس وإميليا

١. كان أكبر الذكور بعد الابن الأول الذي مات طفلاً هو **باسيليوس** صاحب السيرة.

٢. الابن الثاني بعد باسيليوس هو **نوقراطيس** *Naucratius*. كان في الثانية عشرة من عمره حين مات والده.

تنيّح نوقراطيس تقريبًا في فترة سيامة أخيه باسيليوس أغنسطسًا (قارِئًا)، وكان شابًا[1]. غالبًا ما كان له أثره الروحي على شخصية أخيه الأكبر منه (باسيليوس) في عدم الانخراط في المراكز الزمنية، وتكريس الحياة لله كما سنرى.

٣. الابن الثالث **غريغوريوس**، سَبَق لنا الحديث عنه في كتابٍ مُستقلٍّ[2]. تشهد كتاباته التفسيرية عن إعجابه الشديد بالعلاّمة أوريجينوس، فقد استخدم أساسيات طريقته الرمزية، ما عدا مقالتيه عن قصة الخلق، اللذين كُتبا كطلب أخيه بطرس أسقف سبسطية[3].

٤. الابن الرابع والأصغر **القديس بطرس** وُلِدَ قُبيل وفاة والده بزمنٍ قصيرٍ أو تنيّح والده وهو بعد رضيعٍ، فتلَقَّفته أخته القديسة ماكرينا التي أَلهَبَت قلبه بالحياة النُّسكية والعزوف عن المراكز الزمنية والكرامات الباطلة.

التحق بالجماعة الرهبانية التي أقامها أخوه القديس باسيليوس على ضفاف نهر الإيريس، فقد احتاج إليه أخوه ليُعاوِنَه في تدبير هذه الجماعة، وليكون خلفه، إذ اتَّسم بالحكمة والرزانة مع الحياة الفاضلة في الرب.

---

[1] *Greg. Nyssa: Vita Macrina 1: 2.*

[2] الكلية الإكليركية واللاهوتية بالإسكندرية: القديس غريغوريوس أسقف نيصص، حياته - كتاباته - منهجه وأفكاره، ١٩٩٢.

[3] *Quasten: Patrology, vol. 3, P. 263.*

حَلَّت مجاعة عنيفة اجتاحت بنتس وكبادوكيا، فظهرت محبة هذا القديس الفائقة. بحسب الحكمة البشرية، كان يليق به أن يكون مُقتصِدًا في العطاء للآخرين حتى يطمئن أن جماعته تجتاز هذه المحنة بسلام، لكن محبته المسيحية الباذلة جعلته يفتح مخازن هذه الجماعة ليُعطِي بفيض للجميع، واثقًا في الله مُشبع الجميع.

سِيمَ القديس بطرس أسقفًا على سبسطية عام ٣٨٠م لاقتلاع كل جذور الأريوسية عن الإيبارشية. وفي عام ٣٨١م اشترك في المجمع المسكوني الثاني بالقسطنطينية، حيث أظهر غيرة على الإيمان المستقيم مع حكمة وتقوى. تنيح في صيف عام ٣٩١م على ما يُظَنّ.

قَدَّم باسيليوس (الوالد) للكنيسة ثلاثة أتقياء رُسِموا أساقفة: باسيليوس على قيْصريَّة، وغريغوريوس على نيصص، وبطرس على سبسطيَّة *Sebesete*، وأيضًا راهب وهو نوقراطيس وراهبة وهي ماكرينا[١].

ميلاد باسيليوس

يبدو أن الوالدين كانا يعيشان في قيصرية الجديدة[٢] *Neocaesarea*. أمّا عن مكان مولد باسيليوس، فقد ذُكِرَتْ مدينتان: قيْصريَّة كبادوكيَّة، وقيْصريَّة الجديدة في بنتس. ولا نستطيع أن نجزم أيهما أصح، لعدم وجود الدليل الكافي.

لكن لعدة اعتبارات يمكن اعتبار قيْصريَّة الكبادوك هي مسقط رأسه. وذلك لأن الكلمة اليونانية "*Πατρης*" كانت تُطلَق على مكان المولد كما على مكان الإقامة والتملُّك، وكان والدا باسيليوس لهما ممتلكات ومصالح في بنتس وكبادوكية[٣].

جاء ميلاد باسيليوس على أرجح الآراء سنة ٣٢٩م[٤]، بعد أن انتهى المجمع المسكوني الأول بنيقية (سنة ٣٢٥م) من وَضْعِ الصيغة الرسميَّة للمُعتقدات الإيمانيَّة الأساسيَّة، تلك الفترة التي كانت فيها للشرق الأهميَّة الكنسيَّة واللاهوتيَّة أكثر من الغرب. وهكذا وُلد باسيليوس في فترة هامة وخطيرة في تاريخ الكنيسة، من أسرة اجتمع فيها أصالة الإيمان والتقوى والجاه والشرف والثراء، تقدَّست بدم شهدائها، وتَدَعَّمت بتقوى أفرادها من شهداء وأساقفة ورهبان وراهبات.

---

[1] *Adrian Fortescue: The Greek Fathers, San Francisco, 2007, p. 45.*

[2] *James Hanrahan: the Life of Saint Basil the Great, Toronto 1979.*

[٣] د. چورچ عوض إبراهيم: القديس باسيليوس الكبير، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة.

[٤] يرى كواستن *Quasten* أنه وُلد حوالي عام ٣٣٠م، ويرى آخرون أنه وُلد عام ٣٣١م.

ثقافته[1]

١. في طفولته (في أسرته)

تربَّى على يد جدَّته ماكرينا في قرية معروفة قُرْبِ قيْصريَّة الجديدة. كان للأسرة ممتلكات لا بأسَ بها في تلك المنطقة التي قام فيها بعد ذلك. كانت ممتلكاتهم في أنيسي - *Annesos* *Annesi (Annisa)* علـى نهر الإيريس *Iris*، الآن آرمك فـي هيلينبـونتس *Hegenpontus*، والمناظر إلى جوارها ذات جمال خيالي، وكانت خلوة باسيليوس فيما بعد على الضفة المُقابِلة لذلك النهر، ذات المناظر الطبيعيَّة الشاعريَّة. هناك تَشَرَّب تقاليد العائلة، التي استمدتها من تعاليم القديس غريغوريوس صانع العجائب[2]، وربما هناك بدأ دراساته.

فـي أنيسـي شَـيَّدَت أُمُّـه إميليا هيكلاً علـى اسم الأربعين شـهيدًا الـذين استُشـهِدوا فـي سبسطيَّة، ونُقِلَتْ إليه ذخائرهم المُقدَّسة. ويُحتمَل أن يكون باسيليوس قد حضر صلوات التدشين التي كانت تستمر طوال اليوم.

فـي ذلك المكان الهادئ تَلَقَّن باسيليوس مبادئ الدين والإيمان الأرثوذكسي من جدَّته ووالده. يُروَى أن الفضل الأول فـي توجيهه الديني كان لجدَّته، كما كان أيضًا لأخته الكبيرة ماكرينا. هذا وقد كان بيته العائلي بيت علم وتقوى في نفس الوقت، وكان مدرسة تعلَّم فيها على يدي والدٍ عالمٍ وباحثٍ تقيّ.

كـان والـده مُدَرِّس بلاغـة يُجِيد الخطابـة، كمـا كـان محاميًا مشـهورًا فـي بنـتس. يخبرنـا القديس غريغوريوس النزينزي أن باسيليوس تلقَّى تعليمه المُبَكِّر على يدي والده. يتحدَّث عنه كفتى صغير مملوء غيرة وحماسًا دائمًا في صحبة والده، تَشَرَّب منه التعليم البدائي مع الحياة الفاضلة[3]. كما يقول: [لقد استُجيبت صلاته كأبٍ، الأمر الذي اختبره قلة قليلة جدًا، فإنه وإن كان قد فاق الكل في الفضيلة، غير أن شهرته ترجع أولاً إلى ابنه[4].]

في مقارنة القديس باسيليوس بصموئيل النبي ذكر أخوه القديس غريغوريوس النيصـي أن الطفل باسيليوس أُصِيب بمرضٍ مُميتٍ، ورأى والده في رؤيا أثناء نومه الرب الذي اهتم بطفلٍ (غلامٍ)، قائلاً لأبيه: "اذهب، ابنك حي" (يو ٤: ٥٠). حمل الأب نفس الإيمان، ونال الابن خلاصًا خلال محبة الرب.

---

[1] راجع دير السريان: القديس باسيليوس الكبير: حياته، نسكياته، قوانينه الكنسية، سنة ١٩٦٠.

[2] *Letter 204.*

[3] *Greg. Nyssa: On St. Basil, 12.*

[4] *Greg. Nyssa: On St. Basil, 10.*

أدرك والده كفيلسوف ومُعَلِّم للشباب من سن الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة ما اتَّسم به ابنه باسيليوس من مواهبٍ، فأعطاه اهتمامًا خاصًا منذ طفولته المُبَكِّرة.

في مناقشة القدِّيس لمراحل نمو الإنسان حتى البلوغ، قَدَّم لنا خبرة عملية لحياته الشخصية، إذ قال إن الإنسان في نموه يَمُرُّ بثلاث مراحل، كل مرحلة تمتدُّ إلى سبع سنوات[1]:

١. **مرحلة الطفولة:** من ميلاده حتى يبلغ السابعة من عمره، حيث تكون له الأسنان الدائمة.

٢. **مرحلة الصبوَّة:** من سن ٧ إلى سن ١٤، تتسم هذه المرحلة بأن تبدأ في الإنسان شهوة العلم والدراسة.

٣. **مرحلة البلوغ:** من الرابعة عشرة حتى الحادية والعشرين من عمره، وهي مرحلة المُراهقة، حيث تنمو لِحْية الشاب، وتنتهي بأن يبلغ الإنسان إلى الرجولة. وهي مرحلة دراسة المنطق والبلاغة والدراسات التي تسنده للعمل في الحياة العامة. أمّا بعد الحادية والعشرين فلا يعود الجسم ينمو.

يربط شكري يوسف شكري[2] بين ما ورد في اعترافات **القديس أُغسطينوس** ورسائل **القديس باسيليوس الكبير** بخصوص هذه المراحل الثلاث فيقول:

[ويمكن تمييز هذه المراحل الثلاث بوضوح في حياته.

فقد بدأت المرحلة الأولى عند ميلاده في قيصرية، ووِفقًا لِمَا كان مُتَّبِعًا في هذا الوقت عند العائلات الثرية التي تُمَكِّنهم مواردهم من تسليم أبنائهم حين يولدون إلى مرضعات لإرضاعهم[3]، سَلَّمته والدته إلى إحدى الخادمات التي كانت تعمل في ممتلكات عائلتها في قيصرية، وعهدت إليها بمهمة رضاعته. وفي سبيل ذلك كانت أمه توفر لهذه المربية ومن معها من خدم آخرين وأولادهم جميع ما كانوا يحتاجون إليه من وسائل المعيشة.

وبعد أن أنهى فترة الرضاعة هناك تسلّمته والدته، وعادت به إلى بيت العائلة في أنيسى *Anesi*، حيث يبدأ دور عائلته في تربيته وفي توجيه حياته في هذه الفترة المُبَكِّرة من عمره[4].]

---

[1] *On Psalm 1,5; Psalm 114 (116).*

[2] شكري يوسف شكري: سيرة القديس باسيليوس الكبير، ٢٠١١.

[3] *Augustine: The Confessions, 1:13-14.*

[4] *Basil: Letters, 37.*

فقد جاء في هذه الرسالة أنه من بين رسائله، رسالة كتبها إلى أخيه في الرضاعة، ابن مربيته[1].

تنيح والده حوالي سنة ٣٤٥م بعد ميلاد أصغر ابن له، بطرس، ربما كان باسيليوس في الخامسة عشرة من عمره[2]. صار بطرس فيما بعد أسقفًا على سبسطية، وقد قامت ماكرينا أخته بتعليمه، التي صارت له "ليس فقط أختًا له، بل وأبًا وأُمًّا وولية أمره ومُعَلِّمة الكل معًا في واحدٍ[3]".

في إحدى رسائله اعترف القدّيس بأنه أفسد فترة في شبابه في أمور باطلة، حيث طلب حكمة العالم، لكنه كان كمن في نومٍ واستيقظ يطلب حكمة الله[4].

غير أنه يعترف ما غرسته فيه أسرته، خاصة والدته وجِدَّته ماكرينا من استقامة إيمان لم ينحرف عنه قط، إذ كتب:

- ❖ إن كانت بعض الأمور الأخرى فيَّ سبَّبت لي حسرة، غير أنني أعتزُّ على الأقل بشيء واحدٍ، أعتزُّ به في الرب، أنني لم أتحرّك إلى لحظة واحدة نحو مفاهيم خاطئة نحو الله، أو فكّرت في آراء هرطقية عرفتها مؤخّرًا.

  إن التعليم الخاص بالله الذي تَسَلَّمته وأنا صبي من أُمّي المُطَوَّبة وجِدَّتي ماكرينا، تمسّكت به ناميًا على الدوام. وعندما بلغت سنوات النضوج العقلي لم أنتقل من فكرةٍ إلى فكرةٍ. إنما حَملت الأساسيات التي تَسَلَّمتُها من والديّ. وذلك مثل بذرة في بداية نموها تكون صغيرة للغاية، تكبر مُحتفظة بهويّتها على الدوام، ولا يتغيَّر نوعها وإن كانت تكمل في نموّها. هكذا أحسب نفس التعليم كان ينمو في حالتي تدريجيًا في مراحل مُتقدِّمة. ما أحتفظ به حاليًّا لم يحلّ محلَّ ما تمسَّكتُ به في البداية[5].

القديس باسيليوس الكبير

٢. في قيْصريَّة كبادوكيَّة

لكي يُكَمِّلَ دراسته بعد وفاة والده، أُرسِلَ إلى مدرسة للخطابة في قيْصريَّة كبادوكيَّة حوالي سنة ٣٤٥م. ربما كان بالمدينة أقرباء له من عائلة والدته. وكانت المدينة تُعتبَر المركز الرئيسي للدراسات في كل بنتس.

---

[1] *N.& P.N. Frs, Series 2, vol. 8, p.136-137.*
[2] *Cf. James Hanrahan: The Life of Saint Basil, the Great.*
[3] *Greg. Nyssa: De vita S. Macrina.*
[4] *Letter 223:2 Against Eustatius of Sebasteia, dated 375.*
[5] *Letter 223:3 Against Eustatius of Sebasteia, dated 375.*

هناك تَعَرَّف بأشخاص من بينهم غريغوريوس النزينزي. وكان تقريبًا من نفس عمره، ولا تختلف ثقافة الأسرتين في شيءٍ. كان والده يحمل أيضًا اسم غريغوريوس غنيًّا صاحب أراضي، له نشاط في الشئون الوطنية، قَبِل الإيمان المسيحي على يدي زوجته نونا. سيم كاهنًا، وكانت زوجته تقية وغيورة، قال عنها ابنها إن والده قد تَعَلَّمَ الرعاية من أمه. سيم بعد ذلك أسقفًا على نزينزا لمدة خمسة وأربعين عامًا، ربما كان قد تَكَرَّس هو وزوجته لخدمة الله.

قال غريغوريوس الصغير عن صديقه باسيليوس، إنه صارت له شهرةٍ في المدينة تُعادِل شهرة أساتذته، وتفوق زملاءه الطلبة[1].

كانت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، تُحسَب روما الثانية، يحكمها قسطنطيوس *Constantius*، إذ مات قسطنطين عام ٣٣٧م وانقسمت المملكة إلى المملكة الغربية تحت حكم قسطنس *Constans*، وكان يميل إلى الإيمان النيقوي، أمَّا أخوه قسطنطيوس فَحَكَمَ المملكة الشرقية وقد تأثَّر بشبه الأريوسية. وفي سنة ٣٥٠م مات قسطنس، وصار قسطنطيوس الإمبراطور الوحيد للملكتين عام ٣٥٣م.

افترق الصَديقان، فذهب غريغوريوس إلى قيْصريَّة فلسطين، وباسيليوس إلى القسطنطينيَّة، ثم اجتمعا فيما بعد في القسطنطينيَّة.

أُعجِبَ باسيليوس برئيس الأساقفة ديانيوس *Dianius*. ويروى لنا غريغوريوس أنه حتى في تلك الفترة المُبكِّرة حاز باسيليوس شهرة عظيمة لسموِّه العقلي فضلاً عن شخصيَّته التقيَّة. فكان فيلسوفًا بين الفلاسفة، وخطيبًا بين الخُطباء، حتى قبل أن يدرس هذين الفرعين في العلوم دراسة منتظمة. وفوق كل شيءٍ كان يَخْدِم بقلبٍ ناريٍّ بين المسيحيِّين قبل أن ينال أية رتبة كهنوتية، وهكذا لفتت شخصيَّته الأنظار.

٣. في القسطنطينيَّة

انتقل باسيليوس من قيْصريَّة إلى القسطنطينيَّة حوالي سنة ٣٤٩م، حيث درس البيان والفلسفة بنجاحٍ. ويقول المؤرِّخان سقراط[2] وسوزومين[3] إنه تلقَّى الدرس على يد ليبانيوس في أنطاكية، كان برفقته القديس غريغوريوس النزينزي بعد عودتهما من أثينا. وإن كان البعض يرى أن المؤرخين قد سقطا في الخطأ في تحديد الزمان والمكان، كما في إشراكهما غريغوريوس معه في التعلُّم على يَدَي الفيلسوف. ولكن يبدو أنهما خلطا بين باسيليوس الذي نحن بصدده

[1] *Greg. Naz. On Basil, 13.*

[2] *H.E. 4:26.*

[3] *H.E. 6:17.*

وباسيليوس صديق القدّيس يوحنا الذهبي الفم الذي أهدى إليه كتابه "الكهنوت". وليس هناك ما يثبت إقامة باسيليوس في أنطاكية، ويُحتمَل أن يكون قد حضر بعض محاضرات ليبانيوس في القسطنطينيَّة وليس في أنطاكية. على أيّ الأحوال، معلوماتنا عنه في سنوات إقامته الخمس في القسطنطينيَّة ضئيلة.

أشار أخوه القديس غريغوريوس أسقف نيصص إلى أن أخاه تَعَلَّم الخطابة على يد الفيلسوف ليبانيوس. لكنه أشار إلى ذلك بإيجازٍ شديدٍ، مع عدم تحديده للوقت والمكان.

هذا وقد بعث إليه باسيليوس فيما بعد رسائل مع أشخاص ليتتلمذوا على يديه[1]. كما أرسل إليه الفيلسوف يشكره على ما ورد في رسائله[2].

وهنا يليق بنا أن نُشير إلى هذا الفيلسوف الخطيب الذي تتلمذ على يديه بعض آباء الكنيسة الأوائل.

ليبانيوس الفيلسوف (٣١٤ - ٣٩٤م)

فيلسوف وخطيب يوناني وثني. وُلِدَ في مدينة أنطاكية حوالي عام ٣١٤م، وبدأ دراسته فيها، ثم رحل إلى أثينا، وأكمل تعليمه هناك خلال إقامته أربع سنوات فيها.

ذهب إلى **القسطنطينية** وهناك واصل دراسته، وصار مُعَلِّمًا رائعًا للشباب في القسطنطينية. نال شهرة عظيمة على أثرها حسده البعض، منهم المُفكِّر السوفسطائي بيمارخوس *Bemarchius* الذي كان قبلاً مُعَلِّمًا له.

اتَّهمه الأخير بالشعوذة، ونَسبَ إليه رذائل كثيرة، فاستبعده الحاكم من المدينة عام ٣٤٦م، فذهب إلى **نيقية**، وبعد قليل ذهب إلى **نيقوميديا** *Nicomedia* حيث قضى خمس سنوات كمُعَلِّمٍ ناجح.

استدعاه يوليانوس إلى القسطنطينية، وكان يحضر أحيانًا محاضراته. لكن لم تتوقَّف مقاومته، فعاد إلى بلده **أنطاكية** في الأربعين من عمره.

في أنطاكية استقبل ليبانيوس الإمبراطور يوليانوس الجاحد استقبالاً حارًّا، كما أكرمه الإمبراطور[3].

عبثًا حاول ليبانيوس أن يوقف الخلاف بين الإمبراطور وبين رعاياه الأنطاكيين المسيحيين.

---

[1] *Letter 335, 337 to Libanius.*

[2] *Letter 336, 338.*

[3] *Mcclintock & Strong's Cyclopedia.*

قضى بقية حياته هناك مُعَلِّمًا وخطيبًا وكاتبًا، ثم مات عام ٣٩٤م.

كان يتميّز بسعة العقل وثقافته الواسعة وعلمه الغزير إلى جانب الاستقامة وحسن الخلق. وبالرغم من كونه وثنيًا، استطاع أن يجذب إليه قلوب المسيحيين الذين أُعجِبوا بحُسن صفاته وطهارته، ونال تقديرهم، حتى أنهم كانوا يعهدون إليه بتعليم أبنائهم. ومن أشهر تلاميذه القدّيس باسيليوس والإمبراطور يوليانوس الجاحد، والقديس يوحنا الذهبي الفم.

كانت له رسائل مُتبادلة مع الإمبراطور يوليانوس. وبموت يوليانوس فقد ليبانيوس رجاءه في استعادة الوثنية.

كان يشتكي على الآلهة أنهم أطالوا من عمر قسطنطيوس ولم يطيلوا من عمر يوليانوس.

أُتُّهِمَ بالخيانة في أيام فالنس، فدافع عن نفسه وقُبِلَ دفاعه.

في أنطاكية إذ كان ليبانيوس *Libanius* أعظم خطباء عصره يحتضر[1]، التفَّ حوله تلاميذه يسألونه عمن يخلفه، فتنهّد الفيلسوف الوثني قائلاً: "يوحنا لو لم يسلبه المسيحيون منا[2]". فقد اكتشف هذا الفيلسوف السوري مواهب تلميذه يوحنا وفصاحته، وكان يأمل أن يُسَلِّمَه قيادة مدرسته من بعده، غير أن كنيسة بيته كانت أقدر على جذب قلبه! اضطر الفيلسوف الوثني ليبانيوس أن يشهد عن أنثوسا والدة القديس يوحنا الذهبي الفم، قائلاً: "لله دُرّ النساء عند المسيحيين!".

من وقتٍ إلى آخَر أُكتُشِفت بعض كتاباته فيها مرثاته لموت يوليانوس، وسيرته الذاتية التي كتبها وهو في الستين من عمره، كما كتب عن الصداقة والغِنَى والفقر. له أكثر من ٢٠٠٠ رسالة موجّهة إلى ٥٠٠ شخص من بينهم أثناسيوس وباسيليوس وغريغوريوس أسقف نيصص وذهبي الفم، كما كتب حياة *Demosthenes* ومناظرات في مقالات لـ *Demosthenes*.

٤. في أثينا

اجتذبت القسطنطينية كثيرًا من الخطباء والفلاسفة، لكنها لم تكن تعادل أثِينا في شهرتها.

كانت أثينا لها مخاطرها الكثيرة، إذ كانت آخِر معاقل الآلهة القديمة، ومع ذلك كان لها جاذبيتها القوية، بكونها أُمًّا للثقافة الهيلينية، وتضم عظماء المُعَلِّمين والفلاسفة في العالم[3].

---

[1] عام ٣٦٥م.

[2] *Sozomen: Ecc. His 8:2.*

[3] *Adrian Fortescue: The Greek Fathers, San Francisco, 2007, p. 47.*

كانت أثينا حتى منتصف القرن الرابع لا تزال تحكمها أكروبوليس *Acropolis* (قلعة أثينا) التي كانت مركزًا للديانة والثقافة الهيلينية لمدة ثمانية قرون. كانت لا تزال مدينة المذابح المُتعدِّدة والآلهة الكثيرة، تشتاق أن تسمع ما هو جديد (أع ١٧: ١٦ - ٢١). كانت لا تزال أكثر من غيرها من مدن العالم تنتعش فيها العبادة الوثنية وتفتخر بأنها على علاقة بأمجاد الفنون والأدب والفكر. كانت تُمَثِّل خطرًا عظيمًا على طالبي العلم الذين يحتشدون إليها من العالم[1].

كانت العادة في ذلك الحين أن ينتقل الأشخاص الذين يريدون أن يُتَمِّموا دراستهم العليا من مركز علمي أو فلسفي إلى آخَر، فانتقل القديس باسيليوس من قيصرية إلى القسطنطينية ثم إلى أثينا حوالي عام ٣٥١م. كانت أثينا من أشهر المدن الجامعيَّة في العالم، لقد ركَّزت روما والقسطنطينيَّة لذَّتيْهما في الثروة والسلطان الإمبراطوري، ولكن أيًّا منهما لم تفلح في أن تُزَحزِحَ أثينا عن مركزها في عالم الآداب والمعارف، ذاك الذي حازته بواسطة التقليد الأدبي والتعليمي منذ ثمانية قرون مضت. فكانت أثينا بصيتها الذائع القديم وتقاليدها التاريخيَّة من ناحية، وأساتذتها الممتازين في الفلسفة والبلاغة من ناحية أخرى، ما تزال تجذب إليها جمهرة من الطلاب من كل أنحاء بلاد اليونان، بل من مقاطعات أسيا النائية أيضًا.

يروي لنا القديس غريغوريوس النزينزي تحرُّكات القدِّيس باسيليوس الكبير من أجل العِلْمِ، ذهابه إلى العاصمة "القسطنطينية" حيث استطاع أن يستوعب العلم **لينطلق إلى أثينا مركز الآداب والفلسفة في ذلك الحين.**

[انطلق من ذلك المكان إلى بيزنطة *Byzantium* المدينة الملكية للشرق، والتي تميَّزت بسمو أساتذتها للغاية في الخطابة والفلسفة.

لقد استوعب بسبب قدراته دروسهم القيِّمة، ومن هناك بعث به الله، كما دفعته رغبته المُلِحَّة للثقافة أن يذهب إلى أثينا بيت الأدب.

أثينا بالنسبة لي، كما لكل أحدٍ، مدينة بالحق مصنوعة من الذهب، راعية لكل ما هو صالح. لقد **قدَّمَت لي باسيليوس بأكثر كمالٍ،** هذا الذي لم يكن غير معروف لدي من قبل.

بسعيي نحو الأدب نلتُ سعادة، وبطريقة أخرى صارت لي نفس خبرة شاول (١ صم ٩: ٣)، الذي كان يبحث عن أُتُن أبيه فوجد مملكة، ونال بطريقة عارضة ما هو أعظم بكثير ممّا كان في ذهنه[2]].

---

[1] *Cf. James Hanrahan: The Life of Saint Basil, the Great.*
[2] *Greg. Naz. Oration 43 The Panegyric on St. Basil, 14.*

٥. صداقته مع القدّيس غريغوريوس النزينزي

١. خطة إلهية حَوَّلت أثينا في عينيَّ إلى مدينة ذهبية

وقف القدّيس غريغوريوس النزينزي يُلقِي خطابًا مُطَوّلاً عن حياة صديقه الحميم ورفيق حياته القدّيس باسيليوس الكبير. أراد أن يُحَمِّلنا معه لنكون في رفقة هذه الشخصية الفريدة، لا في قدراتها ومواهبها العلمية فحسب، ولا في جديته العجيبة وحرصه على العمل لبنيان البشرية وتَمَتُّعها بالشركة مع الله، وإنما أيضًا عمَّا تحمله أعماقه من حُبٍّ فائق وجاذبية عجيبة.

حَدَّثنا عن قدرته على استيعاب العِلْمِ بالقسطنطينية، وانطلاقه إلى أثينا مركز الفلسفة والعلم والبلاغة والخطابة في ذلك الحين.

هنا يشعر غريغوريوس أنه أسير محبة صديقه الذي عَرَفَه قبلاً، لكن حسب لقاءه معه في أثينا والتصاقهما معًا في الفكر والهدف والقدرات حتى في المعيشة اليومية والتعامل مع المحيطين بهما قد سباه تمامًا. فاعترف أنه حتمًا لا يستطيع لسانه أن يُعَبِّرَ عمّا في فكره وقلبه وكل مشاعره. لقد خشي أن هذه العلاقة الحميمة قد تدفعه إلى نوع من المبالغة في الحديث.

شبَّه غريغوريوس نفسه بشاول بن قيس الذي انطلق يبحث عن أُتُن أبيه المفقودة (١ صم ٩)، فإذا به لا يجد الأتن، وإنما وجد نفسه ينحني أمام صموئيل النبي ليُعْلِنَ له أن الله اختاره أول ملكٍ على شعبه. لم يكن شاول قادرًا أن يقارن بين بحثه بكل اجتهاد عن أُتن ضائعة، وبين اختيار العليّ له ليكون ملكًا على شعبه! هكذا جاء غريغوريوس إلى أثينا يطلب العلم بكل شغفٍ، وإذا به يدرك أن الله أرسله ليبعث إليه باسيليوس، فيعيش الاثنان وكأنهما روحٌ واحدةٌ في جسديْن يُكَرِّسان حياتهما لله!

بهذا **صارت أثينا في عَيْنَيه أشبه بمدينة مصنوعة من الذهب**، ثمينة للغاية، ليس من أجل ما يَتَلقَّنه من عِلْمٍ ودراسات، بل بالأكثر من أجل التقائه بصديق عمره القدّيس باسيليوس.

والآن عوض الحديث عن القدّيس باسيليوس وقف غريغوريوس يتحدَّث عن طريق الصداقة على مستوى علوي سامي للغاية. التقى معه في أثينا، وكأنهما فرعا نهر مُنطلقان معًا مملوءان بمياه مصدرها ينبوع واحد مشترك.

يُكَمِّل غريغوريوس حديثه، محاولاً بكل جهده ألا يشغل السامعين بهذه الصداقة الفريدة بقدر ما يكشف عن شخص صديقه المحبوب لديه جدًا. أكمل خطابه، قائلاً: [من الآن صار طريقي واضحًا، قادني في مديحي (لصديقي باسيليوس) إلى طريق الملك على مستوى عالٍ وسهلٍ.

من الآن لا أعرف ماذا أقول وإلى أين أتَّجه، فإن عملي صار شاقًا. فإنني في شغف انتهز الفرصة لأضيف من خبرتي شيئًا إلى الحديث، وأكتب بإسهاب عن قصة الظروف التي أنشأت صداقتنا، أو أقول بأكثر دقةٍ **اتحادنا معًا في الحياة والطبيعة.**

فإن أعيننا لم تكن مُستعدَّة أن تتحوَّل عن الأمور الجذَّابة (الصداقة)، وإن حاولنا أن نُحوِّلهما بالعنف، ترجع ثانية إلى ما اعتادته. لذلك سأتباطأ في وصف ما هو عذب لدينا... وسأبذل الجهد أن أتكلم بكل اعتدالٍ ما أمكن![1]

لقد احتوتنا أثينا كفرعيْن لمجرى نهر، فإننا بعد أن تركنا ينبوع وطننا المشترك، انفصلنا ببحثنا عن الثقافة المتنوعة، والآن اتحدنا من جديد بدافعٍ من الله ليس بأقل من رغبتنا نحن في الاتفاق معًا.

لقد سبقته إلى أثينا بمدة قليلة، وفي الحال التحق بي، لكي يُرَحِّبَ به الرجاء العظيم الباهر. فقد كان مُتمكِّنًا من لغاتٍ كثيرةٍ قبل وصوله، وإنه لأمرٍ عظيمٍ لكل منَّا أن نَتَقَدَّم في دراستنا[2]].

٢. ترحيب الطلبة به

روى لنا القدِّيس غريغوريوس في شيءٍ من الاستفاضة عما كان يجري في أثينا بخصوص الطلبة الجدد القادمين إليها، يمكن تلخيصه في الآتي:

أ. كان مُعْظَم المُعَلِّمين بأثينا غرباء عنها، يتقاضون أجورهم من الطلبة الذين يتتلمذون على أيديهم. وكان طلبة كل مُعَلِّم يُمَثِّلون جماعة متماسكة، ويحسبون أن الاستماع إلى أستاذٍ آخَر هو خيانة عظمى.

ب. تبَيَّن لأعضاء مجلس مدينة أثينا أن رخاء السُكَّان يعتمد على وجود الطلاب بالمدينة، فكلما زاد عدد الوافدين عليها زاد رخاؤها ومواردها المالية، بما ينفقونه من أموال في العملية التعليمية من دفع أموال للأساتذة، وتأجير السَكَن المناسب الذي يقومون فيه خلال وجودهم بالمدينة، وشراء الكتب ومواد الكتابة، وما يُنفِقونه في أسواق المدينة من شراء طعامهم وشرابهم وملابسهم وباقي احتياجاتهم، والأموال الكثيرة التي كانوا يُنفِقونها في ملاعبها وسباقاتها ومسارحها وحاناتها، ولهذا تعهَّد مجلس المدينة بدفع راتب أستاذين للفلسفة ونحوَ واحد على الأقل، في حين كانت تتعهَّد الحكومة بدفع راتب أستاذ آخَر للفلسفة، وقد عمل هذا كله على

---

[1] *Greg. Naz. Oration 43 The Panegyric on St. Basil,14.*

[2] *Greg. Naz. Oration 43 The Panegyric on St. Basil,15.*

تنشيط العملية التعليمية بها، وزيادة أعداد الطلاب الوافدين إليها من جميع أنحاء الإمبراطورية البيزنطية[١].

ج. كان متى حلَّ وقت الشتاء يحرص الطلبة على مراقبة موانئ المدينة ومداخلها الرئيسية لانتظار الطلبة الجُدُد. فإذا شاهدوا طالبًا قادمًا يضعونه في مسكن أحدهم، غالبًا ما يكون من نفس بلده أو صديقًا قديمًا له، ولا يتركونه حتى يُقْسِمَ لهم أن يُسَجِّلَ نفسه معهم في نفس الجماعة.

د. بعد تسجيل اسمه يأخذونه إلى السوق، ويصطفون حوله في صفين ويزفّونه، ثم يأخذونه إلى الحمامات العامة، وعندما يقتربون منها، يصيحون بأصوات عالية ويقفزون فزعًا، ويأمرون القادمين بالوقوف في أماكنهم، ويتخفّى بعضهم، ويطرقون أبواب الحمام بشدة تتسبَّب في فزع الطالب الجديد، وبعد أن يتملكه الهلع والفزع يسمحون له بدخول الحمام، وعند خروجه يستقبلونه كصديقٍ لهم مساوٍ لهم. وكان هدف الطلاب القُدامى من هذه العملية خفض تشامخ الطالب الجديد ومعرفة شيء عن شخصيته ومحاولة السيطرة عليه من البداية، كما أنهم كانوا يجدون لذة في هذه الأعمال الهزلية[٢].

هـ. لم يكن الطالب الجديد باسيليوس غير معروف هناك، فقد التقى به كثيرون ممن كانوا يعرفونه من قبل، منهم بعض الطلبة الأرمن الذين درسوا على يديّ والده. وقد عرفوا عنه نبوغه وجديته وتقواه، مع شهرة عائلته حتى بين الأساتذة، لذلك لم يتعرَّض لما يتعرَّض له الطلاب الجدد حين وصولهم إلى أثينا من إرغامهم على التسجيل لدى مُعَلِّم ما من مواطنيهم، وتخلَّص من التقليد السابق ذكره.

ربما ساعده أيضًا في التخلُّص من هذا التقليد ضعف حالته الصحية، إذ كانت علامات المرض ظاهرة عليه، فكان جسمه نحيفًا ووجهه مصفرًا، وبطيئًا في حركته.

٣. مقاومة بعض الطلبة له

سرعان ما تلألأ نجم القديس باسيليوس في أثينا، الأمر الذي أثار بعض الطلبة، خاصة الأرمن، فدخلوا معه في تحدياتٍ ومناضلات، وإذ أدرك القديس غريغوريوس ما في فكر صديقه باسيليوس، التصق به جدًا، وانحاز إلى صفه. تضايقوا منه، إذ حسبوا أنه من العار عليهم أن يُكرم طالب جديد وغريب أكثر منهم، فجاءوا يظهرون الود والمحبة له وهم يضمرون له مكرًا

---

[١] شكري يوسف شكري: سيرة القديس باسيليوس الكبير، ٢٠١١، ص ٦٢.

[2] *Greg. Naz. Oration 43 The Panegyric on St. Basil,16.*

وخُبثًا وحسدًا، وأخذوا يدخلون معه في دائرة من الجدال العنيف حول قضايا ليس لها مقاييس علمية ولا حلول منطقية، ويطالبونه بإيجاد حلول لها محاولة منهم أن يثنوا عزمه ويتغلَّبوا عليه من بداية وجوده في أثينا، ويحكموا سيطرتهم عليه، ولما كان غريغوريوس سابقًا له بأثينا ويعرف مخططات طلابها، ولأنه كان يعرفه منذ الصغر، فإنه أدرك المؤامرة التي نصبها هؤلاء الطلاب لصديقه، وأسرع ووقف بجانبه ونشط معه في محاورة هؤلاء الطلاب المُفسِدين، وتقوى موقف باسيليوس بانضمام غريغوريوس له، وأخذ يجادل خصومه ويهزمهم، حتى أخذوا ينصرفون واحدًا تلو الآخر ويهربون من أمامه، ولم يستطع أحد منهم الثبات، وتغلب باسيليوس عليهم جميعًا[1].

٤. صداقة هادفة

لم يكن يخفي باسيليوس عقيدته المسيحيَّة، بل كثيرًا ما حاول أن يهدي زملاءه إليها، غير أن أكثرهم كانوا يُفضّلون ما تضمنه لهم أسرهم من حياة التمتُّع بالملذات والترف على سماع مواعظه. كان باسيليوس قد التقى في أثينا بصديقٍ عظيمٍ وهو غريغوريوس النزينزي الذي أصبح هو نفسه من أشهر قدّيسي الكنيسة. ارتبط الاثنان بصداقة خالدة صارت مضرب الأمثال.

كان الاثنان جادين في دراستهما ناجحين في حياتهما، لم يدخل بينهما حسد أو نوع من المنافسة. ولم يكن الاثنان بعد قد نالا سرّ المعمودية. لكن كان هدفهما واضحًا وصريحًا، أن يُعلِنا إيمانهما بالمسيح، ويعيشا كمسيحيين. لقد تجنَّبا الحياة التي كان يعيشها طالبو الفلسفة في أثينا من احتفالات واستعراضات وولائم وثنية. كل ما يعرفانه طريقين واحد وهو الذهاب إلى الكنيسة وآخَر وهو الذهاب إلى دور العلم[2].

٥. صداقة وتفاعل منهجي

سرعان ما صار الصديقان أشبه بمركزٍ، يجتمع حولهما مجموعة من الطلبة للتمتُّع بالتعليم المسيحي. وكان باسيليوس يرشدهم ويقودهم في كل جوانب العلم، وصارت حياته نموذجًا حيًا للحياة الجادة المُلتهِبة بالغيرة في المعرفة والفضيلة.

كشفت حياتهما بحقٍّ عن أن الصداقة هي كنز نفيس، وحرز وسند للإنسان، وهي خير ما يفتش عنه الإنسان على هذه الأرض. وكما يقول الكتاب المُقدَّس: "الصديق الأمين

---

[1] *Greg. Naz. Oration 43 The Panegyric on St. Basil,17.*

شكري يوسف شكري: سيرة القديس باسيليوس الكبير، ٢٠١١، ص ٦٥.

[2] *Greg. Naz. On Basil,21.*

ملجأ حصين، ومن وجده وجد كنزًا. الصديق الأمين لا يعادله شيء، وليس من ميزان يقدر أن يَزن سموه. الصديق الأمين جوهر (دواء) الحياة، والذين يخافون الرب يجدونه" (سيراخ ٦: ١٤-١٦).

نقل لنا **القدِّيس غريغوريوس** صورة حيَّة عن هذه الصداقة، فقال: [لما حصل التعارُف بيننا، واتَّضحت رغبتنا المشتركة في درس الفلسفة الحقيقيَّة، وأصبح كلّ منَّا للآخَر كل شيءٍ، كان لنا سقف بيت واحد، وطاولة واحدة ندرس عليها، وعواطف مُشتركة. كانت أعيننا تُحلِّق نحو هدفٍ واحدٍ، ولم تكن عاطفتنا إلاَّ لتزيد وتُرسَّخ يومًا بعد يوم. إن العواطف الجسديَّة تزول، ولكن المحبَّة التي تمُتُّ إلى الله بصلةٍ فهيَ ثابتة لأن موضوعها ثابت، وبقدر ما يتَّضح جمالها ويُكتشف، تربط من جمعتهم برباط المحبَّة نفسها[1]. كما كتب عنها: [إني أستنشقك أكثر ممَّا أستنشق الهواء، وأنا سواء كنت حاضرًا أم غائبًا، لا أعيش إلاَّ الوقت الذي أنت فيه معي].

عملت كل الظروف على توطيد أواصر الحب بينهما، ذاك الحب الذي ربطهما حتى الموت، فقد جمعتهما أهداف روحيَّة مسيحيَّة مقدَّسة، حتى قيل عنهما أنهما كانا روحًا واحدة في جسدين، وغدت صداقتهما فصلاً رائعًا في تاريخ الآباء. وهكذا لم يكن للشعر والفصاحة - والحالة هذه - قدرة على إضعاف ميولهما الروحيَّة وحياتهما التقويَّة. لقد عاشا سويًا، وساعد كلٌّ منهما صديقه للاستفادة من كل فرص التَعَلُّم التي أتاحها لهما ذلك المكان. امتنع الشابان كلِّية عن اللذَّات التي تتفشَّى عادة بين الشباب. وفي ذلك يقول **غريغوريوس**: [عرفنا شارعين في المدينة: الأول وهو الأحسن، كان يؤدِّي إلى المدارس العامة ومُعَلِّمي العلوم. أما الشوارع التي تؤدي إلى المسارح والملاعب والأماكن غير المقدَّسة فقد تركناها لغيرنا... كانت القداسة هي شغلنا الشاغل، وكان هدفنا أن نُدعَى مسيحيِّين وأن نكون بالحقيقة هكذا، وفي هذا وضعنا كل مجدنا[2]].

تقترب هذه الصداقة إلى حدٍّ كبير من الصداقة التي كانت بين القديسين يوحنا الذهبي الفم وباسيليوس[3]. والتي يظهر أثرها في رسالة **القديسة أنثوسا** والدة القديس يوحنا الذهبي الفم إلى ابنها عن "**الصداقة المثالية**" جاء فيها:

["الصديق الأمين دواء الحياة" (ابن سيراخ ٦:١٦). "الصديق الأمين ملجأ حصين" (ابن سيراخ ٦:١٤).

---

[1] الأب إلياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٧.

[2] *St. Gregory Nazianzen, Oration 43.*

[3] غير باسيليوس الكبير، صار أسقفًا على رفانيه *Raphanée* بجوار أنطاكية سوريا.

ما هو الأمر الذي لا يفعله الصديق الأصيل؟ أيّة سعادة لا يخلقها لنا؟ أيّة منفعة وأي أمان؟ قد تُسمِّي ألف كنز، ولكن أيًّا منها لا يُقارَن بصديقٍ حقيقيٍّ؟!

لنذكر أولاً كم من السعادة تجلب الصداقة. الصديق وضَّاء بالفرح، وهو يفيض عندما يرى صديقه. لأنه مُتَّحِد به بوحدة هي للنفس سعادة لا تُوصَف. إنّ مجرد تفكيره به يجعله مرتفعًا ومحمولاً بفكره. أتحدث عن الأصدقاء الأصيلين المتفقين، الذين قد يختارون الموت من أجل أصدقائهم، من أجل الذين يُحِبُّونهم بحرارة. لا تتخيَّل أنك قادر على ردِّ ما أقول عن طريق وصف أولئك الذين يُحِبُّون بخفةٍ ويجالسونك المائدة (سيراخ ٦:١٠) وليس لك بهم إلا معرفة ضئيلة. مَن عنده صديق كالذي أَصِف يفهم كلامي. إنّه يُصَلِّي من أجل صديقه كما لنفسه. أعرف رجلاً، إذا طلب الصلاة من أشخاص قديسين، يطلبها لصديقه أولاً ثم لنفسه.

الصديق الحقيقيّ هو ذاك الذي تصبح الأوقات والأماكن محبوبة بسببه. إذ كما أن الأشياء المُشِعَّة ترمي بلمعانها على الأماكن المجاورة، كذلك الأصدقاء يضفون نعمتهم على الأماكن التي يكونون فيها. ونحن في أكثر الأوقات، عندما نقف في هذه الأماكن بدون أصدقائنا، ننوح ونتنهد لتذكرنا الأيام التي كنّا فيها معًا.

ليس ممكنًا التعبير من خلال الكلمات عن السعادة التي يُسَبِّبها وجود الأصدقاء، إنما الذين اختبروها يعرفونها.

يستطيع المرء أن يطلب خدمة من صديقٍ، ويحصل عليها بدون أي ريب. عندما يطلب الأصدقاء منا أي شيء نكون ممتنين لهم، ونحزن عندما يبطئون بالطلب. نحن لا نملك شيئًا ليس لهم. وغالبًا، مع أننا نمقت كل الأشياء الأرضية، إلا إننا بسببهم لا نرغب في الرحيل عن هذه الحياة، وهم مرغوبون عندنا أكثر من النور. نعم، في الواقع، الصديق مرغوب أكثر من الضوء نفسه. أتحدث عن الصديق الأصيل.

لا تعترض، قد نُفَضِّل أن تُطفأ الشمس من أن نُحرَم من الأصدقاء.

قد نُفَضِّل أن نعيش في الظلام من أن نعيش بدون أصدقاء.

وكيف أقول هذا؟ لأن كثيرين من الذين يرون الشمس هم في الظلام. أما الأغنياء بالأصدقاء، فلا يكونون في محنةٍ أبدًا. أتحدَّث عن الأصدقاء الروحيين الذين لا يضعون شيئًا فوق الصداقة].

أمضى باسيليوس قرابة خمسة أعوام في المدينة العتيقة أثينا، ولدينا محصول وفير من المعلومات عن حياته هناك ممَّا كتبه صديقه غريغوريوس النزينزي الذي كان سبقه إليها. يقول غريغوريوس إن شهرة باسيليوس كانت قد سبقته إلى أثينا، فانتظره كثير من الشبَّان، وتنافسوا على صداقته.

والحق أن الإقامة في أثينا وقتذاك والانشغال بالدراسات الكلاسيكيَّة (القديمة) بالنسبة إلى الشاب غير المؤسَّس يشعل حماسه للوثنيَّة، وإن كانت قد فقدت حيويتها. ولدينا مثَل واضح على ذلك، فقد لازمه في الدراسة في أثينا الأمير يوليانوس ابن عم قسطنطيوس الإمبراطور الحاكم آنذاك. وكان الأمير الشاب تربطه بباسيليوس صداقة قديمة جدًا، وقد اعتاد أن يدرس معه الكتاب المقدَّس، ويُعدِّد المقارنات بين تعاليم الكتاب السامية ودروس أساتذته الوثنيِّين، ومع كل هذا فإن يوليانوس تأثر تأثرًا عميقًا بالفلسفات الوثنيَّة، حتى أنه حينما صار إمبراطورًا فيما بعد ارتدَّ عن المسيحيَّة، وصار يُعرَف في التاريخ بِاسم يوليانوس الجاحد أو المرتدّ.

كان ما يشغل باسيليوس وغريغوريوس نصيحة قُدِّمت إليهما بالسعي حثيثًا نحو الهدف المقدَّس - الحياة الأبديَّة - التي كل المسرَّات وأمجاد العالم تعتبر بالقياس إليها كظلالٍ وأحلامٍ. فكانا حذرين في الاستفادة من مواد دراستها، ليأخذا منها فقط ما يعنيهما في خدمتهما المقدَّسة فيما بعد. فكانا - والحالة هذه - كالإنسان الذي يحترس من الأشواك وهو يقطف الورود، وكالنحلة التي لا يلهيها لون الزهرة وأريجها عن امتصاص رحيقها.

أكمل باسيليوس نهله للعلم في أثينا، ودرس فيها على أيدي أساتذة مشهورين، وتعمَّق في دراسة اللغة اليونانيَّة وقواعدها وتاريخها وآدابها، كما تبحَّر في الفلسفة والبلاغة وعلم الفلك والعلوم الطبيعيَّة والطب[1]. يقول القديس غريغوريوس النزينزي أن باسيليوس كان طالبًا متميِّزًا جدًا في المدينة، فاق حتى أساتذته[2].

تلألأت عبقريَّة باسيليوس الدراسيَّة في أثينا. ويخبرنا صديقه القدِّيس غريغوريوس النزينزي بأن اجتهاد صديقه وتركيزه ومثابرته كانت عظيمة. وكان بارعًا في كل فرع من فروع العلم كما لو كان متخصِّصًا فيه وحده. كانت أحب المواد إليه الفصاحة والبيان والفلسفة والفلك والهندسة والطب. لكن كان سُمُوُّه العقلي يتضاءل إذا قورن بنقاوة حياته وطهارة سيرته.

أما أشهر أساتذته الذين تتلمذ لهم في أثينا فكانا برفيريوس *Prohaeresius* إمام الفصحاء والبلغاء المسيحي الأرمنِّي، وهيميريوس *Himerius* الوثني البيثيني.

كان باسيليوس وغريغوريوس يفكران في غاية دراستهما، أنها ليست عملاً أكاديميًا بحتًا بقدر ما هو منهج حياة يعيشانه. ففي نظرهما **الفيلسوف إنسان يحب الحكمة ويمارسها. وكمسيحيين أدركا أن الحكمة الحقيقية توجد في المسيح وحده، فأرادا تكريس حياتهما لهذا الهدف.**

---

[1] الأب الياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٦.

[2] *Oratio 43:11.*

في أثينا تَعَهَّدا أن يشتركا معًا في الحياة الفلسفية أو الحكيمة[١].

كان هدفهما واضحًا تمامًا، أمّا طريق تحقيقه فلم يكن بعد واضحًا.

جاءت إحدى رسائله إلى صديقه غريغوريوس تكشف عن شوقه المُستمر نحو تبادل الرسائل بينهما.

❖ استلمت رسالتك منذ وقت قريب... الكلمات قليلة، لكنها مشحونة بالأفكار. عندما جاء حامل الرسالة كنت غائبًا، فسلَّمها لصديقٍ لي وذهب في طريقه. هذا هو السبب أنني تأخرتُ في الرد على الرسالة. الآن وجدت الفرصة كي أبعث تحياتي إليك خلال بطرس. وقد فعلت هذا كي أرد لك تحيات الصداقة التي أنا مَدِين بها لك، وفي نفس الوقت **أعطيك فرصة أن تكتب لي رسالة ثانية.** على كل الأحوال كتابة مثل هذا النوع من الرسائل المقتضبة التي تبعثها لي لا تحتاج إلى مجهود كبير[٢].

القديس باسيليوس الكبير

العودة إلى الوطن

أدرك باسيليوس أنه قد اقتنى كل ما يمكن لأثينا أن تُقَدِّمَه، فقرر أن يعود إلى قيصرية، أما غريغوريوس فقرر البقاء فيها.

حان الوقت وحلَّ يوم الرحيل وعودته إلى وطنه سنة ٣٥٦م، لتنفيذ ما عقد عليه العزم من بدء لحياته العمليَّة في ممارسة الخطابة، مع شوقٍ نحو ممارسة الحياة النُسكيَّة. حاول أصدقاؤه أن يحجزوه بالعناق والعبرات، لكن باسيليوس تعلَّق بغرضه، وتغلَّب على جهود رفاقه لتعويقه في أثينا، وقد تأثَّر غريغوريوس كثيرًا في نفسه من معاملة زملائه وأساتذته الذين ازدحموا حوله.

شرح باسيليوس لأصدقائه أسباب رحيله، وتَرَكَهم حزانى، ومضى. ولكن غريغوريوس أذعن لهذه المحبَّة الفيَّاضة غير أنه لم يبقَ طويلاً.

عندما عاد باسيليوس بمفرده إلى وطنه، وكان خطيبًا موهوبًا بارعًا. في ذلك الوقت كان والده قد مات وأيضًا جدته التقية القديسة ماكرينا. وجد أُمُّه إميليا مستقرَّة في أنيسي، المكان الذي تدرَّب فيه وهو بعد صغير، تتحمَّل أعباء تربية أولادها ومسئوليَّة أملاك واسعة منتشرة في

---

[1] *Greg. Naz: Letter 1.*

[2] *Letter 19 to Gregory, a Companion*

مقاطعات كثيرة. كانت أمّه قد كَرَّسَت حياتها للتقوى والعبادة، تسندها في ذلك ابنتها الكبرى ماكرينا، سواء بالنسبة لتربية إخوتها أو التكريس للرب.

رحّبت قيْصريَّة كبادوكيَّة بباسيليوس كأحد أبنائها الممتازين، بعد أن قضى خمس سنوات في الدرس، مزوّدًا بالكثير من الشهادات العلميَّة، ونال درجة علمية من أعظم جامعة في ذلك الحين. وكانت شهرته في أثينا قد سبقته إلى كبادوكيَّة. حاز على احترام مواطنيه، لِما اشتهر به من الذكاء والنجاح الجامعي. أسرع الأساتذة إلى ضمّه إلى صفوفهم، إذ عرضوا عليه أن يشغل كرسي علم البلاغة والخطابة في جامعة قيصرية[1]. قَبِلَ العرض، وقام بتدريس عدة مواد لمدة عامين تقريبًا بنجاحٍ عظيمٍ، ووجد سعادته في استخدام موهبته. كان تدريس علم البلاغة مع ممارسة الخطابة شرفًا عظيمًا في ذلك العصر. وكانت المدن الآسيويَّة في القرن الرابع تحتفظ بأفخر فلاسفتها الناجحين الذين كان من بينهم باسيليوس بلا شكّ. وفي خلال السنتين أحرز باسيليوس شهرة عالية حتى أن قيْصريَّة الجديدة أرسلت وفدًا يلتمسون منه الاشتغال بالتدريس في مدينتهم، ولكن عبثًا حاولوا استمالته بالوعود السخيَّة، فصار أشهر شخصٍ في كبدوكية[2].

ربما كان أخوه غريغوريوس الذي بلغ حوالي الثامنة عشرة من عمره أحد تلاميذه.

قام أحد الشبان بطلب يد ماكرينا، وقبل الاحتفال بسرِّ الزواج انتقل، فقررت ماكرينا أن تُكَرِّسَ حياتها لله كعذراءٍ، وأن تعيش هى ووالدتها في حياة نسكٍ وعبادة وخدمة.

تدخُّل أخته ماكرينا

وسط هذه الظروف الأُسرية استطاعت أخته ماكرينا أن تسحب قلب باسيليوس من الانشغال في مراكزٍ عالمية، خاصة وأن بعض كبار رجال قيصرية الجديدة سألوه أن يذهب ليدِّرس هناك[3]. إذ يبدو أن حماسه للحياة النُسكيَّة - التي كان قد عقد العزم عليها مع صديقه غريغوريوس في أثينا - إلى فترة وجيزة، وسط جو الإعجاب والمديح الذي أثارته ثقافته وفصاحته. ويبدو أيضًا أن باسيليوس، في تلك الفترة داخله نوع من العُجب والكبرياء، لافتخاره بعلمه. أخذ وهو في هذه الحالة يحتقر الناس حتى ذوي السلطان معتبرًا نفسه بكبرياء أنه أعلى مستوى من المسئولين. تطلّع إلى المراكز العالميَّة العالية التي يشغلها أمثاله. كما يخبرنا بذلك أخوه القدِّيس غريغوريوس أسقف نيصص، بل عُرِضَت عليه وظيفة علمانيَّة ذات مركز عظيم.

---

[1] *Robert Payne: The Holy Fire, St Vladimir's Seminary Press, N.Y., 1980, p 114.*

[2] *Adrian Fortescue: The Greek Fathers, San Francisco, 2007, p. 51.*

[3] *Letter 210.*

كان يمكن أن يُكمل باسيليوس لولا تدخُّل أخته ماكرينا ومعاناته من صدمة لموت أخيه الأصغر منه المفاجئ نوقراطيس. فقد اتهمته أخته بالتشامخ المُبالَغ فيه والكبرياء بسبب قدرته في الخطابة. اشتكت أنه قد انحدر متطلعًا إلى كرامات زمنية، وظن في نفسه أفضل من كل مَنْ في قيصرية. كثيرًا ما كان يحاورها مستخدمًا بعض الجدال الكلاسيكي معها، مُظهرًا أنه لا يرغب في الالتزام بتقاليد الأسرة المسيحية[1].

في تلك الفترة العصيبة من حياة باسيليوس، تدخَّلت أخته التقيَّة ماكرينا، التي ظلَّت محافظة على إيمان أجدادها بقوةٍ، فقد أزعجها أن ترى أخاها باسيليوس غائصًا في درس العلوم الطبيعية والبشريَّة، يكاد تيَّار العالم أن يطويه في لُججه. فحثَّته على طلب العلوم التقويَّة التي تغرس البرَّ في القلوب، وشرعت تذكر له بطلان أمجاد العالم. وبواسطة تأثيرها تيقَّظت فيه مثاليَّته ثانية.

أخيرًا نجحت ماكرينا في إقناعه ليصير مثل موسى جديد يفضّل العبرانيِّين على خزائن مصر (عب ١١: ٢٦)، كما يُخبرنا بذلك أيضًا القدِّيس غريغوريوس أسقف نيصص.

لم تكن لترضى أن يجمع أخوها باسيليوس بين الكبرياء والصلف وبين المسيحيَّة، خصوصًا وقد عرفت أن أخاها نال من الله مواهب جمَّة يجب أن يستثمرها لمنفعة إخوته لا ليستقل بها لإشباع أنانيَّته. ولم تكن ماكرينا بامرأة تتراجع عن عزمها، فقالت لأخيها رأيها فيه، فوقع كلامها في نفسه موقع الإلهام. حينئذ انطلق يسلك بروح التواضع كأصل الرفعة والمجد.

انفتحت عيناه، وروى هو نفسه ما سماه اهتداءه [أضعتُ فترة طويلة في حماقات، وأمضيت كل شبابي تقريبًا في أعمالٍ باطلة، والسعي وراء تعاليم حكمة العالم التي يحسبها الله جهالة. استيقظتُ أخيرًا من رقاد عميق، ورأيتُ نورَ إنجيل الحق العجيب، وأدركت بطلان حكمة رؤساء هذا العالم الذين يبطلون (١ كو ٢:٦).

ذرفت سيلاً من الدموع على حياتي التعيسة، وصلَّيت لأجد مُرشِدًا يمكنه أن يبث فيَّ مبادئ التقوى الحقيقية... وأصبح جل اهتمامي أن أعمل على إصلاح أخلاقي بعد أن أفسدها طول اختلاطي برفقاء الشرّ، ثم قرأت الإنجيل، ورأيت أنه لا سبيل إلى بلوغ الكمال إلاَّ بأن يبيع المرء ماله ويُعطي للفقراء نصيبهم، ويتخلَّى عن مطامع الحياة جميعها، حتى لا يبقى للنفس ما يُعَكِّر صفوها من كل ما في الدنيا من أشياء[2]].

---

[1] *Robert Payne: The Holy Fire, St Vladimir's Seminary Press, N.Y., 1980, p. 114.*

[2] *Letters, 223:2; Mike Aquilina: The Way of the Fathers, Indiana 2000, article 38.*

اعتمد على يدي ديانيوس *Dianeios (Dianius)* أسقف قيصرية، حوالي سنة ٣٥٦م، في السابعة والعشرين من عمره، كما كانت العادة في ذلك الوقت، وقد هاجم هو وأخوه القديس غريغوريوس أسقف نيصص وصديقهما القديس غريغوريوس النزينزي هذه العادة الخطيرة بكل قوة[1].

نياحة أخيه نوقراطيس[2]

تأثر أخوه نوقراطيس الذي يصغره بسنة أو سنتين بحياة أُمّه وأُختِه.

بحسب ما رددته ماكرينا، كان أخوها نوقراطيس يفوق كل إخوته في جماله الجسدي، وقوته وقدراته. كان يمكنه أن يسبق الكل، لكنه كان متحفظًا، مع ما اتَّسم به من مَلَكَة الذكاء الحاد أكثر منهم.

مات والده وهو في الثانية عشرة من عمره، فاقتدى بأخيه في طلب الدراسة للبيان. وفي عام ٣٥٢م إذ كان في الثامنة عشر تقريبًا من عمره، اعتزل الدراسة، وانسحب إلى الحياة النسكية والوحدة في ممتلكات الأسرة بأنيسي *Aennesi*. كان يعيش وحده مع خادم يقوم على خدمته.

كَرَّس حياته لدراسة الكتاب المقدس والصلاة مع العمل لمساعدة بعض المُسِنِّين الفقراء. فكان يعولهم بالطعام خلال الصيد وصيد السمك والقيام بأعمالٍ خيرية، وكان مُصَمِّمًا على ترويض رغباته والحياة بتقوى.

في يومٍ ذهب ليصطاد سمكًا وانتقل في حادث وغرق[3]. أُصيب أخوه باسيليوس بصدمةٍ، فزهد كرسيه وجلس عند قدمي أختِه يَتَعَلَّم منها سرّ الزهد والحياة المسيحية الفاضلة التي كان يهرب منها.

سقطت إميليا في حزن شديد للغاية بسبب موت رجلها وابنها نوقراطيس الذي كان له مَعَزَّة خاصة لديها. صارت ماكرينا تعزيها، ودفعتها أن تعامل الجواري كأخوات، واقترحت عليها أن تغلقا البيت في قيصرية، وتذهبا معًا إلى أنيسي *Annesi*، وهناك اجتذبتا بعض النساء والفتيات لتكرسن حياتهن للعبادة وأعمال المحبة. وبهذا بدأت ماكرينا بتأسيس الرهبنة النسائية في هذه المنطقة[4]. عاشت إميليا وماكرينا والنساء على جانب النهر، وباسيليوس وبطرس والرجال على الجانب الآخر.

---

[1] *Basil: Hom.13; Greg. Nyssa: Adv. eos qui different baptismum; Greg. Naz.: Oratio 40:16-17*

[2] *Robert Payne: The Holy Fire, St Vladimir's Seminary Press, N.Y., 1980, p. 115.*

[3] *Greg. Naz: Vita Macrina, 8-9.*

[4] *Robert Payne: The Holy Fire, St Vladimir's Seminary Press, N.Y., 1980, p. 115.*

سيامته أناغنوسطيس (قارئًا)

بعد عماده بقليلٍ سيم أناغنوسطيس بيد الأنبا ديانيوس أسقف قيْصريَّة.

اتَّخذ القدِّيس غريغوريوس النزينزي من سيامة باسيليوس أناغنوسطيس سببًا في إظهار الأسى على السيامات التي كانت تتم بسرعة في زمانه، والتي عن طريقها نال كثيرون الكهنوت بدون التدرُّب اللازم حتى خشي أن تصبح أكثر الرتب قُدسيَّة هى أكثرها هزءًا. فقال:

[لا يُدعَى أحد طبيبًا أو رسَّامًا إلاَّ بعد أن يكون قد درس طبيعة الأمراض أو خلْط الألوان ورسم الأشكال، لكن الكهنة يُقَامون ارتجالاً. يُحمَل بهم ويولدون في آنٍ واحد، كالمارد في القصة الخرافيَّة!

إننا نصير قدِّيسين في يومٍ واحدٍ. فالذين ليس لديهم أي استعداد روحي، ولا يعرفون شيئًا عن الكهنوت سوى الرغبة في الحصول عليه، هؤلاء يطالبون الناس أن يكونوا قدِّيسين ومتعلِّمين!

ولكن باسيليوس لم يكن هكذا، فهو الذي كان يمارس أقل وظيفة في الكنيسة وهى قراءة الأسفار المقدَّسة للشعب لمدة طويلة، قبل أن يتقدَّم للقسِّيسيَّة والأسقفيَّة].

وهكذا استيقظ باسيليوس كما من حلمٍ، وتطلَّع إلى نور الإنجيل المجيد، فرأى تفاهة حكمة العالم التي توصِّل إلى لا شيء. وبعد أن ناح على حياته الشقيَّة، بحث عن شيءٍ يرشده ويقوده إلى طريق البرّ. كان توَّاقًا إلى إحداث تغيير في حياته العمليَّة، بعد أن طال انزعاجه، مشتاقًا أن يجد أخًا يعينه في اختيار هذا الطريق في الحياة حتى بالتعاون يمكنه أن يقضي غربة هذا العالم القصيرة معه.

شوقه للحياة النُسكيَّة

هناك دوافع كثيرةٍ ألهبت قلبه نحو الالتحاق بالحياة الرهبانية النسكية، نذكر منها الآتي:

١. الجو الكنسي في ذلك الحين في الشرق

قبل قبول الإمبراطور قسطنطين للإيمان المسيحي، كان الاستشهاد هو الشكل الرئيسي للشهادة للحياة الإنجيلية الكاملة. أمَّا وقد قَبِلَ الإمبراطور الإيمان، ففي مناطق كثيرة خفَّت حدة موجة الاضطهاد، وفي مناطق أخرى لم يواجه المؤمنون اضطهادًا بصورته العلنية. وكان من ثمرة هذا أن **عبَّر البعض عن شهادتهم للإيمان بالسيد المسيح المصلوب لخلاص العالم بالحياة الرهبانية بشكلٍ أو آخَر**. وكانت مصر المركز الرئيسي لظهور كبار قادة هذه الحركة بأشكالها المتباينة للتعبير عن الحب لله. فظهر القدِّيس أنبا أنطونيوس أب الأسرة الرهبانية، وكان

لكتاب القدّيس البابا أثناسيوس الرسولي عن حياته فاعليته في الشرق والغرب. كذلك ظهور القدّيس باخوميوس أب الشركة ونجاحه الفائق في إقامة أديرة كثيرة تمارس حياة الشركة، وظهور الأنبا بولا رئيس السوّاح، وقادة رهبنة الجماعات مثل القدّيس مقاريوس الكبير والقديس أمون... الخ. فتح الطريق بأشكاله المتباينة للتكريس بالشكل المناسب لشخصية الإنسان ومواهبه.

لم تقف هذه الحركات الرهبانية على مصر، إنما ظهرت في مناطق كثيرة. كان الكثيرون قد حوّلوا وجوههم إلى البراري، لا ليعتزلوا العالم، بل بالحري ليختبروا الحياة الملائكية المتهللة.

٢. صداقته مع القديس غريغوريوس النزينزي

رأينا أن صداقتهما بدأت منذ وقت مُبَكِّر، قامت بالأكثر على حوارهما معًا عن مفهوم الحكمة، فقد تفاعلا معًا في جدِّية نحو تكريس حياتهما لحساب مملكة السيد المسيح. فمع جدّيته في دراسته وتفوُّقه وظهور مواهبه الفائقة، أدرك أن سرَّ الحكمة في الالتصاق بالسيد المسيح.

٣. علاقته بيوستاثيوس أسقف سبسطية

الشخصية الرهبانية التي كان لها عظيم الأثر على شخصية القدّيس باسيليوس فهيَ **يوستاثيوس (إفستاثيوس) أسقف سبسطية** ببنتس *Eustathius of Sebaste* (حوالي ٣٠٠- حوالي ٣٧٧م).

كان القدّيس باسيليوس يتطلع إلى هذا الأسقف الذي كان له عظيم الأثر على الحركة الرهبانية في المنطقة كما في مناطق أخرى بأسيا الصغرى، كمُعَلِّمٍ له ومُرْشِدٍ في الالتحاق بالحياة الرهبانية. هذا تكشفه بكل وضوح رسالته إليه، والتي تُعْتَبَر باكورة كتاباته التي وصلت إلينا.

في رسالته إليه[1] يُوَجِّه حديثه إليه كتلميذٍ نحو مُعَلِّمه الفيلسوف. كتبها إليه عندما حاول اللقاء معه ولم يستطع. كتبها بأسلوب رمزي عاطفي، فقد بذل كل الجهد ليلتقي به. وبعد وصوله إلى قيصرية منعه مرضه من اللقاء مع الفيلسوف، وعندما بدأت صحته تسمح له باللقاء كان يوستاثيوس قد انطلق في رحلة لزيارة المؤسسات الرهبانية في المصيصة (ما بين النهرين) وسوريا ومصر.

في هذه الرسالة يُسَجِّل لنا الآتي:

أ. في بداية الرسالة يتصوَّر أن ما يُدعَى بالحظ أو المصير أو القضاء والقدر *Fate* يصوِّب إليه الإهانات التي تبدو على الدوام عائقًا للقائه معه.

---

[1] *Letter 1 to Eustathius the Philosopher (N & PN Fathers, series 2, volume 8); James Hanrahan: The Life of Saint Basil, the Great.*

قال إنه انجذب إلى فلسفته، فهجر أثينا بكل مفاتنها. لم يعقه شيء من ملحمة الأوديسة التي لهيروميروس وأغاني *Sierns* عن العبور إلى القسطنطينية، وأخذ نظرة سريعة على عجائب أسيا وهو مُسرِع إلى وطنه بموقعه الجميل. وإذ بلغ إلى قيصرية وطنه حلَّت به متاعب غير مُتوقَّعة.

فمن جانب حين كان الفيلسوف هناك كان القدّيس باسيليوس مريضًا، الأمر الذي عاقه عن اللقاء معه. وحين تعافى للقاء معه، قام الفيلسوف برحلةٍ مُشابهةٍ في صيف ٣٥٦م.

كان لزامًا أن يذهب إلى مصر في طريقٍ شاقٍّ مملوءٍ بالمتاعب وطويل. فكان أمامه أحد أمرين، إما أن يذهب إلى فارس حيث تسحبه محبته للفيلسوف ويرافقه إلى بلاد بربرية بعيدة، في الهند، أو يستقر في الإسكندرية، وقد فَضَّل الطريق الثاني، وإن كان يُحرمه من اللقاء معه.

ب. ختم رسالته بقوله: [ألا تقول هذا هو عمل "القضاء والقدر" أو هي ضرورة مُلزمة؟ فإنه حتى الأساطير، إذ جاء في قصائد تانتالوس *Tantalus* أنه كان يصعب الخروج من هذه السلسلة من الأحداث.

لكنني الآن - كما قلت - أشعر أني في حال أحسن بفضل رسالتك، فإنني لا أعود أُفَكِّر بهذه الطريقة. الآن يبدو لي أنه يلزمني أن أُقَدِّمَ تشكرات لله على عطاياه، ولا أشتكي إن عادت ثانية. فإن كان يسمح لي أن أرتبط بك، أرى أن يعمل ما يحسن لديه وما يسره. وإن سمح بتأجيل اللقاء معك، أقبل هذه الخسارة بدون أن أشتكي. فإنني متأكد أنه في كل الأحوال يُدَبِّر حياتنا أفضل مما نريده نحن لأنفسنا لو ترك الأمر لنا].

هكذا أول عمل أدبي قَدَّمه لنا، وهو في شوق أن ينتفع بخبرات وإرشاد هذا الفيلسوف. تحدث في بدء الرسالة عن ما يعتقده بعض الفلاسفة عن "القضاء والقدر"، وقد جاء في بعض النسخ "**السيدة القضاء القدر**"، حيث يحسب الفلاسفة القضاء والقدر أشبه بسيدة تُحَرِّك حياة البشرية كعبيدٍ لها، لا حول لهم ولا قوة.

لست أظن أن باسيليوس وهو في طريقة للالتحاق بالحياة الرهبانية كان يعتقد بالقضاء والقدر، إنما يُعَبِّر عن الفكر الفلسفي السائد.

لقد ختم الرسالة بالعبارة الجميلة حيث يعلن إيمانه أن حياته في يد الله، وهو الذي يُدَبِّر كل أموره، مُقَدِّمًا الشكر له على ما يختاره له، فهو يعرف ما لبنيانه وصالحه أكثر مما يعرفه هو لنفسه.

جاء في إحدى رسائله: [أما بالنسبة لهؤلاء الذين يؤيدون أن الشئون البشرية يحكمها القضاء والقدر، لا تطلب مني معلومات عنهم، بل يطعنون أنفسهم بسهامهم البليغة المنمّقة[1]].

رجوع باسيليوس للمجموعات الرهبانية لإفستاثيوس سيفاستياس Ευσταθίος Σεβαστείας أعطى له دافع لكي ينشغل بجدية بمشاكلهم الروحية. وكانت هذه المشاكل كثيرة، لأن إفستاثيوس، بالرغم من أنه كانت لديه قدرة عجيبة على إثارة محبة الكثيرين للحياة الرهبانية، إلا أنه لم يكن لديه موهبة القيادة الصحيحة والكافية في هذه الحياة. وعلى الأكثر، لأن إفستاثيوس لم يكن يحمل التقليد الأصيل والإيمان المستقيم (لأن في شبابه كان تابعًا لأريوس) وله مواقف غير ثابتة. هكذا مجموعاته الرهبانية الكثيرة التي كانت في أرمينيا الصغرى وبنتس وكبادوكية وأماكن أخرى ظهر عليها ضعف روحي، وانحرافات كثيرة سواء بإرادتهم أو من غير إرادتهم. وهذه المشاكل مع ارتباطها بموجة حماس الرهبان الميساليين الفوضويين الذي أتوا من ما بين النهرين، أظهرت أن الرهبنة، بالرغم من الازدياد الكبير لعدد الرهبان، إلا أنها كانت بلا روحانية ولأجل هذا هى خطرة على الرهبان أنفسهم وعلى كل الكنيسة[٢].

٤. مسلك أمُّه وأخته ماكرينا

يبدو أنه من الأمور التي حرّكت فيه أعماق نفسه، ودفعته دفعًا لتنفيذها، **مسلك أمُّه وأخته ماكرينا**. فبعد أن استراحتا من أعبائهما العائليّة بعد أن كبر أصغر الأولاد، حوَّلتا منزل الأسرة في أنيسي على نهر الإيريس ليكون منْسَكًا في وسط تلك الربوع الهادئة، وأقامتا هناك في حياة نسكيَّة، فكانت أصوات التسبيح والترتيل لا تنقطع عندهما ليلاً ونهارًا. وسرعان ما جذب هذا المنْسَك إليه - على الرغم من خشونة الحياة فيه - عذارى من كبرى العائلات في كبادوكيَّة.

هكذا أفاق باسيليوس على صوت أخته ماكرينا، وكرَّس حياته لِمَنْ أحبَّه. بل أكثر من هذا اختار لنفسه طريق الوِحدة، طريق الكمال المسيحي، الأمر الذي كان قد اتَّفق عليه مع صديقه غريغوريوس.

لم يكن مَسْلَك باسيليوس إلاَّ تشبُّها بمسلك أسرته، فإنَّ شقيقته ماكرينا وأخوه بطرس ووالدته إميليا، تخلُّوا هم أيضًا عن ثروتهم، وانسحبوا إلى منزل صغير يُقِيمون فيه حيث عاشوا من ثمر عملهم.

---

[1] *Letter 236 to Amphilochius,5.*

[٢] د. چورج عوض إبراهيم: القديس باسيليوس الكبير، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة.

يقول *J. Hanraham*: [ربما قرر باسيليوس قبل عام ٣٥٧م أن يلتحق بوالدته وأخته وأهل بيتهما في مكان خلوتهم بأنيسي *Annesi*. فقد أراد تَجَنُّب ضغوط الحياة العامة التي لم يكن ممكنًا تحاشيها إن سكن في المدينة. لقد أراد أن يتابع دراسة الفلسفة في الخلوة التي رآها لازمة لتحقيقها. أراد في الواقع أن يمكث هناك حتى سبتمبر ٣٥٩م[1]].

رحلة لاكتشاف الحياة الرهبانيَّة

بعد عماده مباشرةً استعد للحياة كراهبٍ. مع ازدهار الرهبنة خاصة في مصر، لم يكن لها قوانين لتنظيم الرهبنة الديرية. لقد وجدت أعداد ضخمة في أكثر من دولة، يعيشون إما في الصحراء أو في أكواخٍ كنسَّاكٍ مصارعين متوحّدين.

كان كل منهم يتدرَّب على يديّ راهب سبقه في الطريق، ويقرأون سير بعض الآباء الرهبان مثل سيرة القديس أنبا أنطونيوس التي كتبها القديس أثناسيوس.

لهذا فإن القديس باسيليوس نفسه حين أراد أن يمارس الحياة الرهبانية قام بجولة في مصر وفلسطين وسوريا والمصيصة (ما بين النهرين)[2].

سرعان ما أدرك باسيليوس أن تخلِّيه عن الثروة والمجد ليس إلاَّ خطوة أولى في تلبية دعوة المسيح تمامًا. وبناء على ذلك، قرَّر أن يتعمَّق في معلوماته الدينيَّة، بدراسة سيرة الذين زهدوا في كل شيءٍ لممارسة المُثُل الإنجيليَّة.

نحو سنة ٣٥٧ أو ٣٥٨م، حينما كان باسيليوس دون الثلاثين من عمره، ترك قيْصريَّة ليبحث عن النُسَّاك المشهورين ليحتذي بهم. فزار منطقة الإسكندريَّة وصعيد مصر وفلسطين وسوريا وما بين النهرين. يرى البعض أن هذه الرحلة أشار بها عليه الأسقف إفستاثيوس بكونه رئيسه أو أباه الروحي[3]. وقد أثار إعجابه شدَّة زُهد وتقشُّف هؤلاء النُّسَّاك الذين قابلهم، خاصة في مصر وفلسطين.

أثار دهشته فيهم ضبط النفس واحتمال النُسك ومقدرتهم على الصوم والسهر واحتمال العري والبرد. وأيضًا الطريقة الخارقة للعادة التي يعاملون بها أجسادهم كأنها مأوى غريب يُقِيمون فيه لفترة ما، وقد سجَّل إعجابه هذا بعد ذلك في إحدى رسائله. وهكذا ظل يدرس لمدة سنتين تقريبًا التقاليد الرهبانيَّة المثاليَّة التي ترجع إلى القدِّيس أنطونيوس الكبير أب الرهبان. وكان ما رآه

---

[1] *Letter 120.*
[2] *Epistle 223.*
[3] الدكتور أسد رُستم: كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، الجزء الأول، لبنان ١٩٨٨، ص ٢٤٨.

في حياة الرهبان والمتوحِّدين خلال رحلاته يحثه على الإسراع في ممارسة الحياة النُّسكيَّة. حقًا كان يميل إلى الحياة المشتركة، لكنه يطلب في نفس الوقت سمو كل راهبٍ، مُقتديًا بالمتوحدين الذين رآهم في مصر، إذ كان يتطلع إليهم كمصدرٍ أصيلٍ للجماعات الرهبانية. يقول:

[تعجَّبتُ لزهدهم في الحياة، واحتمالهم التعب في جهادهم.

وكنت مُندهشًا من مثابرتهم في الصلاة، وقدرتهم على الغلبة على النوم.

لم يكونوا خاضعين لضرورة الطبيعة، محتفظين دومًا بهدفهم الروحي عاليًا، متحرِّرين من الجوع والعطش، ومن البرد والعري، ولم يستسلموا أبدًا للجسد، ولم يُعِيروه انتباهًا، وكأنهم كانوا يعيشون كما في أجسادٍ ليست لهم.

كانوا دائمًا يُظهرون في كل عملٍ، كيف يقيمون في هذه الحياة كبرهة. **وكانت مواطنة كل أحدٍ هي في السماء.**

هذا كله أثار إعجابي. طوَّبت حياة هؤلاء الرجال، لأنهم كانوا بالفعل يحملون في أجسادهم إماتة يسوع، واشتهيت إن أمكنني أن أتمثَّل بهم[1]].

يبدو أن رحلته كانت سريعة لم تزد عن ستة أشهر، عاد إلى قيْصريَّة في ربيع عام ٣٥٨م إلى كبدوكية ليؤسِّس جماعة رهبانية للرجال[2]. ويرى البعض أنها استغرقت سنتين.

إذ عاد من رحلته ليقود الحياة الرهبانية، وجد أخاه الصغير بطرس قد كبر، ولم تكن عليه أيّة التزامات في بيته بقيصرية الجديدة.

وجد أمه إميليا وأخته ماكرينا، وبطرس نفسه وكل خدامهم والعاملين لديهم وبعض أصدقائهم اتّفقوا على الخروج من العالم ليقضوا بقية حياتهم في خدمة الله[3]، ربما قبل نهاية ٣٥٧م[4].

انفراده بالقرب من قيْصريَّة الجديدة على نهر الإيريس

بدأ باسيليوس يسترجع الدروس التي تَعلَّمها في رحلته للبدء في تكوين جماعة رهبانية للرجال على نسق الجماعة التي أسّستها أخته ماكرينا للنساء.

استدعى صديقه الحميم القديم غريغوريوس النزينزي ليُفَكِّرا في أنسب الأمكنة ويشتركا معًا لتحقيق ذلك. فكَّر أولاً في تأسيس دير في إقليم تبرينا *Tiberina* بجوار إرينازوس *Arianzus*،

---

[1] *Letters, 223:2.*

[2] *Robert Payne: The Holy Fire, St Vladimir's Seminary Press, N.Y., 1980, p. 116.*

[3] *Adrian Fortescue: The Greek Fathers, San Francisco, 2007, p. 54.*

[4] *James Hanrahan: The Life of Saint Basil the Great, 1979, The Basilian Press, Toronto.*

موطن صديقه غريغوريوس لكي يرضيه[1]. لكنه عاد فاختار بقعة في بنتس تُسَمَّى إيبوار *Ibora* قرية صغيرة على نهر الإيريس *Iris*، بالقرب من قيْصريَّة الجديدة، وقريبًا من مكان خلوة والدته وأخته وسائر الرفقة معها وكانت على الجانب الآخر من نهر الإيريس.

امتاز الموضع بجمال طبيعي خلاب وهدوء شاعري. هناك انفرد متوحِّدا. وما لبث أن التفَّ حوله أصدقاء يشاركونه حياة النُسك.

حوت رسالته ٢٢٣ حديثه الشاعري عن جمال المنطقة التي انسحب إليها ليعيش في حياة السكون وسط جمال الطبيعة. وصفه المُبدِع لجمال الطبيعة يُثِير دهشتنا لولا إدراكنا أنه واضع كتاب السداسيَّات *Hexamaeron*، حيث جاء فيه: [وقال الله ليكن نور. هذه الكلمة كانت عملاً، منها صدرت الطبيعة، التي لا يمكن للفكر البشري أن يتخيَّل شيئًا أكثر منها بهجة ومتعة[2]].

لم يكن باسيليوس أول مؤسِّس رهباني يعشق الطبيعة، ويشهد لحُبِّه للموقع الذي اختاره لديره[3].

انسحب القدِّيس باسيليوس إلى تلك المنطقة لكي يُمارِس حياته الرهبانيّة ويتمتَّع بالهدوء. لقد سبقه كثيرون في بنتس *Pontus*، سعوا لتأسيس حياة رهبانيَّة جماعية، لكنهم لم يُحَقِّقوا هدفهم. التقى به بعض منهم وأحبُّوه والتصقوا به، فصار الموضع أشبه بدير. أمّا صديقه غريغوريوس فرفض في البداية أن يرافقه، لكنه عاد وصار في صُحْبَتِه.

دعا القديس باسيليوس القديس غريغوريوس النزينزي ليَلْحَقَ به في أنيسي *Annesi*، لكن غريغوريوس كان مترددًا. فقد شعر أن والديه محتاجان إليه في نزينزا، وكان مقتنعًا بأن الطريق الجديد الذي اختاره باسيليوس هو الطريق المناسب لباسيليوس وليس له.

كتب باسيليوس إلى صديقه غريغوريوس يقول:

[لقد أرشدني الله إلى منطقة تتَّفق تمامًا وطريقتي في الحياة. إنها حقًا ما كنا نتوق إليها في أحلام يقظتنا. إن ما كان الخيال يُظهِره لي بعيدًا، أصبحتُ أراه الآن أمامي.

جبل عال تكسوه غابة كثيفة، ترويها في الشمال جداول دائمة الجريان، وعند سفح الجبل يمتد سهل فسيح كثير الفاكهة...

---

[1] *Robert Payne: The Holy Fire, St. Vladimir's Seminary Press, N.Y., 1980, p.116.*

[2] *Hexamaeron, 2:7.*

[3] *E.F. Morison: St. Basil and Rule, Oxford University Press, 1912, p. 11.*

أمَّا الغابة المُحيطة حيث تتنوَّع فيها الأشجار وتزدحم، فهيَ تعزلني عن العالم، كما في قلعةٍ حصينةٍ.

والبريَّة مُحاطَة بواديين ضيِّقين عميقين. على أحد جانبيها ينحدر مجرى الماء بقوَّة من الجبل، مكونًا حاجزًا من الصعب عبوره. وعلى الجانب الآخَر حافة فسيحة تجعل الاقتراب منه أمرًا صعبًا.

ويقع كوخي على القمَّة، وبهذا أُشرف على السهل الفسيح كما على طريق الإيريس...

هل أُحدِّثك عن الطيور المُغرِّدة الجميلة والنباتات الغنيَّة بأزهارها؟

لكن ما يبهجني أكثر من كل ذلك، هو السكون الذي يُخيِّم على المكان، لا يقطعه إلاَّ بعض الصيَّادين الذين يأتون من وقت لآخَر لصيد الماعز البرِّي والأيائل التي تكثر في البريَّة. كيف استبدل هذا المكان بآخَر؟!]

تُشير هذه الصورة الخياليَّة إلى تلك الحياة النُسكيَّة التي كان لها جانبها المثالي والشاعري بالنسبة للعقول المثقَّفة. بل تكشف لنا عن إحساس باسيليوس المُرهَف وتذوُّقه للفن وجمال الطبيعة، متمشِّيًا في ذلك مع الفكر المسيحيّ الذي يرى في الطبيعة وما فيها من جمالٍ كتابًا مفتوحًا، نقرأ فيه عن قدرة الخالق وحكمته وإنعامه.

والحق أن القدِّيس باسيليوس كان يعشق الطبيعة، وله تأمُّلات كثيرة في السماء، والنجوم، والطيور وأجناسها، والأسماك، والحيوانات، والنباتات وغيرها. كان يصفها وصف عالمٍ عاكفٍ على دراستها.

وصف الموقع الذي اختاره، قائلاً: إنه يوجد جبل عالي يصعب البلوغ إليه، مُغطَّى بالغابات، منحدراته الخضراء تقود إلى نهر نقي، على شاطئيه زهور بريَّة تتجمع حول جذور الأشجار، والطيور تُغَرِّد طول اليوم على الأغصان، والنهر مملوء بالأسماك. كتب بعد ذلك: "ليس من موضع قدَّم لي سلامًا كهذا. ليس من صوتٍ يأتي من المدينة ويبلغ إلينا. إننا في موضع بعيد جدًا عن الطريق السريع، إنما نادرًا ما تجد بعض الصيَّادين يأتون ليقلقوا حياتنا"[1].

وكان يرى حكمة الله وراء جميعها، فيقول:

[إذا كنت في حدود الليل، تتأمَّل الجمال الأخَّاذ الذي للنجوم. فإنك ترى الفنَّان الذي صمَّمها وزيَّن السماء بهذه الورود.

وإذا كنت في الصباح المبكِّر، تتعلَّم عن عجائب النهار، وخلال الأشياء المنظورة، تصل إلى غير المنظور].

---

[1] *Epistle 14.*

في تلك البقعة الهادئة اعتقد القدِّيس أنه تحرَّر من كل اهتمامات الحياة العالميَّة ومعطِّلاتها وتَشَتُّت الفكر فيها، أنه يستطيع أن يخدم الله حسنًا. يقول:

[ما هو أكثر غبطة من مشابهة الملائكة على الأرض؟!

في بدء النهار ينهض الإنسان للصلاة وتسبيح الخالق بالترتيل والأغاني الروحيَّة.

ومع شروق الشمس يبدأ العمل مصحوبًا بالصلاة أينما ذهب، مُملِّحًا عمله بالتسبيح.

إن سكون الوحدة هو بدء تنقية النفس، وعدم اضطراب العقل لأي شيء، ولم يتشتَّت عن طريق الحواس في أمور العالم، يرتد إلى ذاته، ويرفع إلى التفكير في الله.

هناك في الوحدة يجد في الأسفار المُقدَّسة - كما في مخزن الأدويَة - العلاج الحقيقي لعلته].

نظرته للحياة الرهبانية

بدأ في خلوته في بنتس نظامًا نسكيًا قاسيًا، يبدو أنه تسبَّب في ضعف صحَّته ضعفًا شديدًا، الأمر الذي شكا منه مرارًا كثيرة في رسائله، ولكن من الإنصاف أيضًا للحقيقة أن نقول إنه ذُكِرَ عن ملازمة المرض له منذ طفولته.

وإنني أرجو الحديث في شيء من التفصيل عن نظامه الرهباني في هذه المنطقة. إنَّما ما أود توضيحه أنه كان له تفكير مُتكامِل عن الحياة الرهبانيَّة، وتخطيط لقوانينها ونظمها. فهو يريدها أن تتناغم مع نمو الإنسان الطبيعي، وأن تكون فرصة لاستثمار مواهب الراهب، بذلك رفض المبالغة في النُسك. كما عزم على مزج نظامي التوحُّد والشركة معًا، وعلى جمع النُسَّاك مع الرهبان دون أن يضع حواجز بينهما، حتى لا يكون عند الراهب فلسفة وحكمة دون حياة مشتركة، ولا حياة شركة دون فلسفة، وهكذا يمكن للطريقتيْن أن تتبادلا معًا، مثل البحر والأرض، الخير والمنفعة للوصول في النهاية إلى مجد الله الأعظم. وكما قال عنه **القدِّيس غريغوريوس:** [قابلت بين حياة الذين يخوضون معمعة الحياة، محتملين مشقاتها المتنوِّعة التي تُعكِّر أحيانًا صفو السلام، وبين حياة العائشين بعيدًا في العالم، عاملين فقط على ذكر الله وعلى إصلاح نفوسهم بواسطة وسائل صعبة، **فقرَّرت المزج بين الحياتين،** حياة الناسك وحياة الراهب الرسول[١]].

سرعان ما عُرِفَ باسيليوس في حياته الجديدة وذاعت قداسته. فأصبح نواة تَجَمَّع حوله نُسَّاك بنتس وكبادوكيَّة. لم يكن هو أول من أدخل الحياة الرهبانيَّة إلى بنتس، فقد سبقه إلى ذلك

---

[١] الأب إلياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٢٦.

يوستاثيوس الذي من سبسطيَّة، الذي سجَّل باسيليوس إعجابه بشخصيَّته النُسكيَّة، لكن نظام الجماعات الرهبانيَّة أو نظام الشركة في تلك الأصقاع، يُعزى فضل إظهاره إلى القدِّيس باسيليوس. ويُعتبر هو المؤسِّس له هناك دون شك، وما لبث أن انتشر مثاله، فتأسَّست جماعات من النُسَّاك العاملين من الجنسين من جميع أنحاء بنتس، وكان كل منها مركزًا فعَّالاً في التبشير بمعتقد مجمع نيقيَّة المقدَّس والدفاع ضد الأريوسيَّة.

انطلاق إلى الخلوة وتساؤلات لاهوتية

انطلق القديس باسيليوس إلى الخلوة بعيدًا عن ضجيج المدينة والارتباك بمراكزٍ زمنيةٍ بسبب شهرته ونبوغه، غير أن هذه الفترة اتَّسمت بتكدُّس التساؤلات بخصوص البدعة الأريوسية، فقد رفض مجمع نيقية استخدام التعبيرات الأريوسية، مستخدمًا التعبير اليوناني *homoousios* (واحد ومساو في الجوهر) لتحديد العلاقة بين الابن الوحيد الجنس والآب.

ظهر إفنوميوس بميوله الأريوسية، وفي عام ٣٥٨م دان مجمع أنقرة *Ancyra* أتباع إفنوميوس، الذي لم يجعل الابن مساويًا للآب في الجوهر.

إذ صار قسطنطيوس *Constantius* الإمبراطور الوحيد للشرق والغرب وهو يحمل ميول شبه أريوسية، وُضِعَ قانون إيمان في عام ٣٥٩م في *Sirmium* يقلل من الوحدة بين الأقنومين ويجعلها "شبَّه" بطريقة غامضة. عُقِدَ مجمعان لمواجهة هذا الموقف أحدهما في الغرب في *Rimini* في يوليو ٣٥٩م، والآخر في الشرق في سيليكيا *Selecuia* في أواخر سبتمبر.

لم يقف القديس باسيليوس صامتًا فيما يخص إيمان الكنيسة، بالأخص ما يخص الثالوث القدوس، ومن أجل الوحدة التي أفسدتها الأريوسية.

اشترك القدِّيس باسيليوس، الذي لم يكن قد سيم أسقفًا، في مجمع *Seleucia*، غالبًا كمشيرٍ لاهوتيٍ لباسيليوس أسقف أنقرة، فإن رغبته في البحث عن الهدوء والخلوة أعطته تعزيزًا وشهرة مع معرفته وعلمه اللاهوتي.

أُفتتح المجمع بتقديم عرض بخصوص وضع أتباع إفنوميوس *Anomeans*، الذين تقترب تعاليمهم من الأريوسية، إذ يرون أن الابن لا يشبه الآب في الجوهر. لم يأخذ هذا الأمر جهدًا يُذكر، فقد رفضهم المجمع، إنما ما شغل المجمع بالأكثر هو وضع صيغة واضحة لما قدَّمه مجمع نيقية، وتوضيح معنى التعبير *Homoousios* دون لبسٍ. احتاج هذا الأمر إلى البابا أثناسيوس السكندري، لكنه لم يكن في متناول اليد، حيث اضطر إلى الاختفاء في البرية بسبب مقاومة قسطنطيوس له.

يرى البعض أن القدّيس باسيليوس لجأ إلى صديق القدّيس أثناسيوس وهو أبوليناريوس، بالرغم من أن المسافة بين سيليكيا ولاودوكية حوالي ١٦٠ كم بحرًا. وأن الرسالتين ٣٦١، ٣٦٣ موجهتان لأبوليناريوس والرسالتين ٣٦٢، ٣٦٤ موجهتان من أبوليناريوس إلى باسيليوس، **وإن كان هذا الأمر مشكوكًا فيه**، فإنه لم توجد رسائل مُتبادلة بينهما، وأن أعداء القديس وضعوا هذه الرسائل ليتّهموه بالأبوليناريـة، وإن كانت الرسائل لم تتعرّض لهذه البدعة من قريبٍ أو بعيدٍ.

سبق لنا الحديث عن أبوليناريوس وبدعته إذ كان يعتقد بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح لكن بمفهومٍ خاطئ إذ رفض أن الناسوت السيد المسيح كان كاملاً، معتقدًا أن اللاهوت قام بدور العقل. خلفيته اللاهوتية ليست من مدرسة إسكندرية، وفكره لا يُمَثِّل فكر المدرسة، بالرغم من صداقة البابا أثناسيوس مع أبوليناريوس. وقد فنَّد البابا أثناسيوس فكر أبوليناريوس دون ذكر اسمه.

جاءت رسالته ٣٦١ إلى أبوليناريوس (يُشك في أصالتها) تكشف عن تواضع القديس باسيليوس ورغبته الدائمة في التعلُّم، مع غيرته على الحق الإلهي، إذ كتب إليه:

[إني أكشف لك قلبي، والأمر بين يديك الآن، مثل طبيب صالح، تشفي من هو مريض، وتسند من هو ضعيف، وتُقَوِّينا كل يوم.

إني أُحيّي الإخوة الذين معك. وأطلب إليهم كما إليك أن تُصَلِّي عني كي أَخلُصَ.

صديقي غريغوريوس قد فَضَّل أن يعيش مع والديه. الآن هو معهما.

لتحفظ على الدوام لنا في صحة جيدة، لتسندنا بصلواتك وفهمك[1]].

يقول *Kelly*: [هيأ الآباء الكبادوك بقيادة باسيليوس القضية ضد الأبوليناريّة، وبمجموعة من القرارات التي صدرت عام ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٨م، وضعها ثيؤدوسيوس تحت نقد الدولة لها، وحرم المشايعين لها[2].]

في يناير ٣٦٠م، عُقِدَ **مجمع في القسطنطينية** للتصديق على ما تمّ، غير أن المجمع أراد مراضاة الإمبراطور. وضع المجمع صيغة جديدة لقانون الإيمان تحمل اتجاهًا أريوسيًا دُعيت قانون إيمان أريميني *Creed of Ariminum*.

تم عزل باسيليوس أسقف أنقرة مع أساقفة آخرين. ورجع باسيليوس إلى قيصرية مُحبَطًا. أما الخبر الذي أحزنه بالأكثر أن بعض مُمثلي المجمع عادوا من القسطنطينية يطالبون ديانيوس أسقف قيصرية أن يُوَقِّع على صيغة الإيمان الجديدة، فخضع لهم.

---

[1] Letter 361 To Apollinaris.

[2] J.N.D. Kelly: Early Christian Doctrine, 1978, p. 296.

حتى ذلك الوقت لم يُلاحظ أن القدّيس باسيليوس اشترك في نشاط عام، بل كان قابعًا في خلوته في بنتس. لكن إذ ترامى إلى سمعه أن ديانيوس رئيس أساقفة قيْصريّة قد قبِل قانون الإيمان الشبه أريوسي، ترك القدّيس خلوته ومضى إلى ذلك الأسقف ونبَّهه إلى زلّته، وكان من وقت إلى آخَر يرجع إلى مكان خلوته وهو مُرّ النفس.

كم تمررت نفس باسيليوس حين سمع أن الأسقف الذي كان موضع إعجابه كأب له، وقام بتعميده يضعف أمامهم. لم يستطع باسيليوس أن يبقى في قيصرية، فرجع إلى موضع خلوته في أنيسي، واضعًا في قلبه ألا يعود إلى قيصرية[1].

هذه هى خبرة القديس باسيليوس الأولى والمُرَّة حين لمس بنفسه دخول السياسة في الحياة الكنسية، بل وفي وضع صيغة الإيمان.

الآن انسحب إلى موضع خلوته، بعد أن كتب (في عام ٣٦٠م) إلى صديقه القديس غريغوريوس يدعوه أن يأتي إليه[2].

خلاف مؤقت مع القديس غريغوريوس النزينزي[3]

حدث خلاف مؤقت بين القديسيْن بخصوص موقع الدير، إذ لم يكن القديس غريغوريوس مُقتنِعًا به. قام بزيارة إيبورا *Ibora*، بعدها صار يُوَبِّخ باسيليوس عن اختياره أسوأ موقع يمكن أن يُقَام فيه دير. بينما كان باسيليوس مُعجَبًا به. جاء في الرسالة الرابعة عشرة التي وَجَّهها القديس باسيليوس الكبير إلى صديقه الآتي:

١. كتب إليه أخوه غريغوريوس أنه مشتاق أن يرافقه. وقد أضاف إلى ذلك أن القديس غريغوريوس النزينزي أيضًا يحمل نفس الفكر.

٢. لم يستطع القديس باسيليوس الانتظار، وشعر بالالتزام أن يسرع إلى بنتس يبحث عن موضع خلوة يستقر فيه، شاعرًا أن الله سيُظهِر له الموضع الملائم.

٣. وصف في الرسالة الموضع الذي اختاره، فقال:

[فتح الله لي موضعًا يتناسب تمامًا مع تذوُّقي، فقد رأيت بعيني ما كنت كثيرًا أتصوَّره بذهني حسب ما في مخيلتي.

---

[1] *James Hanrahan: The Life of Saint Basil the Great, 1979, The Basilian Press, Toronto.*
[2] *Epistle 14.*
[3] *Robert Payne: The Holy Fire, St Vladimir's Seminary Press, N.Y., 1980, p. 116-117.*

يوجد جبل عالٍ مُغطًى بغابات كثيفة، على جانبه الشمالي توجد مجاري مياه كثيرة باردة وصافية. وفي أسفله يوجد سهل غني بالمياه تنساب منه، مُحَاط بأشجار كثيرة وكثيفة كافية أن تكون له سورًا طبيعيًا. إنه يفوق جزيرة *Culypso* التي يعتبرها هومر *Homer* أجمل بقعة على وجه الأرض. بالحقيقة إنها تشبه جزيرة، محمية من كل جانب.

يوجد تجويفان عميقان من جانبين منها، ويجري نهر من الجانب الثالث لا يُمكِن عبوره، وكأنه حصن لها. والجبل مُمتد خلفها يلتقي مع التجويفين في شكل هلال، يصدّ المرور عند قاعدته. كما يوجد معبر واحد، وأنا أسيطر عليه.

يوجد خلف مسكني ممر ضيّق آخَر يقوم على صخرة تحت الماء، وكأنه امتداد للسهول والمجري الذي يحده، وهو ليس بأقل جمالاً لتذوّقي...

يمكنك من هناك أن ترى النهر يفيض بسرعة أعظم من كل مجرى أعرفه. ويصب في بحيرة باندفاع من الصخور العالية، لتسقط المياه في حوضٍ عميقٍ، فيقدم لي كما لغيري أروع منظر. يتفق كل من يراه أنه أجمل مشهد، كما يتربّى فيه سمك بلا عدد، يشبع احتياجات كل الذين يعيشون في المنطقة...

أمر آخَر أُعجب به هو كثرة الورود، وتغريد الطيور...

على أي الأحوال، فإن ما يستحق المديح فوق هذا كله، أن الموقع معروف بإنتاج كل أنواع الفاكهة، أما بالنسبة لي، فإنه يمدّني بما هو أكثر من الثمار لذة: وهو الهدوء. بالحقيقة ليس فقط فيه نخلص من صخب المدينة، بل ومن كثرة المسافرين، سوى قلة من الصيادين.

إنها منطقة غنية بالحقيقة بخيراتها كما في الأشياء الأخرى، وليس بالدببة والذئاب كما لديك، إنما غنية بالأيائل والماعز البرّي والأرانب البريّة وما أشبه ذلك، وهذا ما يسعدني أن أقوله.

أليس من المؤلم أن أسقط في خطأ غبي، إذ اقتربت من الاشتياق إلى تغيير مكاني بمنطقة *Tiberina*، التي تعتبر حفرة مملوءة وحلاً أكثر من كل الأرض؟![1].

ربما كان باسيليوس يبالغ في روعة الموقع، ومن جانبٍ آخَر إذ انتقد مشهد مدينة صديقه، قائلاً بأنها مملوءة وحلاً ودببة وذئابًا، وأنه لا يحتمل البقاء في مدينة قبيحة، لذلك كان رد الفعل لدى القديس غريغوريوس أنه بالغ في السخرية بالموقع.

لم يسترح القديس غريغوريوس للظلال العظيمة التي تحل بالموقع بسبب الجبال، والأشجار الكثيفة المملوءة شوكًا، والطرق المُتشابكة التي لا تصلح للسير فيها. وما هو أردأ من

---

[1] *Epistle 14.*

ذلك، فإن "هدير النهر يطمس أصوات التسبيح. كان يتذكر الرياح العنيفة وكوخ باسيليوس الصغير الكئيب، ووجبات طعامهم التي كادت أن تكسر أسنانهم.

تصحيح الرسالة برسالة أخرى

أمام هذه السخرية أخذ القديس باسيليوس موقفًا عجيبًا، فقد بعث إليه رسالة ثانية تكشف عن شخصيته وحكمته وعمق روحانيته. في هذه الرسالة لم يُهاجِمْ صديقه لأنه سخر بالموقع الذي اختاره للخلوة، إنما ألقى باللوم على نفسه. لقد حسب أنه إذ استرسل في وصف جمال الموقع قبل أن يُحَدِّثه عن منهجه في حياة الخلوة، ومباهج الحياة الرهبانية الإنجيلية، هذا دفع صديقه إلى موقفه هذا. لذا جاءت **رسالته الثانية للقديس غريغوريوس** تُعلِن عن هذه الحياة التي اختارها. دخل مع صديقه في رحلة لا إلى الموقع الذي اختاره لسكناه، بل إلى أعماق نفسه وتهليلها بالحياة الجديدة في الرب.

جاء في هذه الرسالة:

❖ ١. لقد تعرَّفت على رسالتك، كمن يتعرَّف إنسان على أبناء أصدقائه، بسبب شبههم الجلي لوالديهم.

قولك لي أن أصف لك نوع المكان الذي أعيش فيه قبل أن أدعك تسمع مني شيئًا عن طريقة حياتي، لن يدفعك بالأكثر أن تشاركني حياتي... فإنه كان يليق بنفسٍ مثل نفسك التي لا تبالي بشيءٍ ما مما لكل هذه الحياة هنا متى قورنت بالبركات التي وُعِدنا به في الحياة العتيدة والمُخزَّن لنا. ما أفعله أنا نفسي نهارًا وليلاً في هذه البقعة النائية أخجل أن أكتب عنه على ورق.

لقد تركتُ خلفي كل شئون المدينة التي كانت تُسبب لي متاعب بلا حصرٍ، ولكنني لم أقتنِ بعد هدوء نفسي.

إنني أشبه مسافرين بحرًا، لم يسبق لهم قبلاً أن يقوموا برحلة بحرية، متألّمون يعانون من دوار البحر، يصارعون مع السفينة لأنها ضخمة وتتقاذفها الأمواج. وعندما يخرجون منها إلى قمة عالية أو مكانٍ داكنٍ، يشعرون دومًا بدوار البحر والتعب. أينما ذهبوا يعانون من الغثيان ويرافقهم البؤس. وضعي يُشبِه هذا.

إني أحمل متاعبي معي في كل موضع، أنا في وسط قلاقل كهذه. لهذا في النهاية لا أنال ما أحصل عليه في عزلتي من صلاحٍ. ما يلزمني أن أفعله كي يسندني أن أكون ملتصقًا ببصمات قدمي ذاك الذي يقود الطريق إلى الخلاص. إذ يقول هذا: "إن أراد أحد أن يأتي ورائي، فلينكر نفسه، ويحمل صليبه ويتبعني" (مت ١٦: ٢٤).

٢. يليق بنا أن نصارع لأجل هدوء الذهن. وذلك مثل العين التي تتحقق من الهدف الموضوع أمامها، بينما تجول بلا هدوء إلى فوق وإلى أسفل ومن كل جانب دون أن تُثَبِّت نظرها على الهدف. هكذا يتشتت الذهن بآلاف الاهتمامات العالمية حتى يستطيع أن يدرك الحق بوضوح...

الآن يوجد طريق واحد للهروب من كل هذه (الارتباكات الزمنية)، وهو اعتزال العالم كله، **ليس الاعتزال الجسماني، وإنما عزل مشاركة النفس (لشهوات) الجسد**، فتعيش كما بدون مدينة ولا بيت ولا مقتنيات ولا مجتمع، ولا وسائل الحياة، ولا عمل، ولا ارتباطات، ولا تعليم بشري، ليكون القلب مُعدًّا لقبول كل بصمة من بصمات التعليم الإلهي.

إعداد القلب هو عدم تَعَلُّم الحوارات الشريرة المؤذية. فيصير كلوحٍ الشمع مصقولاً قبل محاولة الكتابة عليه.

الآن العزلة هي أعظم وسيلة لتحقيق هذا الهدف، حيث تُهَدِّئ الأهواء، وتفتح المجال لتقطعها من النفس.

[فكما أن الحيوانات يمكن السيطرة عليها بضربها، هكذا يمكن السيطرة حسنًا على أعداء النفس المميتة: الشهوة والغضب والخوف والغم، بواسطة العقل متى هدأ بالسكون، وعدم وجود إثارة مستمرة].

ليكن لنا مثل هذا المكان، فنعتزل الحوار مع البشر، حتى لا يُعَاق مغزى تداريبنا من الخارج.

إن التداريب التقوية تُنعِشُ النفس بأفكارٍ إلهيةٍ. أي حال أكثر تطوبيًا مثل التَمَثُّل ونحن على الأرض بطغمات الملائكة؟ أن يبدأ الإنسان اليوم بالصلاة وتكريم خالقه بالألحان والتسبيح؟

إذ يشرق النهار تلجأ نفوسنا إلى الصلاة، ننكب عليها أثناء أعمالنا، فتُمَلَّح أعمالنا بالتسبيح كما بملحٍ. فالتسابيح المُهدِّئة تهب العقل حالة من البهجة والهدوء...

فالهدوء - كما قلت - هو الخطوة الأولى لبلوغ كفايتنا. فيتنقَّى اللسان من انهماكات العالم، والعينان لا تثيرهما الألوان الجذَّابة والأشكال الجميلة. والأُذنان لا تستمتعان ذهنيًا

بالأغاني الخليعة، خاصة المؤذية وبأحاديث الفاسقين والمازحين. هكذا إذ يخلص الذهن من الانغماس في الملذات الخارجية، وعدم انشغال الأحاسيس بالعالم، عندئذ يرجع الذهن إلى ذاته، ويرتفع ساميًا في التأمل في الله.

[عندما يشرق الجمال (الإلهي) عليها، تنسى النفس حتى طبيعتها، فلا تعود تنحدر بواسطة التفكير في الطعام أو الارتباك بالملبس؛ إنما تحفظ طاقاتها لطلب الخيرات الأبدية. وتطلب فقط كيف تنتعش بضبط النفس والشجاعة والبرّ والحكمة وكل الفضائل الأخرى التي توزع تحت هذه الأسماء، وغالبًا ما تُعِين الإنسان الصالح أن يُتَمِّمَ كل التزامات الحياة].

٣. دراسة الأسفار الإلهية هى الطريق الرئيسي لتحقيق واجبنا، إذ نجد فيها تعاليم عن السلوك وحياة الطوباويين، مُسَلَّمة إلينا كتابةً، كصورٍ حيَّة للحياة الورعة، لأجل الاقتداء بأعمالهم الصالحة.

من ثَمَّ فإن كان أحد يشعر في كل جانب من نفسه أنه ضعيف، يُكَرِّس حياته للامتثال (بالأبرار)، فيأخذ كما من مستوصفٍ الدواء المناسب لمرضه.

من يُفتَن **بالطهارة** يتأمل في تاريخ يوسف، ويَتَعَلَّم منه أعمال الطهارة، فيجد نفسه ليس فقط ضابطًا نفسه للذة، وإنما تصير عفة فكره طبيعية فيه.

ويَتَعَلَّم **الاحتمال** من أيوب...

أو يلتزم بطلب أن يكون **وديعًا في الحال ويقلبٍ عظيمٍ** يتحدَّى الخطية؛ يكون وديعًا مع الناس، فيجد داود شهمًا في عملٍ بطولي كالحرب، وديعًا وهادئًا من جهة الانتقام من أعدائه.

هكذا أيضًا موسى حمل **قلبًا عظيمًا** من جهة الخطاة الذين يقفون ضد الله، يحتمل شتائمهم له بنفسٍ وديعة.

وهكذا بوجهٍ عامٍ كما أن الرسَّامين عندما يرسمون من صورٍ أخرى يتطلَّعون إلى النموذج على الدوام، ويبذلون كل الجهد لنقل كل الملامح إلى أعمالهم، هكذا من يرغب في أن ينقل كل جوانب السمو يُحَوِّل عينيه إلى حياة القديسين ويحفظها بكونهم نُصب حيَّة متحرِّكة ويمتثلون بفضائلهم.

٤. **الصلاة أيضًا بعد القراءة تنعش النفس**، وتثيرها بهمّة نحو حب الله.

الصلاة صالحة، إذ تطبع فكرة واضحة عن الله في النفس، وبتذكُّر سكنى الله يُقيم الله فيها. بهذا نصير هيكل الله بتذكُّرنا الدائم الذي لا تفسده أحاسيس مُفاجئة.

عندما يهرب المُتَعبِّد من كل الأشياء، ينسحب نحو الله، ساحبًا كل المشاعر التي تدعوه إلى الانغماس في اللذات، ويقضي زمانه في السعي نحو الفضيلة.

٥. هذه أيضًا في غاية الأهمية أن يصغي إلى معرفة كيفية الحوار...

٦. خلال **الروح المتواضع والخاضع** تأتي العين الحزينة المسدولة، **فلا تبالي بالمظهر الخارجي...**

ليكن النوم خفيفًا، وبسهولة يمكن الاستيقاظ، يتم النوم بعد وجبة خفيفة[1].

القديس باسيليوس الكبير

وقفة هامة عند الرسالتين

يليق بنا أن نقف هنا عند الرسالتين (رسالة ٢، ورسالة ١٤) اللتين بعث بهما القديس باسيليوس إلى صديقه القديس غريغوريوس، وأثرهما على صديقه.

أولاً: افتتح الرسالة الأولى **بإبراز اشتياقه إلى الالتقاء معًا كصديقين** عاشا معًا منذ سنوات في صداقة حميمة، وكان ما يربطهما الهدف الواحد وهو أن السعادة الحقيقية هي في الحكمة التي يتمتَّع بها المؤمن خلال التصاقه بالله. وهي مقدمة رائعة، لأنه ما أحلى أن يجتمع الإخوة معًا في الرب بهدفٍ واحدٍ. وكما يقول المُرتِّل: "هوذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الإخوة معًا" (مز ١٣٣: ١). وكما يقول **الأب يوسف** في حديثه مع القديس يوحنا كاسيان: [إن اتحاد الصداقة الأكيد الذي لا ينحلُّ هو الذي يكمن بين المتشابهين في الصلاح وحده... بهذا يكون الحب غير مغشوش بين من لهم هدف واحد وفكر واحد ليشاءوا أو يرفضوا نفس الأمور معًا. إن أردتم أن تحفظوا هذا الحب غير المنكسر يجدر بكم أن تكونوا حريصين أولاً أن تتخلّصوا من أخطائكم، وتميتوا شهواتكم بغيرةٍ مشتركةٍ وهدفٍ مُتحدٍ، مجاهدين في تحقيق ما يُبهِج النبي على وجه الخصوص القائل: "هوذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الإخوة معًا" (مز ١٣٣:١). لأنه أي شيء يُظهِر وحدة الروح مثل السكنى معًا في مكان واحد؟! غير أن مختلفي الشخصية والهدف عبثًا يحاولون السكنى معًا في سكنٍ واحدٍ، ولا يعوق البعد المكاني الوحدة بين المتأسسين على صلاحٍ متساوٍ. **لأن الاتحاد يتم بالله وليس بالمكان...** ولا يمكن للسلام الثابت أن يبقى متى اختلفت الإرادة بين الناس[2]].

---

[1] *Ep. 2:2.*
[2] *Cassian, Conferences 16:3.*

غير أن القديس باسيليوس أبرز مع الجانب العاطفي جمال المكان وروعة موقعه وإمكانياته بشيء من التفصيل، عوض الحديث عن منهج الحياة الذي كان في قلب باسيليوس والتمتُّع بالسكون ورفع القلب والفكر والأحاسيس إلى السماء.

وقد صَحَّح القديس موقفه باعترافه في بدء الرسالة الثانية أنه اهتم بوصفِ نوع المكان لا بطريقة الحياة وهذا خطأ منه.

ثانيًا: أما الخطأ الثاني فهو بانسيابه في إبراز محاسن الموقع الذي اختاره قارنه بالموقع الذي يعيش فيه صديقه، ووصفه بأنه مملوء بالدببة والذئاب والوحل، بينما موقع باسيليوس يحمل أجمل وأروع منظر على وجه الأرض.

كان رد الفعل الطبيعي أن هاجم غريغوريوس موقع باسيليوس، عوض أن يشتاق للقاء مع صديقه الذي كان مُعجَبًا بشخصه وأسلوبه وحياته، وهما بعد طالبان في أثينا، وكانا يعملان معًا لجذب النفوس للإيمان.

ثالثًا: كشفت الرسالة الرابعة عشرة عن مفاهيم روحية عميقة جذبت قلب غريغوريوس للشركة مع صديقه في هذه الحياة، منها:

١. تكمن سعادة المؤمن لا في جمال المسكن الذي يعيش فيه، إنما في التصاقه بمُخَلِّصه المصلوب القادر أن يرفع قلبه إلى السماء.

٢. أجمل ثمرة يقتطفها المؤمن هي "هدوء الذهن"، حتى لا يرتبك فكره وقلبه بقلاقل الحياة واضطراباتها، إنما يرتفع نحو الله، فيختبر المؤمن عربون الأبدية.

٣. الابتعاد عن الحوارات البشرية الباطلة، لينشغل بحوار الحب مع الله لأجل بنيانه وبنيان البشرية.

٣. العزلة أو الوحدة، لا تقوم على عزلة جسدية مُجَرَّدة، إنما على الامتثال بالسمائيين بالصلاة والتسبيح.

٤. لا يستطيع الإنسان أن يسمو بطبيعته البشرية، ما لم يُسكَب الجمال الإلهي عليها.

٥. الكتاب المقدس هو الطريق الرئيسي للسمو الروحي، والاقتداء بالأبرار يسند الإنسان ليحيا بالفضائل المُقدَّسة.

٦. الصلاة تنعش النفس بالحب الإلهي، فيذكر المؤمن أنه هيكل الرب.

٧. بروح التواضع والخضوع لا ننشغل بالمظاهر الخارجية، بل بمجد ابنة الملك الذي في الداخل.

٨. الالتزام بالجهاد والسهر، فلا تمتلئ المِعْدَة قبل النوم، حتى يستطيع المؤمن أن يقوم بسهولة لممارسة التداريب الروحية.

٩. يمكننا القول بأن هذه الرسالة مفتاح لمفهوم قوانين القديس باسيليوس الرهبانية. فمع ما اتَّسم به نظامه من نظام دقيق، غير أن جوهر الحياة هو المجد الداخلي في الرب.

أيام سعيدة للصديقين في أنيسي عام ٣٦١م

جاء في الرسالة السابقة الحديث عنها أن الذين يعيشون في العالم يستنفدون حياتهم ويُكَرِّسونها لخدمات تبعث على اليأس. كتب: "يوجد طريق واحد... **الزهد الكامل عن العالم!**"

كان القديس باسيليوس الكبير يرى أن وجبة الطعام يلزم أن تتكون من خبزٍ وماءٍ وخضرواتٍ، وأن يكون النوم خفيفًا، ويكون لدى الراهب القدرة على القيام في نصف الليل لممارسة الصلوات لله، مع الخضوع الكامل لأب الدير. يرى أن كل لحظة من حياة الراهب يجب أن تكون مكرسة لله، أيقونة للحياة السماوية.

كان لهذه الرسالة فاعليتها على الصديقين الحميمين، فانضم القدِّيس غريغوريوس إلى صديقه في *Annesi*، وجاءت ذكريات الشهور التالية تكشف عن شعور الاثنين بأنها فترة سعيدة للغاية.

لقد سَجَّل لنا القديس غريغوريوس صورة ممتعة لهذه الحياة التي مارسها، وكيف وجد لذَّة في متاعبها. إذ كتب في إحدى رسائله: [ما كتبته سابقًا عن إقامتنا في بنتس كان دعابة في غير جدية. أما ما أكتبه الآن فهو في جدية تامة. من يرجع بي كما إلى شهرٍ من الأيام السابقة، حيث كنت أستمتع معك بالحياة القاسية. فإن الألم الاختياري أثمن بكثير من اللذة غير الاختيارية. من يردني إلى التسابيح (بالمزامير) والسهرات والرفقة مع الله بالصلاة والحياة غير المادية، أو قل غير الجسدية. حقًا إنها من أجل أُلفة النفوس ووحدتها بين الإخوة الذين سمعوا بك وصاروا روحيين (إلهيين). من أجل الجهاد والحث على الفضيلة التي تؤمنها النظم والقوانين. من أجل الجهاد العذب من الوصايا الإلهية، والنور الذي وجدناه فيهم بالروح القدس[1]].

لقد عاشا معًا الحياة النُسكية قائمة على أسس إنجيلية. كما أعطتهما مجالاً لمراجعة كتابات آباء سابقين كمثال لذلك سجَّلا مقتطفات من كتابات العلاّمة أوريجينوس دعوها "**الفيلوكاليا**"، وأيضًا قاما بعمل آخر "عن الروح"، وهو عبارة عن مزيج من نصوص من *Plotinus*، حيث قام الصديقان بمراجعة مشتركة للفلسفة الحقيقية.

[1] *Ep. 6.*

سيامته شماسًا

سيم القديس باسيليوس شماسًا سنة ٣٦٠م، وحدث نزاع بينه وبين *Aetius*. جاء في كتابه "**ضد إفنوميوس**": [على حدِّ معرفتي أن أول من تجاسر ليقول علانية ويُعَلِّم بأن الابن الوحيد مختلف في الجوهر عن الله الآب هو أوتيوس *Aetius* السرياني. لست أتحدث عن الخداعات التي انتقاها منذ شبابه، والتي وجد من يقبله في كنائس الله مُسَبِّبًا كارثة... والذي تبعه في عقوقه وأكمل ذلك إفنوميوس الغلاطي. لقد بحث عن الشهرة خلال أموره المُخزية للغاية. وكما يقول بولس: "مجدهم في خزيهم" (في ٣: ١٩).

موت قسطنطيوس واستيلاء يوليانوس الجاحد على الحكم (٣٦١ - ٣٦٣م)

استغل يوليانوس الخلافات الدينية التي وقعت في الشرق، وهجوم الشعوب المتبربرة وانشغال عمه قسطنطيوس *Constantius* بها، وأعلن نفسه إمبراطورًا على الغرب رغمًا عن إرادة عمه، وهو ما دفع قسطنطيوس إلى الخروج لمحاربته، وبينما كان في طريقه إليه أصيب قسطنطيوس بمرضٍ خطيرٍ توفى على إثره في نوفمبر ٣٦١م، وإذ سمع يوليانوس بموته استغل الموقف وواصل سيره وهو على رأس جيشه حتى بلغ مدينة القسطنطينية، ودخلها وجلس على عرشها وأعلن نفسه إمبراطورًا على الشرق والغرب، وكان ذلك في أواخر عام ٣٦١م.

لقد مات إمبراطور مسيحي وحلَّ محله إمبراطور جاحد للإيمان. غير أنه وفي بداية حُكْمِه رجع الأساقفة الذين سبق أن نفاهم قسطنطيوس، لأنهم لم يَقْبَلوا الانحراف عن قانون الإيمان النيقوي.

لم يكن يشغل يوليانوس الإيمان بصورة أو أخرى. غير أنه فيما بعد قام بموجة عارمة ضد الإيمان المسيحي. وكان نصيب مسيحيي مصر من الشهداء لا يُقارَن بأيَّة دولة أخرى. قام يوليانوس بآخِر محاولة لإحياء الوثنية التي كانت في طريقها إلى الزوال.

كرَّس يوليانوس طاقاته لمقاومة المسيحية، إذ حسب أن انتشارها سيُحَطِّم الدراسات اليونانية الكلاسيكية ويبيدها تمامًا. متطلِّعًا إلى أن المسيحيين هم أعداء الآلهة اليونانية، وبالتالي هم أعداء الثقافة الهيلينية. كان يتطلع إلى المسيحيين أنهم برابرة يعبدون شخصًا يهوديًا، ويستخدمون كتابًا يهوديًا تُرجِم إلى اليونانية بلغة لا تنافس لغة الفلاسفة اليونانيين[1].

---

[1] *Adrian Fortescue: The Greek Fathers, San Francisco, 2007, p. 47.*

باطلاً حاول يوليانوس أن يقتلع المسيحية تمامًا من العالم، فقد عشق الأفكار الفلسفية القديمة للثقافة اليونانية الرومانية، وكَرَّس كل طاقاته العلمية والفلسفية وسلطانه لاسترداد أمجاد الوثنية. اهتم بتقديم تفاسير رمزية لقصص الآلهة الوثنية العقيمة، وأن يهاجم الكتاب المقدس بعهديه والكتابة ضده!

كان على اتصال شخصي وثيق بجوبتر Jopiter، ومينرفا Minerva، وأبوللو Apollo، وهيراقليس Hercules، قام بزيارات ليلية لهذه الآلهة المحبوبة لديه والمولع بها، وقد أكّدت له حمايتها وتأييدها الشخصي له[1].

لقد أدهش العالم بنجاحه العسكري، وسلطانه العملي كإمبراطور في مقاومته للبرابرة الذين كانوا يُهَدِّدون بلاد الغال، وكسب محبة جيشه. أعلن تمرده على الإيمان المسيحي وصداقته للآلهة الوثنية. ومع ما وُهِبَ من قدرات فائقة غير عادية حَطَّم نفسه، عوض أن يقتلع الإيمان المسيحي من الإمبراطورية الرومانية[2].

جاء في الخطاب الثاني للقديس غريغوريوس اللاهوتي ضد يوليانوس الآتي:

[الذي حملني على أن أتنبأ عنه شذوذ طبعه وانحلاله الزائد. لم يكن قذاله (قفا الرأس) المرتخي يظهر لي علامة جيدة، وكذلك الكتفان المقوستان المرتفعتان، وعيناه المتحركتان والملتفتتان باستمرار وبشيءٍ من الفضول الجامح والجنون، والقدان الغير ثابتتين والمغيّرتان الموطئ دائمًا، والأنف المتصعر بالسباب والاحتقار، وتعبير الوجه بالضحك القائد دائمًا إلى نفس النتيجة والمعنى، وضحكاته المندفعة وغير المنضبطة، وغمزاته غير ذات القصد، وكلامه الذي كان يتوقف وينقطع بسكَتَةٍ واحدة، وأسئلته المُضطربة والفارغة، وأجوبته الأسوأ منها[3]].

مُشاركة يوليانوس في الاحتفالات الوثنية وتقديم ذبائح للآلهة، مع صفاته السيئة جعلت القديس غريغوريوس يتنبأ عنه بأنه سوف يُعَرِّض الإمبراطورية لشرٍّ خطير في المستقبل، وكان يتمنى ألاّ تتحقّق نبوّته هذه حفاظًا على أمن وسلامة الإمبراطورية والكنيسة، ولكن أمنيته هذه لم تتحقّق. وكان حاضرًا يوم أن خيبت آماله وتحقّقت نبوّته باعتلاء يوليانوس العرش، وقيامه بإعلان ارتداده عن المسيحية، وإعادة العبادات الوثنية، واضطهاد الديانة المسيحية.

---

[1] *Mcclintock & Strong's Cyclopedia.*

[2] *Mcclintock & Strong's Cyclopedia.*

[3] مختارات من القديس غريغوريوس اللاهوتي النزينزي: تعريب الأسقف استفانوس حداد، ، الخطاب الثاني ضد يوليانوس، بيروت، منشورات النور، ١٩٩٤، ص ٨٤.

مُصالحة باسيليوس مع ديانيوس أسقف قيصرية

في عام ٣٦٢م مرض ديانيوس، فأرسل إلى باسيليوس يستدعيه وهو على سرير الموت، مؤكّدًا له أنه لم يكن يقصد مُطلقًا رفض تعليم مجمع نيقية. قال له: "الله شاهد عليَّ أنني وقَّعتُ ببساطة قلبٍ، ولم أقصد قط أن أجحد الإيمان الذي علَّم به الآباء في نيقية. الآن أطلب أمرًا واحدًا ألاّ أنفصل عن ٣١٨ أسقفًا القديسين[1]". بهذا تمَّت المصالحة بينهما وهو على سرير الموت. وصار لهذه المصالحة بهجتها في ذكرياته.

جاء في رسالة القدّيس باسيليوس إلى الأسقف بوسبورس *Bosporius*، أنه قد أُتُّهم بأنه حرم ديانيوس. أكَّد أنه لم يفعل هذا، ولم تكن لديه هذه الرغبة، مؤكدًا أنه منذ طفولته تَربَّى على محبته له، وأنه يذكر له فضائله وسموّ شخصيته. وأنه كان مع كثيرين حزينًا عليه لتوقيعه على قانون الإيمان الذي أحضروه إليه من القسطنطينية، وأنه فعل هذا في بساطة، ولم يكن يقصد جحد قانون الإيمان النيقوي. ختم رسالته بقوله، [لقد صَلَّى بالأكثر ألاَّ يُقطَع من نصيب الثلاث مئة والثمانية عشر أسقفًا الطوباويين الذين أعلنوا للعالم قانون الإيمان الجديد بالثناء. بناء على هذا التقرير الكافي نزعت عنّي كل قلقٍ وكل شكٍّ، وكما تعلم صرت في شركة معه، وزال حُزني. هكذا كانت علاقتي بديانيوس[2]].

كشفت هذه الرسالة عن مرارة نفسه من جهة المُفترين عليه بأنه حرم ديانيوس:

- كيف تظن كان قلبي مُتوجِّعًا عند سماعي للافتراءات التي انهالت عليَّ بواسطة بعض ممن لا يشعرون بمخافة الديَّان الذي يهلك كل الناطقين بالكذب (مز ٥: ٦).

لقد قضيت الليل كله تقريبًا بلا نومٍ، أذكر كلمات محبّتك؛ وقد حلَّ الحزن على قلبي...

بالحقيقة إن الافتراء - كما جاء في كلمات سليمان - يذل الإنسان (راجع جا ٧:٧ *LXX*)

أخبرني، هل أحرم ديانيوس الطوباوي البار؟ إذ قالوا هذا ضدي.

أين حرمته؟ ومتى؟ وفي حضور من؟ وبأي ذريعة؟ هل فعلت هذا شفاهًا أم كتابة؟... وحسرتاه! على استخفافهم بحكم الله!

بالحقيقة ما لم يكونوا قد قالوا هذا من خيالهم، يجعلونني كمن ليس في وعيي، وخارج عقلي، إذ يحسبونني لا أعرف ما قلته! فبحسب ما أدركه عن نفسي إني لم أقل شيئًا من هذا مطلقًا، ولا حتى كانت لديَّ رغبة في ذلك!

---

[1] *Letter 51 (N & PN Frs, series 2, volume 8).*

[2] *Letter 51 (N & PN Frs, series 2, volume 8, p. 154-155).*

ما أدركه حقيقة في هذا الأمر أنني منذ طفولتي المبكرة نشأت على المحبة له؛ إذ أتطلع إليه أراه كم هو وقور ومُكَرَّم ومُبَجَّل. وعندما كبرت عرفت فيه سمات نفسه الصالحة، وكنت أبتهج بالالتقاء معه، وبالتدريج تعلمت منه أن أدرك البساطة والشهامة وسعة عقله وكل سماته المتميزة للغاية، ورقة نفسه، وشجاعته مع وداعته وجاذبية سلوكه، وضبطه لنفسه، وابتسامته المُشرِقة، وعذوبة معاشرته مع هيبته ووقار تصرفه. بسبب هذا كله أحسبه من بين الرجال المشهورين للغاية لسمو شخصه[1].

القديس باسيليوس الكبير

يوسابيوس أسقف قيصرية[2]

عند وفاة ديانيوس *Dianius* انقسمت كنيسة قيصرية إلى قسمين، مثلما حدث مع القديس أمبروسيوس أسقف ميلان، وكان اختيار رجل علماني معروف من الجميع ومشهود له بالشخصية المستقيمة والرأي السديد الحل الأمثل للخروج من هذا الخلاف. اختير يوسابيوس أسقفًا، ولم يكن بعد قد نال المعمودية. تم عماده وسيامته أسقفًا في يوليو سنة ٣٦٢م.

لم يكن يوسابيوس يوافق بأي حال على هذه الكرامة التي أُختير لها، فاستُخدِمت القوة العسكرية للتغلُّب على رفضه وإجبار الأساقفة على رسامته. بعد رسامته أُطلِق سراح هؤلاء الأساقفة الذين أعلنوا رفضهم لهذه الرسامة التي تمَّت بالقوة واعتبروا رسامة يوسابيوس لاغية. إلا أن مجمعًا عقده غريغوريوس النزينزي وبَّخهم على موقفهم هذا، معتبرًا أنه كان من الأكرم لهم المخاطرة بحياتهم برفضهم رسامة يوسابيوس عن أن يخضعوا لإملاء الجمهور بسبب خوفهم على حياتهم.

تثبتت رسامة يوسابيوس من قِبَل الإمبراطور يوليانوس *Julian* الذي أظهر خسارته لفقده أحد خدام الدولة الممتازين، بالرغم من ثورته أن سيامته تمت بدون أخذ موافقته.

جلس يوسابيوس على كرسي الأسقفية ثماني سنوات حتى سنة ٣٧٠م. وفَرَض احترامه على الجميع، مُثبِّتًا جدارته في شَغل كُرسي الأسقفية، وكان مُفِيدًا للكنيسة في تلك الظروف. إلاَّ أنه سرعان ما وجد نفسه في وسط تجربة شديدة، ذلك أنه مع كونه أسقفًا مستقيم الرأي والإيمان إلاَّ أنه كان يفتقد المعرفة اللاهوتية وقوة الشخصية اللازمة لمواجهة الهرطقة التي ظهرت في الكنيسة.

---

[1] *Letter 51 (N & PN Frs, series 2, volume 8, p. 154-155).*

[2] راجع قاموس آباء الكنيسة وقديسيها مع بعض شخصيات كنسية، يوسابيوس أسقف قيصرية الكبادوك.

استياء يوليانوس من قيصرية

لقد كان الإمبراطور يوليانوس في ثورة عارمة ضد مسيحي قيصرية، لأن سكانها هدموا هيكلين عظيمين، فوضع جزية ثقيلة، وصادر كل ممتلكات الكنيسة، ونزع عنها امتيازها حتى في حقَّها أن تُحسَب مدينة. لم يحاول أن يخفي كراهيته لمواطني قيصرية، إذ قال: "إنني لا أستطيع أن أجد هيليني واحد (أي عابدٍ للآلهة) بين هؤلاء الكبادوك[١]".

جاء يوليانوس إلى قيصرية في ثورة بسبب هدم هيكل *Fortune* هناك، وخشي الشعب من أن ينتقم بهدم المدينة كلها، غير أنه أمر بقتل أويسيخوس *Eupsychius* في ٧ سبتمبر ٣٦٢م. فيما بعد أقيم مزار للشهيد في نفس موقع الهيكل، وكان القديس باسيليوس يحتفل بعيده كل عام[٢].

علاقته بالإمبراطور جوفيان JOVIAN

في يونيو ٣٦٣م قُتِلَ يوليانوس الجاحد، فاجتمع قادة الجيش ووقع اختيارهم على القائد جوفيان ليصير إمبراطورًا خلفًا ليوليان. ووافق جوفيان على اختيارهم. وأراد أن يُنهي الحرب مع الفرس، ويحافظ على ما تبقَّى تحت يده من جيش الإمبراطورية، فعقد الصلح معهم، ثم عاد على رأس الجيش إلى مدينة أنطاكية. وكان هذا الإمبراطور مسيحيًا أرثوذكسيًا، فعمل على رد الأساقفة المنفيين إلى كراسيهم، كما أعاد كل المسيحيين المنفيين إلى ديارهم، وردَّ لهم ممتلكاتهم. وأرسل إلى البابا أثناسيوس السكندري راجيًا منه أن يكتب قانون الإيمان ويرسله له ليكون مرجعًا لجميع الكنائس، فعمل أثناسيوس كل ما أمر به الإمبراطور. وكان سعيدًا بكل هذا، حتى أنه أرسل إلى صديقه القديس باسيليوس الكبير خطابًا يهنئه فيه باعتلاء جوفيان العرش وحسن معاملته للأساقفة والشعب الأرثوذكسي قال فيه:

"لقد انضم تمامًا الإمبراطور جوفيان البار إلى العقيدة الأرثوذكسية، وقام بجهود كبيرة لإقرارها وتثبيتها، هذه العقيدة التي أقرها مجمع نيقية، وهذا أمر يهمنا جميعًا. ولتفرح أنت معنا إذن، لأنه أصبح لنا إمبراطور أرثوذكسيّ ثبَّت العقيدة الحقيقية للثالوث القدوس[٣]".

---

[1] *Julian: Epistle 4.*

[2] *James Hanrahan: the Life of Saint Basil the Great, Toronto 1979.*

[3] *John Bishop Of Nikiu, Chronicle, tran from Zotenberg, Ethiopic Text by R.H. Charles D Litt., London, 1916 , LXXX,17.*

راجع شكري يوسف شكري كيرلس: القديس بازل الكبير، حياته ونظامه الرهباني، الإسكندرية ٢٠٠٩، الفصل الثالث.

جلس جوفيان على الكرسي، فنالت الكنيسة فترة راحة قصيرة. فقد مات جوفيان في فبراير ٣٦٤م، وحلَّ محلَّه الإمبراطور فالنتيان الأول *Valentinian 1* في الغرب وفالنس *Valens* في الشرق.

تبنَّى فالنس سياسة شبه أريوسية سبَّبت متاعب للقديس باسيليوس كل بقية حياته.

كان القدِّيس باسيليوس قد بلغ حوالي الخامسة والثلاثين من عمره. ولعل هذا ما دفع يوسابيوس القيصري إلى سيامة القدِّيس باسيليوس كاهنًا.

وضع الفيلوكاليا PHILOCALIA

نجح القدِّيس باسيليوس في جذب صديقه القدِّيس غريغوريوس النزينزي إليه سنة ٣٥٨م، وواظبا معًا على الصلاة والدراسة والعمل اليدوي. وجمعا مقتطفات من أعمال أوريجينوس وأيضًا كتبا قوانين رهبانية لتنظيم حياة الرهبان، التي عُرِفَت فيما بعد باسم "الفيلوكاليا"، والتي معناها "محبَّة الصلاح"، في حوالي سنة ٣٦٤م. هذه التي أضفت على القدِّيس باسيليوس اسم "**واضع قانون الرهبنة اليونانيَّة**". وقد ساعدت هذه القوانين في انتشار الحياة الرهبانية الجماعيَّة في هذه المنطقة.

سيامة باسيليوس كاهنًا

كان الأسقف يوسابيوس ضعيفًا ومترددًا، وكانت الكنيسة تعاني من الأريوسيين بجانب كراهية يوليانوس الشديدة لها. تحت هذه الظروف شعر القدِّيس غريغوريوس النزينزي بحاجة الأسقف يوسابيوس إلى من يعاونه، فأقنع صديقه باسيليوس أن يترك الدير وينزل إلى مدينة قيصريَّة.

ذهب إلى هناك ورُسِمَ كاهنًا بيد يوسابيوس سنة ٣٦٤م، بعد تمنُّع شديد نتيجة لشعوره بعدم الأهليَّة لتلك الرُتبة السامية، كما يظهر من خطاب القديس غريغوريوس النزينزي عن القديس باسيليوس[1] ورسالة بعثها الأول للثاني، إذ جاء فيها:

[أنا أوافق على ما ورد في بداية رسالتك لي، وهل يوجد شيء عندك لا أتفق فيه معك؟ وما كتبته أنت لي، أكتب إليك بمثله، فأنا أيضًا قبلت الكهنوت رغمًا عني، وبالحقيقة لم أكن أشتهيه قطّ. وكل منا يشهد للآخَر على أنه لم يكن عندنا شيء أحب وأشهى من الاستمرار في الفلسفة (الحياة النسكية) في تواضع بِضعةٍ. وربما ما حدث كان هو الأفضل، فإنني لا أعرف ماذا أقول ما دمت أجهل غرض الروح القدس، فلابد لي أن أصمت وأخضع حتى

[1] *Gregory Naz.: Oration 43 On St. Basil, 25, 27.*

تتكشف الأمور لي. ولاسيما في هذا الوقت الذي يهاجمنا فيه كثير من الهراطقة ويخرجون ألسنتهم ضدنا، ولذلك يجب علينا أن نتصدى لهم، ولا نخزي من وضعوا ثقتهم فينا، حتى لا نجلب على أنفسنا عارًا[١]].

حوالي ذلك التاريخ كتب القديس باسيليوس الكبير كتبه ضد إفنوميوس، وربَّما كان عمله هذا هو الذي زكَّاه لِدى يوسابيوس.

في عام ٣٦٤م صار أهم شخصية في كنيسة قيصرية كمدافع عن الإيمان النيقوي، خاصة وأن كثير من عظاته ترجع إلى هذا التاريخ. كان كل الرهبان في الإيبارشية في صفه. كان له تأثيره في الإيبارشية أكثر من الأسقف. هذا أدَّى إلى إظهار ضعف شخصيَّة يوسابيوس، مما سبَّب نوعًا من الخلاف ومتاعب خطيرة.

في هذا العام (٣٦٤م) قام القدِّيس بكتابة عملين هامين وهما:

١. ثلاثة كتب تُدعَى "ضد إفنوميوس *Eunomius* قائد جماعة الأنوميْنس *Anomaeans* الذين ينكرون أي شبه بين الآب والابن.

٢. مقال للشباب كيف ينتفعون بالأدب الهيليني.

الرجوع إلى أنيسي *Annesos* إلى حين

أدرك باسيليوس أن الكهنوت سوف يجُر عليه كثيرًا من المتاعب بدلاً من المكاسب. فلم يمضِ غير أسابيع حتى أخذ الأسقف يغار من كاهنه، لِما ناله سريعًا لدى الشعب من النجاح بسبب ذكائه وعلمه، وأحس المقرَّبون إلى الأسقف بما يمكنهم أن يستغلُّوه من هذا الموقف، فاجتهدوا أن يفسدوا بينه وبين كاهنه[٢].

اضطر القديس باسيليوس إلى الرجوع إلى *Annesos* لتحاشي أيَّة متاعب مع الأسقف.

إلحاح غريغوريوس في عودته إلى قيصرية

لم يبقَ القديس باسيليوس الكبير في أنيسي إلى مدة طويلة، ربما امتدت لمدة عام، إذ كتب إليه صديقه غريغوريوس ألا يترك كنيسة قيصرية، لأنها في خطر عظيم من الأريوسيين.

ألَحَّ القديس غريغوريوس على صديقه أن يعود، فقد شعر بالقلق الشديد، إذ عرف أن الإمبراطور الأريوسي فالنس أوشك على زيارة قيصرية في أكتوبر ٣٦٥م ومعه أعوانه من

---

[1] *Gregory Naz.: Letter 8 (N.&P.N. Frs, series 2, vol. 7, p. 448.*

[٢] چان - ماري رونّا: القديس باسيليوس الكبير، ترجمة الأب عقيقي اليسوعي، منشورات المعادي، ص ١٣-١٤.

الأساقفة الأريوسيين، وأدرك أن يوسابيوس أسقف قيصرية أنه سيواجه معركة خطيرة لن يستطيع الوقوف أمام ضغط الإمبراطور عليه.

يُسَجِّل لنا القديس غريغوريوس وصفًا لهذه المعركة جاء فيه:

[بينما نحن على هذا الحال، فجأة أدركنا صوت سحاب مملوء من البرد والهلاك، تسبَّب في هدم كل كنيسة اندفع نحوها وبلغ إليها، أقصد أن أقول إن الإمبراطور (فالنس) المُغرَم بالذهب والذي يُكِن عداوة شديدة للسيد المسيح، والذي يُعاني من هذيْن المرضيْن الشديدي الخطورة، أي محبة المال بنهمٍ والتجديف، قام بحملة عنيفة لاضطهاد المسيحيين. ليس كل المسيحيين، بل الجزء الأفضل منهم، المُتعبِّد للثالوث، أقول الأتقياء حقًا والمُتمسِّك بالعقيدة الواهبة الخلاص...

يجب أن ندرك أن قصده لم يكن الغزو البربري وهدم الأسوار والمدن والبيوت، وغير ذلك من الأشياء قليلة القيمة المصنوعة بالأيدي ويمكن إصلاحها، بل كان يقصد هلاك النفوس.

وكان يرافقه جيش ضخم من قادة الكنائس الأشرار، والحكام القساة الظالمين على أقسام إمبراطوريته المُتَّسِعة في العالم. وتمكّنوا من الاستيلاء على بعض الكنائس، وتعرض بعضها الآخَر لهجومهم، ويسعون لضم غيرهم إليهم بواسطة مساعدة الإمبراطور عن طريق فرض سلطته عليها أو بتهديدهم بعنفه. أخذتهم الجرأة وهاجمونا بسبب ما حدث لنا وأشرت إليه سابقًا[١]. وبسبب آخَر أيضًا وهو عدم خبرة مطراننا، وبجانب الضعفات التي تغلبت علينا. فالمعركة الآن تشتعل، وحماس قواتنا يشتد، ولكن ينقصهم حسن التنظيم، ويحتاجون إلى قائد ماهر وقادر على أن يحارب بالكلمة والروح[٢]].

أسرع غريغوريوس بالذهاب إلى قيصرية، والتقى بالأسقف يوسابيوس، فشعر بارتباكه بسبب ترقُّبه لزيارة الإمبراطور. كتب غريغوريوس لصديقه باسيليوس بعد أن شعر برغبة الأسقف في عودة باسيليوس. أسرع غريغوريوس بالكتابة إلى باسيليوس أن يقوم هو أيضًا بالمبادرة، ويكتب للأسقف أو ينتظر حتى يأتيه غريغوريوس ويعودا معًا إلى قيصرية.

فمن جهة موقف الأسقف كتب غريغوريوس: "لقد لان بمرور الزمن، لقد لان الحديد في النار". أمَّا عن رجوعه فقال: [لترجع، فإن الحاجة إليك مُلِحَّة. كل الهراطقة يعملون. البعض سبَّب قلاقل للمؤمنين خلال مجادلاتهم، وآخرون سيصلون سريعًا. الحق في خطر... إن كنت

---

[١] يقصد الإشارة إلى الخلاف الواقع بين باسيليوس والأسقف يوسابيوس.

[2] *Gregory Naz.: Oration 43 On St. Basil, 30-31.*

تظن أنه من الأفضل لي أن أجيء إليك، وأبقى معك إلى برهة صغيرة ثم أعود معك فإنني لن أتردد في ذلك[1]].

لم يستطِع باسيليوس مقاومة هذا الطلب، فرجع إلى قيصرية سنة ٣٦٦م، وأقام صداقة مع الأسقف.

تَعَلَّم كلاهما الحكمة من الماضي، فمن ناحيته التزم باسيليوس بتعليم الشعب دون التعرُّض لرئاسته الدينية، بينما قَنَع يوسابيوس برئاسته الرسمية وكرامته، فكان هو الذي يحكم بينما كان باسيليوس في الواقع هو الحاكم. وهكذا استمر الاثنان في انسجام وتوافق حتى نياحة يوسابيوس سنة ٣٧٠م.

خلال هذه السنوات الخمس كان الأسقف يشعر بالراحة معه، وصارت أغلب شئون الإيبارشية تحت إدارته. كان دوره أشبه بمُمَثِّلٍ عامٍ أو وكيل عام للإيبارشية[2].

يرى *Hanarham* أنه بعودة باسيليوس إلى قيصرية وخدمته في توافق مع الأسقف طوال الخمس سنوات الأخيرة من حياة الأسقف انتهت فترة خلوته الديرية.

مع اهتمامه بالجانب الرعوي وإدارته الفعلية لشئون الإيبارشية مع خضوعه وصداقته القوية للأسقف، لم ينسحب قلبه وفكره عن الحياة الرهبانية الداخلية. كان دائم التفكير والتأمل في سمات النسك المسيحي الإنجيلي.

رحلته عام ٣٥٨/٣٥٧م إلى الأديرة والتقائه مع كثير من قادة الحياة الرهبانية تركت بصمات روحية في فكره وفي قلبه وفي حياته أينما وُجِدَ. لقد أُثيرت أسئلة كثيرة في ذهنه حول مفاهيم الحياة النسكية المسيحية الإنجيلية. كما حفظت ذاكرته حواراته مع أسرته التي عاشت بفكرٍ نسكي سواء في قيصرية قبل أو بعد انسحابهم إلى الحياة الديرية، وأيضًا حواراته مع صديقه غريغوريوس شفاهة أو خلال الرسائل، وأسئلة الكثيرين له سواء الذين رافقوه أو تتلمذوا على يديه في أنيسي أو في قيصرية... كل هذا دفعه إلى مراجعته لما سبق فكتبه في أثناء خلوته: "القانون الكبير، والقانون الصغير"، نتحدث عنهما بمشيئة الله في الفصل الخاص بـ "الرهبنة والنسك في فكر القديس باسيليوس الكبير".

---

[1] *Greg. Naz.: Epistle 19.*

[2] *Adrian Fortescue: The Greek Fathers, San Francisco, 2007, p. 59.*

عمله الرعوي ككاهن

تكشف رسائله في الفترة التالية من سيامته كاهنًا عن عمله الرعوي من جوانب متعددة. لقد اهتم بتقديم كل خدمةٍ مُمكنةٍ، وتشغيل الطاقات لحساب نمو شعبه وتَقَدُّمه في كل جوانب الحياة، نذكر على سبيل المثال الآتي:

١. في رسالة موجهة إلى صديق له لم يذكر اسمه، كتب لكي يُشَجِّعه على العطاء بسخاء مع كثيرين خلال العمل مع الفيلسوف ليونتس:

[أكتب إليك بخصوص كثيرين ينتمون إليَّ، والآن أكتب بخصوص أشخاص آخرين.

الفقراء لا ينقطعون، وأنا لا أستطيع أن أقول: "لا" لأحد.

ليس أحد مُلتصق بي، ويجعلني أكثر لُطفًا أيًا كانت قدرته، مثل الأخ المُكَرَّم ليونتس *Leontius*. لتحسب بيته كمَنْ وجدتني فيه، ليس في الفقر الذي أنا أعيشه بعون الله، بل وُهِبَت له ثروة وممتلكات.

ليس من شك أنك لم ترد أن تجعلني فقيرًا، إنما تهتم بما لديّ، بل وتضيف إلى ممتلكاتي هذا هو الطريق الذي أسألك أن تسلكه في بيت ليونتس.

إنك ستنال مني المكافأة المعتادة: صلواتي لله القدوس من جهة متاعبك التي تحتملها لتظهر أنك إنسان صالح ومخلص، وتُقَدِّم ما يطلبه المحتاجون[١].]

٢. كتب رسالة إلى أركاديوس *Arcadius* أمين الخزانة الملوكية توصية لمواطنين من قيصرية، فيها يشكره على سخائه عليهم، طالبًا منه المزيد لهم. تكشف رسالته عن اهتمامه برعيته، وفي نفس الوقت حرصه على رقته في التعامل وكسبه العجيب للأصدقاء:

❖ يمنحني مواطنو مدينتنا معروفًا عظيمًا أكثر مما ينالونه، إذ أعطوني فرصة أن أكتب إلى فخامتكم، الحنو الذي ينالونه بهذه الرسالة حتى تأكد لهم قبل أن أكتبها، وذلك بسبب لطفكم مع الجميع الطبيعي والمستمر.

أحسب ذلك فرصة عظيمة نافعة أن أكتب إلى فخامتكم، طالبًا من الله القدوس أن أستمر في فرحي، وأشارك الذين يتمتعون بسخائك سرورهم، بينما أنت تسر الله أكثر فأكثر، وتستمر سموّ مكانتكم العالية في النمو[٢].

---

[1] *Letter 35 (without address).*
[2] *Letter 15 to Arcadius, Imperial Treasurer.*

٣. يوصي مُعلِّمه ليبانيوس الذي تتلمذ على يديه في القسطنطينية، وأرسل إليه مجموعة من التلاميذ الكبادوك.

تكشف هذه التوصية عن مفهومه للقيادة، فهو ككاهن، بحكمةٍ يستخدم كل الطاقات - ما أمكن - لبنيان أبنائه. ومن جانب آخر يرفع من شأن أولاده، ويسندهم في رفع معنوياتهم. فمع تقديره العجيب لمُعَلِّمه ليبانيوس، يكشف عن تقديره أيضًا لابنه الروحي الذي يوصي ليبانيوس به، مع أنه غلام صغير السن!

❖ حقًا إني أخجل من نفسي أن أرسل إليك من الكبادوك واحدًا فواحدًا. فإنني أُفَضِّل أن أحث كل شبابنا أن يُكَرِّسوا أنفسهم بالرسائل والتعليم وأن ينتفعوا من تعليمك وتدريبهم. لكن ليس عمليًا أن أُقَدِّمهم دفعة واحدة، إذ هم الذين يختارون ما يناسبهم. لهذا أُرسِل إليك من وقتٍ إلى آخَر الذين يفوزون، أفعل هذا وأنا متأكِّد إني أُقَدِّم لهم عطية عظيمة كتلك التي تُقَدَّم للعطشى من الينبوع.

الغلام الذي أرسله إليك الآن، سيكون له تقديره العظيم (لديك)، وذلك من أجل شخصيته حين يكون وسط جماعتك. إنه معروف الآن من أجل والده، وقد نال (الوالد) اسمًا في وسطنا **من أجل استقامة حياته**، كما من أجل سُلطانه في مجتمعنا. بجانب هذا، فهو صديق حميم لي. إذ اهتم به بسبب صداقته لي، تشاورت مع ابنه عمّا يتمتّع به بتقديمه لك[1].

القديس باسيليوس الكبير

تحوي رسائل القديس باسيليوس رسالة أخرى بعث بها إلى ليبانيوس مع شاب آخَر، تكشف عن اعتبار القديس له وأبوّته لشعبه، وعمله الدائم في وسط شعبه لكي يرتبط الكل معًا بروح الإخوّة الصادقة.

❖ قادم إليك كبادوكي آخَر ومعه هذه الرسالة، بالحقيقة هو ابن لي، فإنني في موقعي هذا أحسب الكل أبناء قمت بتبنّيهم، وهذا يتضمن حتمًا أنه هو أخ لذاك الذي جاء إليك قبلاً. فأنا أب وأنت مُعلم، كُن مُعينًا له كما قُمت بمساعدة أخيه.

إني متأكِّد أن كل من أرسله إليك بصعوبة يتوقّع أنك ستعامله مُعاملة خاصة. لا أتسرّع فأضيف شيئًا، فإنك لست تريد أن تفعل أكثر ممّا فعلته مع الصديق القديم، لأنك بالفعل تساعد كل أحدٍ بسخاءٍ.

---

[1] *Letter 335 to Libanius.*

كل ما أسألك إياه أن تَقْبَلَ هذا الشاب ليكون من بين أصدقائك دون الدخول في امتحانٍ طويلٍ.

عندما ترده إلينا يُوجَد أهلاً لصلواتنا ومُستحقًّا لشهرتك في الفصاحة.

أودّ أن أُشير أنه سيأخذ صديقًا غيورًا مثله للتمتُّع بالدراسات الأدبية. هذا الشاب ينتمي إلى عائلة مشهورة تمُت بصلة قرابة لي. وإني مُتأكِّد أنك ستتعامل معه كما مع الآخرين، بالرغم أنه ليس في نفس مستوى الغِنَى الذي لهم[1].

القديس باسيليوس الكبير

كان ليبانيوس يعتز بهذه الرسالة، وكان يُظهرها لأصدقائه، ربما ليس لأنه يمدحه كمُعَلِّمٍ قديرٍ في الفصاحة، إنّما لأنه يعترف بأنه لا يُمَيِّز بين شاب غني وآخَر فقير، ولا يشغله المال بل أن يكون الشاب مُحبًّا للمعرفة، وجادًا في دراسته.

بعث ليبانيوس إلى باسيليوس رسالة أوضح فيها محبته له، واعتزازه برسائله، طالبًا المزيد من الرسائل، حاسبًا كل رسائله تصله منه هي مكسب له. جاء فيها: [إنك محق جدًا في تفكيرك، فإن خدماتي لا تُقَاس بالمال. يكفي لذاك الذي ليس معه (مال) أن يرغب في الأخذ (المعرفة). متى شعرت أن إنسانًا ما فقير ومُحب للتعلُّم، تكون له أولوية عن الغني... ليته لا يتردّد أحد أن يأتي إليَّ لأنه فقير، ما دامت له الكفاءة لمعرفة كيف يعمل[2]].

٤. سيامته كاهنًا سنة ٣٦٤م واهتمامه بشعبه لم يعقه عن الاستمرار في اهتمامه برهبانه، ففي ذات السنة أرسل خطابًا يُسَجِّل فيه بكل وضوح الالتزام بالسلوك في طريق الحياة النُّسكية بفكر إنجيلي جاء فيه:

[يليق بالمسيحي أن يُفكِّر هكذا في دعوته السماوية، وأن تكون حياته لائقة بإنجيل المسيح (فليمون). يليق بالمسيحي ألاّ يكون بفكرٍ مزدوجٍ (لو ١٢: ٢٩)، ولا يكون مُنشغلاً عن تذكُّر الله وأهدافه وأحكامه.

يليق بالمسيحي أن يكون ساميًا في البرِّ عن أن يكون تحت الناموس، ولا يحلف ولا يكذب (مت ٥: ٢٠). يليق به ألاّ ينطق بشرٍّ (تث ٥: ١١)، ولا يكون عنيفًا (١ تي ٢: ٨) ولا يخاصم (٢ تي ٢: ٢٤)، ولا ينتقم لنفسه (رو ١٢: ١٩)، ولا يرد الشر بالشر (رو ١٢: ١٧)، ولا يغضب (مت ٥: ٢٢).

يليق بالمسيحي أن يكون صبورًا، يحتمل كل شيء...

---

[1] *Letter 337 to Libanius.*
[2] *Letter 338 Libanius to Basil.*

يليق بالمسيحي ألاَّ يقول شيئًا وراء ظهر أخيه بقصد تشويه سمعته. فإن هذا افتراء، حتى وإن كان ما يقوله حقيقي.

يليق به أن يهرب من الأخ الذي ينطق بالشر عليه. يليق به **ألاَّ يشترك في المزاح، كما يليق به ألاَّ يضحك حتى مع الذين يمزحون.**

يلزمه ألاَّ ينطق بكلمة بطَّالة، فيتكلّم بأمر غير نافع لِمَنْ يسمعونه، إلاَّ ما هو ضروري ويسمح به الله لنا، حتى يبذل العاملون كل جهدهم ما استطاعوا ليكونوا صامتين...

يليق بالمسيحي ألاَّ يُستعبَد للخمر (١ بط ٤: ٣)، ولا يشتهي أكل اللحم، وبصورة عامة يلزمه ألاَّ يكون مُحبًّا للملذَّات في الأكل والشرب (٢ تي ٣: ٤)...

يليق بالمسيحي ألاَّ يتذمَّر بسبب ندرة الضروريات أو التعب.

يليق بالمسيحي ألاَّ يطلب الكرامة أو يحتلّ مركز الصدارة. يليق بكل أحدٍ أن يضع الآخرين أمامه (في ٢: ٣).

يليق بالمسيحي ألاَّ يكون عنيدًا (تي ١: ١٠). **مَنْ كان قادرًا على العمل يليق به ألاّ يأكل خُبز الكسل** (٢ تس ٣: ١٠).

يليق بالمسيحي ألاَّ يتنقَّل من عملٍ إلي آخَر بدون موافقة الذين يُدَبِّرون أموره...

يليق بالمسيحي ألاَّ يُفسِد سمعة آخَر، ولا يضحك على أخطاء أحد، بل في محبة المسيح أن يحزن ويئن على أخطاء أخيه، ويُسَرّ بأعمال أخيه الصالحة.

يلزمه ألاَّ يكون مُهملاً أو صامتًا أمام الخُطاة.

ذاك الذي يُظهِر الآخَر أنه مُخطئ، يفعل هذا بكل حنوٍّ في مخافة الله ويقصد ردّ الخاطي...

يلزم ألاَّ يحمل أحد ضغينة على خاطئ يتوب، بل بكل قلبه يُغفر له.

من يقول إنه تائب عن خطية، يلزم أن يوخزه الندم على خطيته، وأيضًا أن تكون له ثمار تليق بالتوبة[1]].

عودة إلى الوحدة

أدرك باسيليوس مناوراتهم، فأحبط مساعيهم كلها بمغادرته قيْصريَّة وعودته إلى منْسكِه، يصحبه صديقه غريغوريوس، وهناك أمضى الصديقان ثلاث سنوات في الوحدة، عكفا خلالها على الكتابة ضد الإمبراطور يوليانوس الذي ارتدَّ عن المسيحيَّة. وكان أحبّ ما لديه أن يقضي

[1] *Letter 22 On the Perfection of the Life of Solitaries.*

بقيَّة حياته في تلك الخلوة المباركة، مُنصرفًا إلى إرشاد رهبانه ودراسة الكتاب، إلاَّ أن صديقه غريغوريوس تدخَّل في أمره وانتزعه من عزلته.

لمّا ارتقى فالنس الأريوسي العرش الإمبراطوري، حاول بكل سُلطته أن ينشر هذا المُعتقد الفاسد. وفي هذه الأزمة طالب الشعب بعودة باسيليوس، فحاول يوسابيوس أن يستميل غريغوريوس ليكون بجانبه، ولكن هذا الأخير رفض العودة بدون صديقه باسيليوس، وكان ممَّا كتبه إلى يوسابيوس قوله: [أتكرمني بينما تُهينه؟ إن هذا يعني أنك تربُت عليَّ بيدٍ، وتلطمني بالأخرى. صدقني، إن عاملته كما يستحق فسيكون لك فخرٌ. وأنا سأتبعه كما يتّبع الظلّ الجسم].

أخيرًا، بفضل مجهودات غريغوريوس أيضًا، تم التوفيق بينهما. إذ كتب غريغوريوس إلى باسيليوس رسالة وجيزة يقول فيها: [عجِّل بالرجوع إلى قيْصريَّة لِمَا يبديه نحوك الأسقف من عواطف نبيلة، ومن أجل الظروف في الإيبارشيَّة التي تُلزمك بذلك، فإن أعداء الدين يعملون، فمنهم من يجتهدون لكي يُسمِّموا الأفكار، ويزرعوا بذور الانقسام، وغيرهم في الطريق قادمون لينضمُّوا إليهم ويشدُّوا أزْرهم، فالحقيقة في خطر].

حاجة يوسابيوس إليه

عاد باسيليوس حالاً إلى قيْصريَّة، وأفهم أسقفه أنه لم يخطر بباله قط أن ينافسه، وإنَّما كان كل همُّه أن يكون في خدمته، فاطمأن الأسقف إليه وقدَّره حق قدرِه. وانقطع باسيليوس منذ ذاك عن الدرس لينصرف إلى الجهاد. وإننا لا نعجب إن كان يوسابيوس القيصري قد شُغِف بالاستفادة من القدِّيس باسيليوس وقدراته العظيمة وأعماله في إيبارشيَّته. وكما يقول القدِّيس غريغوريوس النزينزي: كان مُستشارًا صالحًا، ومُعينًا ماهرًا، ومُفَسِّرًا للكتاب المُقدَّس، وكان العكَّاز لشيخوخة يوسابيوس وسندًا له.

١. **اهتمامه بسلامة الإيمان:** عاد باسيليوس إلى قيْصريَّة على أهبَّة الاستعداد للتعاون بكل إخلاص مع يوسابيوس، مُستخدِمًا كل فصاحته وعلمه لإحباط هجمات الأريوسيين. وقد نظَّم المقاومة الأرثوذكسيَّة ضد الأنوميِّين (أتباع إفنوميوس) الذين كانوا جادِّين في نشر معتقدهم في كل أسيا الصغرى. وكرَّس جهوده في تقدُّم الإيبارشيَّة، مؤيِّدًا سُلطة يوسابيوس رئيس الأساقفة، مُعاملاً إيَّاه بما يليق بمركزه وسنّه من إكرام. وأثبت باسيليوس بذلك أنه - على حدِّ تعبير غريغوريوس - غدا عكَّاز شيخوخته، ودعامة الإيمان الأرثوذكسي، وأكثر أصدقائه وفاءً، وأكثر الخدَّام كفاءةً.

٢. **الاهتمام بالمرضى والمحتاجين:** لم تمنعه الاحتياجات اللاهوتيَّة وخدمة الكنيسة من تكريس جزء كبير من طاقته لأعمال الرحمة. فمن المحتمل أن المؤسّسة العظيمة التي أقامها في ضواحي قيْصريَّة لعلاج المرضى وإراحة المُسافرين والفقراء، قد وضع تصميمها بنفسه، إن لم يكن هو الذي أسَّسها في أواخر سنيّ قسّيسيَّته. وقد عُرِفَتْ هذه المؤسّسة أخيرًا بإسم "**باسيلياد**"، وكانت بمثابة الأم. وسرعان ما قامت مؤسّسات أخرى مُشابهة في المناطق القرويَّة للإقليم يُشرِف على كل منها خوري إبسكوبُس.

٣. **تصدِّيه للمجاعة:** من أبرز الحوادث في تلك الفترة، المجاعة الخطيرة التي حَلَّت سنة ٣٦٨م وامتدت سنة ٣٦٩م، فقد عانى الفقراء والمُعدَمون من أمرين:

الأول: أنه لم يكن مُمكنًا طلب العون من خارج الكبادوك، لأن المجاعة اجتاحت كل الأقاليم المحيطة.

والثاني: هو استغلال الأثرياء للموقف. روى القدِّيس غريغوريوس النزينزي: [كانت قيْصريَّة تُعاني من مجاعة هائلة، لم يُسمَعْ بمثلها من قبْل. فكان سُكَّان المدينة كلّهم مرضى لا تصل إليهم أيَّة معونة من أيَّة جهة من الجهات، ولم يبقَ في المدينة شيء يُبَاع أو يُمكن أن يُشترَى. وما هو أفظع القسوة والجشع عند من يملك شيئًا، فإنهم يتحيَّنون مثل هذه الفرص للاغتناء، فيتَّجرون بالبؤس، ويستغلّون الشقاء، وينسون: "إن مَنْ يرحم الفقير يُقرِض الله" أو "من يُمسك القوت عن الجائع يلعنه الشعب"].

يبدو أن الموقف كان صعبًا للغاية حتى لم تستطِع السُّلطات المدنية أن تقوم بعملٍ فعَّال لمعالجة الأزمة، ولا للكنيسة والهيئات الدينية والاجتماعية أن تتصرَّف. في وصفه للمجاعة قال:

[كثيرون لا يجدون ما يشربونه، وكانوا في خطر الهلاك من الظمأ. إنهم كانوا مثل الإسرائيليين، يطلبون موسى جديدًا معه عصا صانعة عجائب، حتى يضرب صخرة مرة أخرى لمُعالجة عطش الشعب، وسحابًا مُعجزيًّا يمطر طعامًا غير عادي، المنّ، يأكله البشر. لنحرص إذن ألاَّ نصير من الأجيال التي صارت موضع سُخرية جائعة كتأديب لها.

رأيت الحقول فبكيت بمرارة بسبب عقمها. سكبت مرثاتي حيث لم يسقط علينا مطر.

بعض البذور جفَّت دون أن تُنْبِتَ، دفنها المحراث تحت أكوام من الأرض الجافة. والباقي بعد بداية ظهور الجذر والإنبات جفَّت بواسطة الريح الحارة بطريقة تدعو للشفقة لِمَنْ يراها. هكذا، فإن البعض يقلب كلمات الإنجيل تمامًا، ويقولون: "الفَعلة كثيرون والحصاد شحيح". يجلس الفلاحون في الحقول يشبكون أياديهم برُكبهم. وهذا بالطبع علامة الذين هم في حزنٍ،

يبكون على جهودهم الضائعة. يتطلَّعون إلى أطفالهم الصغار، وينفجرون بالدموع، يرون زوجاتهم يولولن في حزنٍ، ويحتضنَّ المحاصيل الجافة، ويضربن كمن فقدن أطفالهن في زهرة صباهم[1]].

لم يكن ممكنًا للقديس باسيليوس أن يقف مُتفرِّجًا، إنما بذل كل الجهد في إيجابية، وطالب الكل بالتحرُّك. قَدَّم لنا **القديس غريغوريوس** صورة رائعة عن حُبِّ القديس باسيليوس الباذل خاصة في فترة المجاعة (سنة ٣٦٨/٣٦٩م).

١. **باع القديس كل ممتلكاته** ليشتري بها قمحًا؛ بذل بكل ما لديه بكل حُبٍّ، فتلألأ نجمه أمام الجميع.

٢. تَقَدَّم **بشراء كل المحاصيل المُمْكِنة** مهما كانت الأسعار، إذ وُجِدَ بعض الطمَّاعين المُستغلِّين للموقف.

٣. فتح أبواب **جمع التبرُّعات لحساب المُعدَمين**.

٤. **أنشأ هيئات تقوم بتنظيم توزيع المحاصيل**، مُحَوِّلاً كل الطاقات بقدر الإمكان لإنقاذ الشعب من الكارثة التي حَلَّت بهم.

٥. أقام مطعمًا عامًا يَقْبَل فيه المسيحيين واليهود وغير المؤمنين[2]، بهذا كشف عن أُبوَّته للجميع، الأغنياء والفقراء، المؤمنين وغير المؤمنين.

٦. لم يقف عند تنظيم الخدمة أو تقديم خدمة شخصية، بل ألقى عظاته المشهورة جدًّا، إذ كان يُشَجِّع الكل على العطاء[3]. لقد رأى بوضوح أن الكارثة سُمِحَ بها لكي يتجاوب معها المسيحيون على وجه الخصوص. إنها فرصة مُقَدَّمة لكي يحب المسيحيون الإخوة كأنفسهم. قَدَّم باسيليوس رسالة الإنجيل في هذه المناسبة للأغنياء كما للفقراء.

قَدَّم القديس باسيليوس عظاته "إلى الأغنياء". في رسالته ٣١، اعتذر القديس عن زيارة سبق أن وعد بها، لأن حضوره في المدينة كان ضروريًا وذلك "لتوزيع الطعام أو لإبراز التعاطف مع المتألِّمين"[4].

لا نعجب أن تطلَّع الكل إليه ليس كأعظم رَجُل كنسي وأب للمدينة، بل ومُنقِذ للشعب. لذلك عندما تنيّح الأسقف يوسابيوس القيصري جاء الكل من رجال كهنوتٍ وشعبٍ، بلسانٍ واحدٍ، يطلبون أن يخلفه باسيليوس[5].

---

[1] *In the Time of Famine and Drought, 2.*
[2] *Greg. Nyssa:In laudem Basilii; Greg. Naz.: Oratio 43:34-36*
[3] *Homilies 6-9.*
[4] *Letter 31.*
[5] *Adrian Fortescue: The Greek Fathers, San Francisco, 2007, p. 64.*

لقد طالب بروح الأبوّة الأغنياء بالعطاء بسخاء، والفقراء بمساعدة المُعدَمين، كما وصف القدّيس غريغوريوس ما قام به صديقه القدّيس باسيليوس، قائلاً: [جمع ضحايا المجاعة معًا... من رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ وشيوخٍ، المتألّمين من كل عمر. وجمع تبرعات، طعامًا من كل نوعٍ، كل ما يُمكن أن يؤكل. أتى بقدورٍ ضخمة مملوءة شوربة بسلة، ولحوم مملّحة، الطعام الذي كانت جماهير الفقراء تأكله. وتشبَّه بخدمة المسيح عندما اتَّزر بمنشفة وغسل أقدام التلاميذ بتواضع. عمل مع خدّامه مساويًا نفسه بهم. فكان يخدم أجسام الفقراء ونفوسهم. وإذ أعطى اهتمامًا متَّسمًا بالاحترام للراحة الجسدية ضاعف من المعونة التي قدَّمها لهم].

وإليك مقتطفات ممّا كان باسيليوس يقوله لأغنياء قيْصريَّة أيام المجاعة:

[بِمَ تُجيب الله، الديَّان العادل، أنت الذي تُلبِس جدران منزلك، ولا تكسو أخاك؟

وأنت الذي تُزَيِّن خيولك، ولا تلتفت إلى بؤس أخيك؟

وأنت الذي تدع السوس يقرض قمحك، وتبخل به على الجائعين، وأنت مكدِّس الذهب، ولا تنهض لمعونة المعوزين؟

تقول: إلى من أسأت في حبس مالي؟ فقلْ لي: ماذا يخُصّك؟

ممّن تسلّمتَ هذه الأموال جميعها، حتى تحتفظ بها لمنفعتك؟

ألست كمَنْ يتَّخذ مقعدًا في ملعبٍ، ثم يمنع غيره من الدخول إليه، كأن له وحده ما هو للجميع، هذا حال من يملكون شيئًا، ويحسبون أن لهم حقًّا في أن يستولوا على ما قبضوا عليه قبل غيرهم من الرزق العام. ولو كان كل واحدٍ يكتفي بالضروري، ويترك ما زاد عن حاجته للفقراء، لِمَا كان هناك فقير وغني.

ألم تخرج عريانًا من بطن أمك؟ ألست تعود بعد عُريانًا إلى التراب؟

أمّا أموالك هذه، فممَّن تملَّكتها؟ فإن قلت من الصدفة، كنت كافرًا لا مسيحيًا. وإن قلت: من الله ومن عنايته، ففسِّر لي سبب عطيَّته هذه. أتعُدَّه ظالمًا حين وزّع ضرورات الحياة توزيعًا غير متساوٍ؟

بأي حقٍّ تكون أنت موسرًا، وجارك مُعسرًا؟ أليس ذلك لكي تُجازى على طيبتك، وعلى إدارتك مالك طبقًا لمقاصد العناية، ولكي يجازى جارك على ما قاسى من الفاقة والألم في محنته؟

وأنت الذي تستأثر بأموالك بخلاً وطمعًا، أتظن أنك لا تضرّ أحدًا، بينما تمنع الضروري عن عددٍ عظيمٍ من إخوتك؟

منْ البخيل؟ هو مَنْ يعجز عن الرضا بالضروري.

ومَنْ اللّص؟ مَنْ يسلب مال الآخرين.

ألست بخيلاً، ولا لصًا، أنت الذي تحوّل لنفعك الخاص ما لم تتسلّمه إلاّ لتُحسِن إداراته؟

مَنْ سرق ثوبًا فهو لصّ، ومن لا يكسو عاريًا وهو قادر، أفلا يُدعَى لصًّا؟

إنّ ما تخزنه من الخبز، إنّما هو للجياع، وما تحرص عليه من ثوب، إنّما هو للبائسين، وما عندك من حذاء متروك ليُبلى، فهو لِمَنْ يسيرون حُفاة. وما تُخفيه من مالك في صندوقك، فهو لأخيك. إنك تظلم من الناس كل من كنت قادرًا أن تعطيهم[1]].

كان باسيليوس يذكّر الجميع بشريعة المحبّة، فإن كل إنسانٍ مُلتزِم بممارسته العطاء، حالما يصبح مالكًا، ولو قليلاً من الرزق. لذلك صار باسيليوس يوجّه كلامه إلى الجميع.

[هل تقول إنك فقير؟ يوجد من هو أفقر منك. ما زال عندك ما تعطيه لبائسٍ.

ليس عندك غير ما يكفيك مدة عشرة أيام، إن جارك ليس عنده إلاّ ما يكفي يومًا واحدًا.

كُن رحومًا وكريمًا وقاسم البائس ما عندك. لا تخفْ أن تُعطي القليل ممّا عندك، ولا تفكّر في مصلحتك الشخصيّة قبل التفكير في الخطر المُشترك.

إن بلغت حتى الرغيف الأخير، وطَرَق شحاذ بابك، فاخرج الرغيف من دولابك، وارفع يديك نحو السماء، وقل هذه الصلاة: "يارب ليس لي سوى هذا الرغيف الواحد، الذي تراه أمامك، والجوع يهدّدني. لكنني أُفضّل وصيّتك على شخصي، ومن القليل الذي بقيَ عندي، أعطي أخي الجائع. عليك الآن، ياربي، أن تُعطي عبدك الذي في خطرٍ ما هو في حاجة إليه".

هل تساعد خادمك الآن، هذا الذي هو في خطر.

أنا أعرف رحمتك، ولي إيمان بسُلطانك. لا تحرمني من معروفك لمدة طويلة، بل هبني إياه حسب مشيئتك".

فإن قلت هذا، يتحوّل الخبز الذي تعطيه في فقرك إلى محصولٍ ضخمٍ[2]].

كان باسيليوس في خلال فترة المجاعة مثال الخادم الذي يضع نفسه من أجل مخدوميه. فلم يكتفِ بحَثّ الأغنياء والتجّار الجشعين على الرحمة، وإنّما باع ممتلكاته التي آلت إليه مؤخّرًا بعد انتقال أمّه، ووزّعها على المحتاجين، وخدم بنفسه احتياجات المتألّمين. وكان الخدم يُحضِرون إليه أكوامًا من الأطعمة وهو يوزّعها بيديه، بينما كان يُعَزّي بكلماته المُتضايقين، ويشجّع المتألّمين.

---

[1] چان ـ ماري روتّا: القديس باسيليوس الكبير، ترجمة الأب عقيقي اليسوعي، منشورات المعادي، ص ٢١.١٩.

[2] *In Famen, 68 E.*

ذاع صيت الكاهن باسيليوس في كل الأصقاع، فاتخذه الجميع مُرشِدًا ومشيرًا، وأصبحت السلطات العموميَّة نفسها مضطرة أن تقيم وزنًا لهذا الكاهن الذي استطاع وحده أن يصدَّ نكبة عامة عن البلاد، ويسدّ موقع الحكومة عند عجزها، فصار رأس الأسقفيَّة بلا منازع، وأسند إليه يوسابيوس الأسقف الشيخ جميع شؤونه، قانعًا بأن يحتفظ لنفسه بما لدرجته من الامتيازات للغير[١].

يظهر اهتمام القدِّيس بضحايا المجاعة أنه في بداية عام ٣٦٩م أرسل إلى يوسابيوس أسقف ساموساطا يعتذر عن عجزه عن القيام بزيارةٍ وعده بها، وفي نفس الوقت أظهر اهتمامه بالعمل الروحي.

جاء في رسالته له: [لا زالت المجاعة تحلُّ بنا، لذلك أجد نفسي مُلزَمًا أن أبقى في موقعي، من جانب لأجل الالتزام بالتوزيع، والجانب الآخر لأجل مشاركة المنكوبين. فالآن لا أستطيع أن أصطحب أخانا المكرم هيباتوس *Hypatius*[٢]].

القدِّيس باسيليوس رجل الإصلاح الوطني والكنسي

كشفت كتابات القدِّيس باسيليوس، خاصة رسائله وعظاته عن شخصيَّته كرَجُل إصلاح وطني كنسي.

أولاً: أقام القدِّيس باسيليوس **مستشفى للمرضى وضحايا الوباء، كما أقام ملاجئ للفقراء،** وأماكن لاستقبال المسافرين والغرباء، وسرعان ما اكتسب حب شعبه بسرعةٍ فائقةٍ، لكن واجهته مصاعب كثيرة.

ثانيًا: كان مُحبًّا لوطنه، كبادوكيَّة أو بنتس، **يبذل كل الجهد لإصلاح الوطن،** في وقت كانت الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، خاصة في أيام قنسطنطس وفالنس لا تبالي إلاَّ بمصلحتها الخاصة على حساب الشعب الشرقي، فكان الحكام في الشرق سيئون للغاية، ممَّا خلق طبقة غنيَّة جدًّا تعيش في رغدٍ زائدٍ في أنانيَّة على حساب الشعب.

كانت الحركات الرهبانيَّة تشعر بالتزام مسيحي نحو الشعب الذي يُعاني من متاعب اجتماعيَّة.

ثالثًا: كان لفساد المجتمع انعكاساته في بعض المناطق، فتفشَّت السيمونيَّة، أي سيامة الكهنة مُقابِل دفع مبالغ معيَّنة، وقد **تصدَّى القدِّيس باسيليوس لهذا الفساد** (أي السيمونيَّة).

---

[١] جان - ماري رونّا: القديس باسيليوس الكبير، ترجمة الأب عقيقي اليسوعي، منشورات المعادي، ص ٢٢.

[2] *Letter 31 to Eusebius of Somasata.*

كتب القدِّيس باسيليوس عمله *Moralia* بغية تثقيف رجال الكهنوت. هذا دفعه أيضًا مع محبَّته لحياة الخلوة والتأمُّل إلى الانسحاب من عزلته للجهاد من أجل الإصلاح الكنسي. قام بمجهود جبَّار فَعَّال عبَّر عنه *Morison* بقوله: [وَهبت ماكرينا نفعًا ثابتًا لأخيها، وهو بدوره أراد أن تنتفع الكنيسة الشاملة بخبرته[١]]. يقول **الأب جوزف صغيبي المخلصي**: [من خلال وَعْظِه وسماع صوته، يقول **الأب فاسون**، قَبِل الوثنيُّون الإيمان، وازداد المسيحيُّون حرارة وتقوى. تصالح الأعداء، وأصبح الأسياد يُحبُّون عبيدهم، ويعطفون عليهم، فعمَّ الفرح والسلام في كل البيوت والمدن[٢]].

رابعًا: وساطته للمظلومين والمحتاجين، دون مداهنة أصحاب السُّلطة. فالوساطة كما نعرفها اليوم هي في أكثر الأحيان لجعل الأمور في غير مكانها المناسب، ويحظى بها بعض الذين يتقرَّبون من أهل السلطان وجماعتهم. أما عند القدِّيس باسيليوس فهيَ في جميع الأحيان من أجل إحقاق الحق، وإقامة العدل، ونصرة البائس والمظلوم، ويُقَدِّمها القديس باسيليوس من أجل الجميع. وبالرغم من مرضه وآلامه، يكتب لأتباتر الحاكم أن يؤجِّل حتى يحضر شخصيًا البت بأمر بيت نسيبته بالاديا التي يعتبرها أُمًّا ثانية له. يطلب التأجيل [ليس من أجل إفساد العدالة فإني أُفَضِّل الموت ألف مرّة من أن أطلب هذا الأمر من قاضٍ صديق للشرائع والقوانين، بل حتى تسمع منّي شخصيًا ووجهًا لوجه ما لم أستطِع التعبير عنه كتابة[٣]].

ومن أجل يوسابيوس ضحيَّة الوشاية الكاذبة، يكتب للقاضي صفرونيوس [يليق بك وباستقامتك أن تُبَدِّد الوشاية، كما نرجوك أن تنصر العدالة... وتؤيِّد هذا الإنسان وتدافع عنه وعن الحقيقة[٤]].

ومن أجل الفقراء وخدمتهم، يكتب للمحاسب أن يساعدهم ويصرف لهم من أموال الدولة[٥]. ويُذَكِّر المسؤولين بوعودهم للأرملة جوليت كي ينصفوها[٦]، وينصفوا مثيلتها وابنها اليتيم[٧]. كما يكتب للوالي موديستوس من أجل قرويّي جبال طوروس كي يُخَفِّف عنهم ضريبة الحديد الذي كانوا ينتجونه[٨].

---

[1] *E.F. Morison: St. Basil and Rule, Oxford University Press, 1912, p. 8.*

[٢] الأب إلياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٣٨.

[3] *Epistle 137:2.*

[4] *Epistle 177:2.*

[5] *Epistle 142, 143.*

[6] *Epistle 107:2.*

[7] *Epistle 109:2.*

[8] *Epistle 110:2.*

وهو إذ يكتب للوسيطين لا يداهنهم ولا يقول فيهم ما ليسوا أهلاً له. إنما يحاول أن يشير إلى فضائلهم، ويثير عندهم الغيرة على عمل الحق. فلأنتباتر الحاكم يقول: [أكتب لنتمتَّع باستقامتك... أنت صديق القوانين... الذي لا يبتعد عن الحق[1]].

كما يكتب بكل رصانة إلى قائد الجيش فيكتور: [أنت تتصرَّف لا لتُرضي الناس، بل لتُرضي الله الذي كرّمك[2]].

مُعالجته للكوارث[3]

في عام ٣٦٨م عانت قيصرية من مجموعة من الكوارث؛ بدأت بعواصف من البرَد، ثم فيضانات، فزلازل. في بداية الصيف كتب باسيليوس: [الفيضانات تفوق الحد، لا يستطيع لسان أن يصفها أو عين أن تراها. انقطعت مصادر الطعام، لم تعد توجد اتصالات مع الأقاليم المجاورة، ويُعاني الشعب من الحرمان من الخبز]. بعث باسيليوس رسائل عاجلة يُطالِب بإقامة كوبري على نهر *Halys* بصورة عاجلة.

يبدو أن باسيليوس يرى مجاعة لأول مرة في حياته، لذا سَجَّل لنا مشاعره نحوها في مرارة:

[الجوع هو أشد الشرور الجديرة بالشفقة، أشر المآسي، أرعب أنواع الموت.

فالسيف يدفع بالموت فورًا، والنار الملتهبة تضع نهاية للحياة سريعًا، وأنياب الوحوش المُفترسة تنهي مآسي البشر في الحال، أمَّا الجوع فيمتد لمدة طويلة. إنه عقوبة بطيئة، واستشهاد لا ينتهي. إنه كمرضٍ يزحف، مع موتٍ قريب الحدوث، لكنه دائمًا يتأخَّر.

إنه يستنزف رطوبة الجسم، ويجعل الجسم يرتجف فاقدًا الحرارة؛ يستهلك الجسم تدريجيًا، ويُنهِك القوى. يفقد الجسم لونه تمامًا، ويلتصق بالعظم مثل نسيج العنكبوت. وإذ ينقص الدم، ويفقد الجلد بريقه، ويجف ويصير أسود، ويصير الجسم الأزرق المسكين شاحبًا مع لون السناج (سخام). لا تعود الركبتان تحملان الجسم، إنما تتحركان فقط عندما تُلزَمان بذلك. يخفت الصوت تدريجيًا. تدخل العينان في وقبيهما الفارغين، مثل بندقتيْن في غلافيْن جافيْن. تنكمش المعدة الفارغة، وتفقد شكلها، وتتقلّص مُلتصقة بالعمود الفقري[4]].

---

[1] *Epistle 137:2.*

[2] *Epistle 152:2.*

[3] *Robert Payne: The Holy Fire, St Vladimir's Seminary Press, N.Y., 1980, p. 123 ff*

[4] *In Famen, 69 C.*

قام باسيليوس ببيع ما ورثه من ممتلكات، ووزّع أمواله على الجائعين. وطالب حتى الفقراء أن يقرضوا الرب مهما بلغ فقرهم.

رئيس أساقفة قيْصريَّة

مات يوسابيوس رئيس أساقفة قيْصريَّة في عام ٣٧٠م، بعد أشهُر من زوال المجاعة، بين ذراعي من كان يحسبه منافسًا، فصار أعز أحبَّائه. أصبح الكرسي خاليًا اصطلاحًا، لأن الشخصيَّة التي شغلته من الناحية الرعويَّة، كانت مازالت على قيد الحياة. وكان واضحًا أن نصرة الأرثوذكسيَّة في كل أسيا الصغرى هى في أن يشغل باسيليوس هذا المنصب. لكن نشأت مشكلة عظيمة بين المسيحيِّين، وكانت الصعوبة بسبب أهميَّة كنيسة قيْصريَّة، لأن أسقفها كان يُشرِف علي خمسين أسقفًا آخَر، ولذلك كان مركزه خطيرًا في الإقليم كله. وممّا جعل اختيار خلف ليوسابيوس مشكلة دقيقة، جلوس الإمبراطور فالنس على العرش، وهو عدو الكنيسة الأرثوذكسيَّة اللدود.

لكن أي طريق كان لباسيليوس أن يسلكه؟ هل ينسحب في هدوء، أو يرشّح آخَر دونه، وفي ذلك ما فيه من أضرار بقضيَّة الإيمان؟ وإذ أراد أن يتخلَّص من هذا المأزق.

تطلّع باسيليوس إلى أن الرَّجُل المُناسب لسيامته رئيس أساقفة قيصرية كخلف ليوسابيوس هو صديقه غريغوريوس النزينزي. أرسل إلى صديقه غريغوريوس يلِحّ عليه في الحضور بحجَّة اعتلال صحَّته، وإن كان قصده في الحقيقة ترشيحه لذلك المنصب. سَجَّل في رسالته أنه محتاج إلى سرعة حضوره، تجاوب غريغوريوس لطلبه. وأسرع قاصدًا قيْصريَّة ليكون إلى جواره، ولكنه شعر أن هناك شيئًا غامضًا في الموضوع، وأن المسألة ليست مسألة مرض باسيليوس.

كتب باسيليوس إلى غريغوريوس وهو في الطريق ما يجرى من الحوادث في قيْصريَّة، فقطع رحلته وعاد ثانية إلى نزيانزا، بعد أن وجَّه إلى باسيليوس رسالة عتاب. لقد أحجم غريغوريوس عن مساعدة صديقة باسيليوس في هذه المعركة الطاحنة[1]، فهو رجل لطيف المشاعر حسَّاس الضمير، يخاف من المعارك.

قام غريغوريوس الأسقف (والد غريغوريوس النزينزي)، وكان شيخًا وقورًا، بدورٍ هامٍ في هذا الموضوع. فقد أملى على ابنه غريغوريوس خطابًا إلى الكهنة والرهبان والحكام والشعب في قيْصريَّة يدعوهم إلى اختيار باسيليوس. كما أرسل خطابًا آخَر إلى الأساقفة الذين لهم حق الانتخاب يحثُّهم فيه ألاَّ يجعلوا ضعف باسيليوس الصحِّي حائلاً دون انتفاع الكنيسة بمواهبه

---

[1] *Gregory Naz., Letter 40.*

وتفوُّقه الملحوظ في الروحيَّات والعلوم الكنسيَّة. وكان أكثر الأساقفة نفوذًا هو يوسابيوس أسقف ساموساطا، فكتب إليه غريغوريوس العجوز مُقنِعًا إيَّاه بضرورة زيارة قيْصريَّة، وأن يأخذ على عاتقه توجيه الرأي العام لهذه المهمة.

بالرغم من كبر سنه ذهب إلى قيصرية ليقوم بهذا الدور، إذ لم يكن لديه شكٌ أن القديس باسيليوس هو الرَّجُل المُناسب لهذا المركز. تمّت السيامة في سبتمبر سنة ٣٧٠م.

وكانت قيْصريَّة مُنقسمة إلى معسكرين: كان جميع الناس الأخيار مع الكهنة والرهبان يؤيِّدون انتخاب باسيليوس بحماسٍ كبيرٍ. أمَّا معارضوه فكانوا يتألَّفون من الأساقفة الأريوسيين، وبعض ذوي الغنى والمراكز ممن كانوا يُعِيبون عليه إنكاره لذاته وزهده، وبعض الأشرار والفجَّار لمقاومته لهم وتوبيخه إيَّاهم. أمَّا بالنسبة إلى شعب قيْصريَّة، فقد كان باسيليوس الرجل الروحاني ذا المقدرة العظيمة الذي يستطيع صد تيَّار الهرطقات. وقد استطاع يوسابيوس بنفوذه أن يتغلَّب على كل الصعاب.

انتهى الموضوع بوصول الشيخ الوقور غريغوريوس، الذي حالما علم باحتياج باسيليوس إلى صوتٍ واحدٍ ليحصل على النصاب القانوني لانتخابه، غادر فراش مرضه محمولاً على نقَّالة إلى قيْصريَّة مُخاطِرًا بحياته، واشترك في سيامة باسيليوس، وكان ذلك سنة ٣٧٠م.

فرح جميع الناس لرسامة باسيليوس رئيس أساقفة قيصرية من مسيحيِّين ووثنيِّين، لأن جميعهم لم ينسوا ما صنعه في مدينتهم أيام المجاعة. كما كان لسيامته رنَّة فرح في كل العالم الأرثوذكسي، حتى أن البابا أثناسيوس الرسولي (تنيح سنة ٣٧٣م) بطل الإيمان بعث من الإسكندريَّة رسالة حارة مهنئًا كبادوكيَّة بهذا التوفيق. تهللت نفس بطل الإيمان أثناسيوس حين رأى ثمرة حياته ظهرت في فرقة من الشباب البواسل، ربما كان باسيليوس زعيمها[1].

غير أن معارضة زملائه المُقاوِمين للحق لم تهدأ سريعًا، ولزم باسيليوس سنوات طويلة من الجهد حتى تمكَّن من مسالمتهم جميعًا. أما في القسطنطينيَّة، فقد قوبلت رسامته بمشاعر مختلفة، إذ شعر الإمبراطور فالنس أنها صدمة خطيرة له وللأريوسيَّة، لأن باسيليوس لم يكن خصمًا يُستهَان به. فهو، فضلاً عن قوَّة شخصيَّته، كان نفوذه كرئيس أساقفة قيْصريَّة يمتد إلى ما وراء حدود المدينة ذاتها. فكان رئيسًا على أساقفة كبادوكيَّة كلها، وله نفوذ في بلاط بنتس وفي أكثر من نصف أسيا الصغرى، وكانت تنطوي تحت لوائه نحو إحدى عشرة مقاطعة، وكانت أنقرة وقيْصريَّة الجديدة وتيانا وأسقفيَّات أخرى تعتبره الرئيس الكنسي لها.

---

[1] *Adrian Fortescue: The Greek Fathers, San Francisco, 2007, p. 62.*

كان الصراع عنيفًا، فقد شاع يومًا في البلاد أنه قد مات، فصدَق الشعب الإشاعة لما يعرفونه عن هزاله وأمراضه، فتسارع الأساقفة بحضور مأتمه، وبعضهم فرحوا بالتخلُّص من مضايقاته[١].

اهتمامه بنمو شعبه والرهبان النسّاك

في وسط متاعبه الشخصية من اشتداد المرض بصورة مُرعِبة، والمتاعب الكنسية مثل ظهور مقاومين من الداخل، وأيضًا الاضطهاد من الحُكّام لنشر الفكر الأريوسي أو شبه الأريوسي، وأيضًا الاتهامات الباطلة الموجهة ضده، وانشغاله بالمضطهدِين، ومراسلاته مع الغرب لحفظ وحدة الكنيسة، لا ينسى القدِّيس رسالته كمُعلِّم، ففي هذه الفترة القاسية سَجَّل لنا الكثير من مقالاته عن الحياة النسكية، وأيضًا سَجَّل الأحكام المُطوَّلة الخاصة بالحياة النُسكية.

بجانب مهمة الأعمال الكنسية هذه، كانت تضاف أعباء ثقيلة. ذلك بأن الأسقف، في تلك الأيام، كان يحتل مكانة هامة في حياة المدينة. فكان يحق له أن يمارس القضاء، كما أن الحاكم كان يترك له بطيب خاطر مسئولية الأعمال الاجتماعية التي كانت شبه معدومة قبل ظهور المسيحية[٢].

وضع القديس باسيليوس الكبير معالم عمله الاجتماعي، حين كان كاهنًا، كما وجد فيه جميع الناس من مسيحيين ويهود ووثنيين صفات المدير النادرة، حين اجتاحت المجاعة مدينة قيصرية، إذ عرف هو وحده كيف يواجه الكارثة ويتَّخِذ التدابير الاستثنائية اللازمة. ولقد أتاحت له الأسقفية أن يُظهِرَ ما هو قادر عليه[٣].

أقام مستشفى للمرضى وضحايا الوباء، كما أقام ملاجئ للفقراء، وأماكن لاستقبال المسافرين والغرباء، وسرعان ما اكتسب حب شعبه بسرعةٍ فائقة. لكن واجهته مصاعب كثيرة.

صداقته مع الأساقفة

في انفتاح مع يوسابيوس أسقف ساموساطا *Samosata* كتب إليه يعتذر أنه قد تأخر في الكتابة إليه ليُعلِمه بأخباره. فقد كان الشتاء قاسيًا، استمر نزول الثلج لمدة شهرين حتى

---

[١] جان - ماري رونا: القديس باسيليوس الكبير، ترجمة الأب عقيقي اليسوعي، منشورات المعادي، ص ٢٥ - ٢٦.

[٢] الأب صبحي حموي اليسوعي: القديس باسيليوس الكبير، لبنان.

[٣] نفس المرجع السابق.

اختفت البيوت تحتها. هذا مع ما اتَّسم به الكبادوكيون بطبيعتهم وهو الكسل والخوف، فلم يجد من يبعث معه رسالة إليه. سَجَّل بعض الأخبار المؤلمة ثم كتب [بخلاف هذا فإن الكنيسة بنعمة الله قوية، وتطلب أيضًا أن تراك هنا عندما يحل فصل الربيع، فتنال قوة جديدة بتعليمك المستقيم. أمَّا عن صحتي فتكاد تكون كما هي، ليس من تقدُّم[1]].

مرة أخرى في نفس العام (٣٧١م) كتب إليه يعتذر له عن عدم القيام بزيارته بأسلوب مملوء بالعاطفة والحُب. مع تأكيد أنه في حاجة إلى صلواته عنه وعن الكنائس.

❖ إن كنت أُسَجِّل لك كل الأسباب التي ألزمتني بالبقاء هنا حتى الآن بالرّغم من شغفي الشديد لزيارة قداستكم، فإن القائمة تمتد بلا حدود.

إنني لا أشير إلى مرضي الدائم، فإننا عانينا من الشتاء القارس، والمشاغل التي للعمل بلا حدود. هذه الأمور معروفة تمامًا وأنت تعلم تمامًا بها. أمَّا الآن فبسبب خطاياي فقدت أُمّي، هذه التي كانت المُعَزّي لي في هذه الحياة.

أعرف أنه يبدو إلى حدٍّ ما سذاجةً أن أشتكي بأنني يتيم، وأنا في هذا العمر. لا تسخر مني. بل بالعكس سامحني إن كنت أجد صعوبة في الافتراق عن شخصٍ لا يمكن أن أجد مثله. لهذا عاد إليّ مرضي. إني متقوقع على سريري مرّة أخرى. ضعفي بكلّيته كَرْبٌ للغاية. لقد شعرت بأن نهاية حياتي تحلّ في أية لحظة.

بجانب هذا فإن الكنائس مريضة مثلي. أمورها في انحدارٍ مُستمرٍّ بدون بارقة رجاء. لازالت قيصرية الجديدة وأنقرة تبحث عن أساقفة يخلفون الأساقفة الراقدين وهي لا تزال في هدوء وسلام. وإلى الآن الذين يخططون ضدّنا ممنوعون من ممارسة ما يرجونه في غضبهم ومرارتهم. بكل أمانة إنني أعزو هذا لتوسلاتكم من أجل الكنائس.

لهذا لا تتعب من الصلاة والتوسل إلى الله من أجل الكنائس. تمنياتي الطيبة لكل الذين يساعدونك في عملك المُقدَّس[2].

القديس باسيليوس الكبير

---

[1] *Letter 48. To Eusebius, Bishop of Samosata.*

[2] *Letter 30.*

الصعاب التي واجهته في أسقفيَّته

أولاً: تدبير النظام الكهنوتي

لعلّ أول مشكلة داخلية واجهته كأسقف هى إقامة خوري إبسكوبوس *chorepiscopus*، "أسقف القرية" سُلطانه على القرية، يُدير أمور الكنيسة فيها، وفي نفس الوقت يخضع لأسقف المدينة وتوجيهاته. ففي كبادوكية كانت توجد مُدن صغيرة، وكان للخوري إبسكوبس دوره الهام فيها. لقد سَمِعَ عن أُناس سِيموا لهذه الدرجة وهُم غير أهلٍ لها، وكانت السيمونية (السيامة مُقابل مبلغ من المال) مُنتشرة، وقد حاول إصلاح الموقف[1].

وفي نفس الوقت طالب الخوري إبسكوبوس بإعادة فحص خدّام القرى بحزمٍ وجدية. جاء في رسالة بعثها إليهم:

❖ إني مُضطرّ أن ألجأ إلى الرجوع إلى قوانين الآباء. لهذا أطلب إليكم كتابةً أن ترسلوا لي قائمة بالخدام في كل قرية، موضّحين بواسطة من قُدِّم كل منهم للخدمة، وما هو منهج حياته.

لديكم كشف (بأسمائهم) في سجلاتكم، فأودّ أن أراجعها بالمستندات التي لديّ، فلا يُسَجِّل أحد اسمه كيفما شاء. فإن كان أحدٌ قد قُدِّم اسمه بواسطة كهنة بعد أول لقاء معه، فليُرفَض، ويأخذ مكانه وسط الشعب.

يليق أن يُفحَصوا من جديد بواسطتكم فإن وُجِدوا أهلاً لذلك، فلتأخذوا قرارًا بقبولهم.

اعزلوا غير المؤهّلين لذلك من (خدمة) الكنيسة، لكي تتنقَّى. أمّا بالنسبة للمستقبل، فافحصوا من منهم أهلاً للخدمة واقبلوهم، لكنهم لا تحسبوهم في عداد الخدام قبل فحصهم. وإلاّ فلتعلموا أن من يُضَم للخدمة دون علمي يبقى في عداد الشعب (العلمانيين *laymen*).

القديس باسيليوس الكبير

ثانيًا: الأساقفة

كان هناك بعض الأساقفة الذين رفضوا الاشتراك في رسامته، وهؤلاء تحوّلوا من العداء المكشوف إلى المقاومة السريَّة، وكانوا يعاملونه باستخفافٍ، وقد شكا هذه الحالة إلى يوسابيوس الساموسطي. وكان هذا المَسْلَك غير المُخْلِص من جانبهم سببًا في ازدياد مرضه. لكنه تمكَّن على أي حال من التغلُّب على مُعارضيه في سنواتٍ قليلة بالحزم المُمتزِج بالعطف.

---

[1] *Letters 53, 54.*

ثالثًا: اهتمامه بالكهنة

اهتم القدِّيس بالكهنة وقداستهم. عالج مشاكلهم بحكمةٍ وحُبٍّ مع حزمٍ. نذكر على سبيل المثال أن كاهنًا يُدعَى بارجريوس *Paregorius* كان بتولاً كل أيام حياته وقد بلغ السبعين من عمره. للأسف صَمَّم أن تعيش معه سيدة في بيته. لم يشكّ القدِّيس في طهارته وعفَّته، لكنه سبّب عثرة للبعض، بحكمة كتب إليه أن ينفصل عنها. جاء في رسالته:

[يا بارجريوس، لست أنا أول إنسان ولا الوحيد يطلب الالتزام بقانون ألاّ تعيش النساء مع الرِّجال. لتقرأ القانون الذي وضعه الآباء القدِّيسون في مجمع نيقية الذي يمنع بوضوح الخُلْطة. حياة البتولية (عدم الزواج) مُكَرَّمة تتميَّز بالانقطاع عن المجتمعات النسائية...

لست أفترض إنسانًا في السبعين سنة من عمره يعيش مع امرأة لأجل أية مشاعر كهذه، ما يشغلني ليس لأجل خطأ يُرتكَب. إنما نتعلم من الرسول أن لا نضع عثرة في طريق الإخوة...

لتعِش هي مع العذارى، وليخدمك أنت رجال حتى لا يُجَدَّف على اسم الله بسببك[١].]

رابعًا: تقسيم كبادوكيَّة

في عام ٣٧١م أراد فالنس أن يقسم كبدوكية ويقيم ولاية جديدة، ويجعل عاصمتها مدينة صغيرة لم يسمع عنها أحد من قبل تدعى *Potanda*. ويبدو أن فالنس كان يفعل هذا في مناطق كثيرة من الإمبراطورية بغرض تنمية الضرائب. حل اليأس بأهل قيصرية، إذ شعروا أنه بهذا العمل تتحطم قيصرية. طلبوا من باسيليوس أن يوقف هذا التصرف، فبعث إلى الإمبراطور رسالة جاء فيها: "إن قطعت حصانًا إلى اثنين، لا تصنع منه حصانين[٢]". لم يستطع أن يمنع التقسيم، إنما كل ما فعلته هذه الرسالة أنه أقام عاصمة جديدة على بعد حوالي ستين ميلاً جنوب غرب قيصرية، تُدعى تيانا *Tyana* عوض *Potanda*.

صمَّمت حكومة الإمبراطور فالنس الأريوسي على تقسيم كبادوكيَّة إلى إقليمين: كبادوكيا برايما (الأولى) وكبادوكيا سيكوندا (الثانية)، وكانت قيصرية، وهى مركز إيبارشية أو مطرانية القديس باسيليوس، عاصمة لكبادوكيا برايما، وتيانا عاصمة لكبادوكيا سيكوندا. وكان المقصود من ذلك إضعاف مدينة قيْصريَّة، أو بالأحرى إضعاف باسيليوس.

أُختيرت مدينة تيانا لتكون العاصمة الجديدة للإقليم الثاني، فطالب أنسيموس أسقف تيانا بتقسيم كنسي يتبع التقسيم الإداري، وبأن تتمتَّع تيانا بامتيازات المدينة العاصمة كما تتمتَّع

---

[1] *Letter 55 to Paregorius, the Presbyter.*

[2] *Epistle 74.*

قيْصريَّة. وأن إيبارشيته تعادل إيبارشية باسيليوس، لذلك حاول اقتطاع منطقة كبيرة بأساقفتها عن باسيليوس.

أمَّا القدِّيس باسيليوس فعوَّل على مقاومة ذلك المطلب إلى النهاية، وحدث نزاع بينه وبين أنسيموس، ولكي يقوِّي موقفه سامَ صديقه غريغوريوس على سازيما *Sassima*، وهي قريَّة تقع عند مُفترق الطريق الذي يؤدِّي شمالاً من تيانا إلى دورًا ثم ينحني غربًا إلى نزيانزا، أغلب سكانها غرباء يسطون على القوافل القادمة. لم يدخل القديس غريغوريوس الإيبارشية، إذ لم يحتمل ضجيج المدينة، وخشي من الدخول في السياسة.

كان غريغوريوس بطبعه شاعرًا أكثر منه رَجُل إدارة، فلم يكن يميل إلى تحمُّل المسئوليَّات. لكن والده الشيخ أسقف نزيانزا أقنعه أن يقبل الأسقفيَّة، ولما غُلِبَ على أمره، كتب لنا الوصف الآتي: [على طريق كبير في كبادوكيَّة، عند مفترق طرقٍ، حيث لا ماء ولا خضرة، ولا شيء يروق للإنسان، وفي قرية ضيِّقة صغيرة، كريهة، يملأوها الغبار، ويكثر فيها الصخب ومرور المركبات، ويعلو فيها البكاء والصراخ، وفيها سجن. أمَّا سكَّانها فرُحَّل ومُتشرِّدون؛ هذه هي كنيستي، كنيسة سازيما، حيث وضعني باسيليوس! وفوق ذلك لم يكن في وسعي أن أُقيم على كرسي على حدود الولايتين بدون قتال، وخطر سفك الدماء].

إذ لم يكن غريغوريوس يشعر في نفسه أنه رجل قتال يقول:

[هل كان عليَّ أن أرضَى؛ وأن أقبل صامتًا، ما كان ينزل بي من المصائب؟

وأن أحتمل الضربات بدون سبب، وأختنق في الوحل، ولا أجد زاوية آوي إليها في شيخوختي، وأتعرَّض للطرد من المكان الذي يأويني؟

وأُحرَم لقمة الخبز؟ ثم أكلَّف في بؤسي أن أدبِّر شعبًا من البائسين؟ حيث لا أستطيع أن أعمل شيئًا؟ بل أجني أشواكًا ليس فيها زهرة واحدة. فلا أجمع إلاَّ شرًّا، دون أي ارتياح.

سلْني إن شئتُ نوعًا آخر من الشجاعة، واعرض هذا المستقبل على رجل غيري أشجع منِّي!]

هرب غريغوريوس، ولجأ إلى دير على قمَّة جبل، فأُعيدت مدينة سازيم إلى أسقفيَّة تيانا. غير أن غريغوريوس لم يقُم طويلاً هكذا، إذ صار يُعاون والده في إدارة كنيسة نزيانزا بناء على إلحاح أبيه، وأسهم بعد ذلك في الدفاع عن الإيمان السليم، وصار بطريركًا على القسطنطينيَّة إلى حين، وظلّ هؤلاء القدِّيسون، بالرّغم من إيمانهم وبطولتهم بشرًا فيهم ضعف.

كما سامَ باسيليوس أسقفًا على دورا، طرده الأريوسيون.

وسامَ أيضًا أخاه غريغوريوس على نيصص الذي بعد أن طرده منها الأريوسيون، تمكَّن بشهرته وقوَّته من العودة إليها. اعتزل غريغوريوس أسقفيَّتها بمرارة، وسبَّب له ذلك الحادث جرحًا لازمه حتى نهاية حياته.

والعجيب أن باسيليوس وأنسيموس صارا فيما بعد صديقيْن، إذ كان يحرص الأول على السلام[1].

خامسًا: الإمبراطور فالنس

كتب القدِّيس غريغوريوس النزينزي عن كفاح القديس باسيليوس ضد الأريوسية التي كانت تساندها الدولة. وكان يعمل بنشاطٍ لا يتوقَّف، وبحكمةٍ وحذرٍ. لم يعرف الخوف ولا الرهبة في تعامله مع الإمبراطور فالنس *Valens* ورجاله.

فيما يلي صورة مُبسَّطة لِمَا دار بين القدِّيس باسيليوس والإمبراطور فالنس وأتباعه.

[1] *Cf. Epistle 291.*

بين القديس باسيليوس والإمبراطور فالنس *Valens* ورجاله

شنَّ الإمبراطور حربًا مريرة ضد الأرثوذكس بسبب اتجاهاته الآريوسية.

الاضطهاد الفالنسي (الوالنسي)[1]

عاد الإمبراطور إلى القسطنطينية في أواخر سنة ٣٦٩م، وتنيّح أفدوكسيوس رئيس أساقفة القسطنطينية؛ فقرَّر الإمبراطور أن يخلفه أحد أتباعه. أسرع الأرثوذكس إلى تأييد أفغاريوس (أوغريس *Evagrios*)، فأرسلوا وفدًا إلى الإمبراطور مؤلّفًا من أربعة وثمانين إكليريكيًا يطالبون بالاعتراف بإفغاريوس. غضب الإمبراطور وأمر بنفيهم، وأراد الوالي موديستوس أن يؤدِّب بهم كل مُحتجّ بعدهم.

أُلقيَ القبض عليهم، وأُبعِدوا على قوارب في مياه البسفور. أشعل البحارة النار في السفينة، وأسرعوا فنجوا على زورق، وتركوا الإكليريكيين يموتون حرقًا فوق الماء. احترق جميعهم[2] أو بعضهم.

ودخلت الكنيسة في دورٍ من الاضطهاد دام طويلاً. أُكره الآباء على قبول قانون الإيمان الأريوسي، وطُردَ الأرثوذكس من كنائسهم، وسُلِّمت الكنائس إلى الهراطقة، كما صُودرت الممتلكات، ونُفِي الأساقفة الأرثوذكس. لقد كرَّس طاقات الجيش لا لمحاربة البرابرة، بل لتدنيس الكنائس في كل الولايات الخاضعة له.

مع رجال الإمبراطور

في سنة ٣٧١م دخل القدِّيس باسيليوس في صِدام علني مع الإمبراطور فالنس. كانت الأخبار الواردة إلى قيْصريَّة كلها تنذر بالويل، فإن فالنس مُصَمِّم كل التصميم على قطع دابر الإيمان الأرثوذكسي من المملكة. وكان كلّما حلَّ في مدينة، ألزم أسقفها أن يخضع لأمره، ويُوَقِّع على نصٍّ يعترف فيه بالأريوسية، وإن رفض أبعده هو ومن يتبعه من رهبانه إلى إحدى الثكنات. أمّا المؤمنون، فكان الجند يتولُّون أمر إخضاعهم. لا يُسمَع إلاَّ أخبار المصادرة والإبعاد والسجن وتخريب الكنائس والقتل.

---

[1] الدكتور أسد رستم: كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، جـ ١، ١٩٨٨، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

[2] *Socrates: His. Ecc. 4:16; Sozomen: His. Ecc. 6:14; Theodoret: His. Ecc. 4:24.*

ما أن سِيمَ باسيليوس رئيس أساقفة حتى بدأت آخِر مجهودات الأريوسية، بإثارة اضطهادٍ عنيفٍ يعتبر اللهثات الأخيرة لهذه الهرطقة الخطيرة. فقد جاء إلى قيصرية دومتيوس موديستوس *Domitius Modestus* الوالي ليلزم الجميع للعودة إلى الأريوسية. لقد دخل في حوارٍ عنيفٍ وتهديدٍ للقديس باسيليوس.

كان الإمبراطور فالنس يَعبُر أسيا الصغرى، مُصمّمًا على محو الإيمان الأرثوذكسي وإحلال الأريوسية محلَّه، وإذ اقترب من قيْصريَّة صمّم على إخضاع باسيليوس بطل الأرثوذكسيَّة في تلك الجهات. وكان تقدُّمه مَظْهَرًا من مظاهر انتصاره؛ فقد ضَعُفَ أمامه كثيرون. وقاومت بثينيَّة، فصارت مسرحًا لمآسٍ مُرعبة. أمَّا غلاطيَّة المُتردِّدة، فقد استسلمت دون مقاومة. وكان مصير كبادوكيَّة يتوقَّف على باسيليوس. نصحه البعض أن ينحني أمام العاصفة، ويهدئ من روع الإمبراطور بخضوع وقتي، لكنه رفض مشورتهم بإباء تشويه الغيرة المُقدَّسة.

دخلت حاشية الإمبراطور على القدِّيس باسيليوس بتهديدات شديدة، وكان أشدُّهم وقاحة ديموستيني، رئيس المطبخ الذي هدَّده بسكينٍ. فقابل القدِّيس تهديداته بصرامةٍ هادئةٍ. ثم تلاه موديستوس حاكم برايتوريوم. وقد أرسله فالنس إلى القدِّيس باسيليوس يُخَيِّره بين أمريْن، إمّا العزل، وإمّا الاشتراك مع الأريوسيِّين. فاستدعاه موديستوس وبِاسم الإمبراطور طالبه بالخضوع، وبِاسم الله رفض القدِّيس كأمير حقيقي للكنيسة الأمر. فهدَّده موديستوس بمصادرة أملاكه وبالتجويع والنفي والتعذيب والموت، بقصد نوال توقيع على إقرار بانضمامه للأريوسيَّة. وقد سجَّل لنا القدِّيس غريغوريوس النزينزي الحوار بين القدِّيس وموديستوس برايفكتوس الشرق[1].

موديستوس: السيد باسيليوس، هل هو أنت؟ ماذا تعني بتجاسرك أن تتحدَّى أعلى سُلطان بهذه الطريقة؟ إنك الوحيد الذي تتكلّم بمثل هذا التشامخ.

باسيليوس: عن ماذا تتكلّم؟ كيف أكون أنا مُذنبًا بهذا النوع من الغباوة؟ إنني لا أعرف ماذا تعني؟

موديستوس: لماذا؟ أقصد الطريقة التي بها ترفض أن تُقَدِّم الكرامة اللائقة بسيدك، فتقبل إيمانه. كل إنسانٍ غيرك أيَّده وخضع له.

باسيليوس: لا، لا أستطيع أن أفعل هذا. فهذا ضد إرادة ربِّي الحقيقي. إني خليقة الله، فكيف يمكنني أن أُخضِع إيماني لمخلوق آخَر؟

---

[1] الدكتور أسد رُستم: كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، الجزء الأول، لبنان ١٩٨٨، ص ٢٤٩.

موديستوس: هل هذا هو كل ما تعرفه عنَّا؟ أليس من حقي أن أصدر لك أوامر؟ أليس من الصالح لك أن تجعلني في جانبك، وأن نكون صديقين؟

باسيليوس: بالتأكيد أنتم الولاة، أُناس لكم تقديركم. لكن الله له تقدير أعظم. وللتأكُّد، إنه لأمر عظيم أن أتخذك صديقًا. وأنت أيضًا، فوق كل هذا خليقة الله. وأنت تكون صديقًا لي كما أن الذين تحتي هم أصدقائي. فإن المسيحي يهتم بالإيمان لا بالأشخاص.

موديستوس (في غضبٍ): انظر إليَّ؛ ألاَ تخشى سُلطاني؟

باسيليوس: لماذا أخاف؟ أي شيء يُمكنك أن تفعله لأذيتي؟

موديستوس: أستطيع أن أوقِّع عليك عقوبات كثيرة.

باسيليوس: ما هذه؟ أخبرني!

موديستوس: مُصادرة الممتلكات، والنفي، والعذابات، والموت.

باسيليوس: هل هذا هو كل ما لديك. عليك أن تجد شيئًا آخر يُزعجني، فإن هذه جميعها لن تُزعجني.

موديستوس: كيف تقول هذا؟

باسيليوس: مُصادرة الممتلكات لا تؤذي من لا يملك شيئًا، إلاَّ إذا تألَّم من أجل خرقٍ بالية أو بعض الكُتب التي هي كل ما أملك.

إنّني لا أعرف النفي، إنّني لست مُرتبطًا بأي مكان مُعيَّن. ليس فقط من جهة الأرض التي أعيش عليها، بل أحسب العالم كله الذي يُمكن أن أنفى منه بيتي الحقيقي، لأن كل العالم هو من الله، وأنا أعبُر منه كضيفٍ.

أي أمر يمكن أن يُسبِّب لي أذيَّة من هذه العذابات؟ لجسدٍ لا يختلف عن جُثّة هامدة. يمكنك أن تبدأ الآن إن أردت، فإني أعتقد أنه لا يحتمل سوى الضربة الأولى.

أمّا الموت، فإنني سأُرحِّب به، فإنني أريد أن أذهب إلى الله سريعًا.

على أي الأحوال، أنا أعيش من أجله. وكل حياتي هو يوجِّهها.

من أجله أنا أموت عمليًا، وأنا أسرع أن أبلغ إليه منذ وقت طويل.

سوى هذا الذي يتقبَّل الضربة الأولى.

صاح موديستوس في دهشةٍ ممزوجةٍ بكبرياءٍ، مُعلِنًا: "إلى الآن لم يُكلِّمني أحد بهذه الكيفيَّة وهذه الجسارة".

ردَّ عليه القدِّيس باسيليوس: [ربَّما لم تقابل أُسقفًا من قبل... عندما يتعرَّض للخطر والتشهير به، فإنه يحب هذه وغيرها ويحسبها كلا شيء. إننا نتطلَّع إلى الله وحده، ونتوق إلى

النار والسيوف والوحوش والآلات التي تمزِّق الجسد، وكأنها مصدر بهجة وفرح وهي تمزِّق الجسد، أكثر من كونها مصدر رُعبٍ وخوفٍ. أحببنا هذه العذابات والتهديدات، افعل كل ما يمكنك أن تفكِّر فيه! لتبذل كل قوَّتك! وأيضًا فليسمع الإمبراطور هذا، إنه في كافة الأحوال لن تقنعنا أو تلزمنا على الانضمام إلى هذه العقيدة الخاطئة حتى إن هدَّدنا بالأعمال العنيفة هذه[1]].

ولمَّا لم يفلح موديستوس في تهديده، أخذ يعده بكرامات، وبصداقة الإمبراطور، وبتحقيق كل مطالبه. لكن شيئًا من كل ذلك لم يُلِن عزيمة باسيليوس الحديديَّة.

أسرع موديستوس إلى سيِّده، ورفع تقريره الذي جاء فيه: "إن الوسائل المُتبعة في الإرهاب بدت غير قادرة على تحريك هذا المطران الباسل. والشدَّة هي السبيل الوحيد الذي يُتَّبع مع ذاك الذي لم يُجدِ معه التهديد والملاطفة على السواء".

لكن فالنس كان يخاف أن يلجأ إلى العنف نحو شخص يُحبُّه الشعب مثل باسيليوس، فتذبذب بين الإرغام والإذعان، ورفض استخدام العنف ضد باسيليوس، وجعل طلبه منه متوسّطًا، أن يسمح للأريوسيِّين بالاشتراك معه. وهنا أيضًا لم يُلِن باسيليوس، ولم يتراجع عن موقفه.

زيارة فالنس لقيصرية

سعى الإمبراطور إلى وسيلة أخرى ينفّذ بها موقفه، وقد ساعدته الظروف على ذلك. قام الإمبراطور فالنس بزيارة قيصرية مع حشد الأساقفة الأريوسيين. قال غريغوريوس إن باسيليوس حمل روح المقاومة للإمبراطور، ووقف ضد اضطهاده[2].

في بداية عام ٣٧٢م، في عيد الأبيفانيا (عيد الظهور الإلهي أو الغطاس المجيد) وهو عيد عظيم في تلك النواحي كعيد الميلاد، جاء فالنس إلى قيصرية، وتَوَقَّع الكل الدخول في معركة بينه وبين القدِّيس باسيليوس الجريء والذي لن يستسلم، بل يتمسّك بقانون الإيمان النيقوي.

فلمَّا أقبل وكانت الجماهير تملأ الكاتدرائيَّة، وقد ابتدأت الصلاة، وكان باسيليوس يحتفل بالذبيحة الإلهيَّة، بحسب العادة القديمة، قصد إلى الكنيسة الرئيسيَّة في قيْصريَّة بعد بدء الخدمة. فوجد الكنيسة زاخرة بالمُصلِّين، تتجاوب أصداء تسابيحهم كالرعد، لم يقطعها دخول الإمبراطور وحاشيته، وكان القدِّيس باسيليوس واقفًا في الهيكل ووجهه نحو الشعب، يحيط به الكهنة وخدَّام المذبح في شكل شبه دائري. وكان جوّ الكنيسة سماويًّا أكثر منه أرضيًّا. وكان حماس العبادة

---

[1] *Gregory Naz.: On St. Basil 48-50.*
[2] *Oratio 43: 32ff.*

المنظمة أليق بالملائكة من البشر. كان الموقف رهيبًا حتى أن الإمبراطور اضطرب. وإذ حان الوقت ليُقدِّم تقدمته، تردَّد الخدَّام في قبولها لأنه هرطوقي، فلم يتقدَّم أحدهم لأخذها. اهتز الإمبراطور وكاد يسقط، لولا معاونة أحد الكهنة. ويبدو أن باسيليوس تراءف على ضعف خصمه، فقبل التقدمة من يده المُرتعشة.

وفي اليوم التالي زار فالنس الكنيسة أيضًا، وأصغى باحترام إلى عظة القدِّيس باسيليوس. وبعد نهاية الاحتفال نافشه القدِّيس في الإيمان الأرثوذكسي. وبدا أنه مال أن يكون صديقًا لباسيليوس، ومنحه أراضٍ توقَفُ لنشاطه الخيري.

فشل محاولات نفي القدِّيس باسيليوس

كان الوفاق بين فالنس وباسيليوس ظاهريًا، فالقدِّيس لم يسمح للأريوسيِّين بالاشتراك معه، والإمبراطور لم يَطِقْ الرفض.

ظل القدِّيس مُصَمِّمًا على رفض قبول الأريوسيِّين في شركة الكنيسة، لم يجد هؤلاء عناءً كبيراً في إقناع فالنس أن نفي باسيليوس ضروري لسلام الشرق.

استسلم الإمبراطور للمشورة، وأمر بنفي باسيليوس. وأعدَّ القدِّيس عدَّته للرحيل، ورتَّب أن يكون ذلك ليلاً تجنُّبًا لأخطار الاضطرابات الشعبيَّة. كانت المركبة في انتظاره على الباب، وإذ بأمر النفي يوقف!

روى القديس غريغوريوس النزينزي عن مرض غلاطس (غالات) *Galatos* بن فالنس الوحيد مرضًا مُفاجئًا وخطيرًا، وكان في السادسة من عمره[1]. وعزَّت أُمُّه دومينيكا *Dominica* مرضه إلى الأمر بنفي القدِّيس، فأرسل الإمبراطور اثنين يتوسَّلان إلى القدِّيس أن يُصلِّي للطفل المريض الذي لم يكن قد تعمَّد بعد. اشترط القدِّيس قبل ذهابه أن يُعَمِّد الصبي بعد شفائه على يد كاهن أرثوذكسي، وأن يُلقَّن الإيمان القويم. وشُفِي الصبي بصلاة القدِّيس، ولكن الإمبراطور حنث بوعده، وعَمَّد الصبي على يد أسقف أريوسي، فساء حال الصبي ومات في تلك الليلة.

مرّة أخرى استسلم فالنس لضغط أعداء باسيليوس، وفي تلك المرّة رفض القلم أن يُطاوع الإمبراطور، وقُصِف ثلاث مرّات في يده المُرتعشة، ممَّا جعله يمتلئ خوفًا ورُعبًا، فعدل عن عزمه، ومَزَّق الصك[2]، وبقي القدِّيس سيِّد الموقف. هذا ومن جانب آخَر خشيَ الإمبراطور من أن يُهاجم القدِّيس باسيليوس بالعُنف، لأن المدينة كلّها كانت تعتز به.

---

[1] *Philip Schaff: History of the Christian Church, volume 3, 1910, p. 901.*

[2] الدكتور أسد رُستم: كنيسة مدينة الله أنطاكية العُظمى، الجزء الأول، لبنان ١٩٨٨، ص ٢٤٩.

لقد قدَّم الإمبراطور مساهمة في مشروعات القدِّيس مثل المستشفى ومركز ضيافة الغرباء ومدرسة... الخ. لقد دعا القديس غريغوريوس هذه الإنشاءات بالمدينة الجديدة[1].

وبالإضافة إلى محاولات النفي، تَعَرَّض القدِّيس لإهانات كثيرة من الحكام الإقليميِّين.

إذ وجِّهت إلى إيلياس حاكم كبادوكية اتهامات ضد القدِّيس باسيليوس، بعث إليه رسالة، جاء فيها:

[إلى إيلياس حاكم كبادوكية، أردت على وجه الخصوص أن أحضر أمام فخامتكم، حتى لا أترك الفرصة للذين يفترون عليَّ بأنني لا أظهر شخصيًّا. لكن ضعفي الجسدي الذي صار أكثر من العادي منعني من المجيء، لهذا لجأت إلى الكتابة...

ليت أولئك الذين يزعجونك بالشكاوي يُسألون:

ما هو الضرر الذي سبَّبته للدولة؟...

هل يستطيع أحد أن يقول أن بناء مبنى حسن للصلاة لإلهنا يُسبِّب أذية للمجتمع؟

أو إذ يُلحق به مكان إقامة رسمي للأسقف، وأماكن أخرى بسيطة لخدام الله في رُتب مُتباينة، هذه التي هي مفتوحة لك ولأتباعك؟

هل سبَّبنا أذيّة لأحدٍ بإقامة مباني لاستضافة المسافرين الذين يزورونا، وللمرضى المحتاجين للعلاج؟

أو تدبير ما لحاجاتهم بإمدادهم بالتمريض والأطباء ومُرشدين؟ وفتح مجال للأعمال ليس من أجل التمتُّع بضروريات الحياة، بل وتقديم فُرص لحياة كريمة، ولهذا نُقيم مباني لإشغال هذه الأعمال[2]].

أمَّا موديستوس عدوُّه القديم، فقد أُصيب بمرضٍ خطيرٍ، فقصد القدِّيس باسيليوس ليُصلِّي عليه، وفعلاً نال الشفاء وصار صديقًا له[3]. وازداد نفوذ القدِّيس جدًّا بسبب ذلك حتى إن كان البعض يأتون من مسافات بعيدة طالبين وساطته لديه.

يقول القدِّيس غريغوريوس: [أمَّا في سائر أنحاء الإمبراطوريَّة، فما برح الاضطهاد مُستمرًّا، يَخف حينًا ويضطرم آخر. فنُفِي من الأساقفة أُسقفا أنطاكية والإسكندريَّة، وعُذِّب كثيرون من الكهنة والرهبان. أمَّا باسيليوس فقد تُرِكَ وشأنه. وكتب بعد حين: **إني كصخرةٍ تتكسَّر عليها**

---

[1] *Greg. Naz.: On St. Basil, 63.*

[2] *Letter 94.*

[3] *Letters 104, 110, 111, 279, 280, 281.*

أمواج البدعة الأريوسية أو كحبَّة رمل صغيرة وضعتها إرادة الله سدًّا أمام غضب المحيط الواسع[1]].

روى أيضًا القديس غريغوريوس قصة أخرى حيث أَعَدَّ الإمبراطور قرارًا بنفيه، وثلاث مرات أمسك بقلمه ليُسَجِّلَ القرار، وإذا بيده تُصَاب بنوعٍ من الفالج وينكسر القلم، وبخوفٍ شديدٍ مزَّق الإمبراطور الرق[2].

ذكر عنه أخوه القديس غريغوريوس أسقف نيصص أن فالنس أراد أن يدخل مع باسيليوس في حوار لاهوتي، وإذا بطباخٍ حاول مساعدة الإمبراطور في الحوار، فبطريقة لطيفة صَحَّح للطباخ خطأ نحويًا فخجل الحاضرون وغضبوا على القديس لأنه استخف بالطباخ[3].

صورة لهزيمة الإمبراطور فالنس أمام القديس باسيليوس الكبير

يُقَدِّم لنا القديس غريغوريوس النزينزي صورة واقعية عاشها بنفسه لهزيمة الإمبراطور فالنس أمام القديس باسيليوس الكبير.

❖ ما حاجتي للدخول في تفاصيل أكثر؟ كنا نُهاجَم مرة أخرى بواسطة الإمبراطور المقاوم للمسيحية (فالنس)، ذاك الطاغية ضد الإيمان، بشرٍّ عظيمٍ وهجومٍ لاذعٍ، كما لو كان النزاع مع خصمٍ أقوى، يشبه الروح النجس والشرير، الذي متى خرج من إنسانٍ في تجواله، يعود إلى مسكنه ومعه عدد ضخم من الأرواح كما ذكرت الأناجيل (لو ١١: ٢٦).

إنه يقلد هذا الروح في تجديده للمعركة التي سبق فخسرها، وفي إضافته قوى لإمكانياته الأصلية.

لقد ظن أنه كان الأمر غريبًا ولا يُحتمَل، أنه وهو الحاكم لأممٍ كثيرة وقد ربح شهرةً عظيمةً هكذا، وأخضع بسلطان ظُلمه كل الذين هم حوله، وغلب كل خصمٍ، **أن يُهزَم علانية بواسطة رجل أعزل (القديس باسيليوس الكبير)**، ومدينة واحدة (قيصرية)، وأن يجلب على نفسه السخرية، ليس فقط من هؤلاء الذين يُمَثِّلون الشر الذين يقودونه، وإنما كما ظن أنه جلب السخرية بواسطة كل البشر...

بالحقيقة كانت أول أعماله الوحشية غاية في العنف، وبقيت هكذا حتى آخِر هجوم له ضدّنا.

---

[1] جان - ماري رونًا: القديس باسيليوس الكبير، ترجمة الأب عقيقي اليسوعي، منشورات المعادي، ص ٣٣، الأب صبحي حموي اليسوعي: القديس باسيليوس الكبير، لبنان.

[2] *Greg .Naz.: Oratio 43:54; Theodoret: H E 4:16.*

[3] *Greg. Nyssa: Contra Eunomium 1; Theodoret: H E 4: 16.*

ماذا أقول عن أعماله الأولى؟ النفي، والطرد، ومصادرة الممتلكات، ومؤامرات علنية وسرّية، ومجادلات قدر ما يسمح الوقت، والعُنف حين يصير الجدال مستحيلاً.

كان أولئك الذين يلتصقون بالإيمان الأرثوذكسي، كما فعلنا نحن، يُستبعَدون من كنائسهم، بينما يقتحمها البعض، هؤلاء الذين يَقْبَلون التعاليم الإمبرالية المُدَمِّرة للنفس. كان يطلب من (الأرثوذكس) الشهادة للشر، والتوقيع على عبارات أقسى من هذه.

قام بحرق الكهنة في البحر، بواسطة قادة جيش أشرار لا يهزمون الفرس، أو يُخضعون السكيثيين، أو يغلبون أيّة أمّة بربرية، إنما يهاجمون الكنائس، ويرقصون في نصرة فوق المذابح، ويدنسون الذبائح غير الدموية بسفك دم البشر وتقديم شتائم لطهارة العذارى. بأي باعث؟ إقصاء البطريرك يعقوب (يقصد به أثناسيوس الرسولي). وإحلال عيسو مكانه بالعنف، ذاك الذي كان مكروهًا حتى قبل أن يولد (رو ٩: ١١). هذا وصف لأعماله الأولى الوحشية، التي مُجرّد تذكّرها وأن يُشار إليها حتى الآن، تثير دموع غالبيّتنا.

تبعًا لذلك، إذ عَبر خلال كل الأحياء (في المنطقة)، وَجَّه هجومه ليستعيد أم الكنائس الحصينة والهائلة، والتي وحدها بقيت شرارة الحق التي لا تنطفئ، اكتشف لأول مرة أنه كان يتلقّى مشورات شرّيرة. فقد ارتد إلى الوراء كقذيفة تضرب جسمًا قويًّا ويرتد مثل هوسر *hawser* مكسور (حبل ضخم تُشد به السفينة إلى البرّ).

هكذا كان أسقف *Prelate* الكنيسة الذي التقى به (أي باسيليوس)! هكذا كان المتراس الذي حطّم طاقاته الخليعة! ربما كان (الإمبراطور) يسمع لخاصته (رجاله ومندوبيه)، الذين أخبروا وسردوا خلال خبرتهم... أن جميعهم كانوا مملوءين دهشة، هؤلاء الذين كانوا يدركون صراعات ذلك الزمان والاعتداءات والوعود والتهديدات.

فقد أرسل أمامه مندوبين رسميين لمحاولة الفوز علينا، أرسل أناسًا قضاة وعسكريين، رجالاً من جناح الحريم (في القصر الإمبراطوري)، هؤلاء الذين كانوا يعيشون وسط النساء... هؤلاء الذين تنصب رجولتهم في شرّهم، فمع عجزهم عن التسيب الطبيعي (لأنهم خصيّان)، كانوا يمارسون الزنا بالطريقة التي يستطيعونها فقط[1].

القديس غريغوريوس النزينزي

[1] *Greg .Naz.: Oratio 43:44, 46-47 The Panegyric on St. Basil.*

ضيقات ومتاعب حتى السنوات الأخيرة

لا نعجب إن كانت المتاعب والضيقات كانت تلاحقه منذ طفولته حتى النسمات الأخيرة من عمره، حتى قيل عنه عندما بدأت شجرة حياته تُقَدِّم ثمارًا رائعة انتقل قبل أن يذوقها أو ينظرها بعينيه. والحق يُقَال إن هذه الضيقات التي صاحبته كل رحلة حياته، كشفت عن عظمة شخصيته كإنسانٍ لم يعرف الإحباط إلا إلى حين، ولا الاستسلام، بل كانت هذه الضيقات عاملاً قويًّا على نجاحه وتقدُّمه في خدمته كما في حياته حتى اللحظات الأخيرة منها.

كانت سنوات حياة القدِّيس الأخيرة مملوءة بالأحداث المُرَّة. فيما يلي لمسات سريعة عن أهم المتاعب التي حَلَّت به في **السنوات الختامية من حياته**، أي في الست سنوات الأخيرة من حياته (٣٧٣ - ٣٧٩م)، ودورها في نجاحه وتَقَدُّمه المُستمِر.

١. مرضه

رافقه مرضه منذ طفولته. وقد رأينا أن والده تَمَتَّع برؤيا بخصوص شفائه بالرغم من حالته التي كان ميئوسًا منها.

أ. دفع هذا المرض والده أن يدرك أن حياة ابنه هى هبة من الله، أُعطيت له كمَنْ أُقيمَ من الموت. ولعلّه في هذا يُشبِه العظيم في الأنبياء موسى الذي سَجَّل لنا في المزمور التسعين أن حياة الإنسان مع القوة ثمانين عامًا. والعجيب أن الله دعاه للخدمة بعد أن بلغ الثمانين، وكأن الأربعين عامًا لخدمته بعد الثمانين كانت هِبة من الله، أُعطيت له بعد أن صار في حكم الموت، لا قدرة له على العمل. هكذا مع الفارق، بذل باسيليوس (الأب) مع طفله الصغير باسيليوس كل الجهد في تعليمه، واكتشاف مواهبه، وإدراك أن الله وهبه الشفاء لرسالة مُعَيَّنة خاصة.

ب. لعلّ الابن في طفولته وصبوَّته لمس مشاعر أبيه، فحمل ذات مشاعره، أن الله حفظه لرسالة خاصة. وقد ظهر ذلك بقوة حين كان في صحبته مع القديس غريغوريوس النزينزي يشهدان لإنجيل المسيح في أثينا في وسط شباب لم يكن يعرف إلاَّ اللهو والملذّات والاستهتار بالأبدية.

من صغره كان القدِّيس باسيليوس مع رقته ولُطفه جادًا في كل شيء، لا يشغله ترف العالم، ولا تحطّمه ضيقات الحياة مهما اشتدَّت.

ج. هذا ومن جانب آخر، لعلّ مرض باسيليوس قَدَّم له الإحساس بأن لحظات انتقاله متوقّعة، فكان يبذل كل جهده لخلق قيادات للعمل، فأنشأ مدارس يتبنَّاها الرهبان، وكان حريصًا ألاَّ يضغط الرهبان على الشبان فوق طاقتهم، بل يهتموا بإيجاد شخصيات سويّة، وقد لجأ إلى هذه المدارس بعض أبناء الأشراف والنبلاء، ومنهم من آمن بل وكرَّسوا حياتهم للعمل لملكوت الله.

د. مرضه الذي كثيرًا ما وصفه في رسائله أن لا يمنعه من النزول من مضجعه فحسب، بل وحتى من التحرُّك وهو نائم في سريره.

هذا ألزمه أحيانًا بعدم القدرة على اللقاء مع بعض الشخصيات سواء الكنسية أو القيادات الزمنية مهما كانت الظروف. فكان يلتزم بالكتابة لمناقشة الأمور الهامة معهم مع عدم اللقاء معهم. فجاءت رسائله تكشف عن كثير من الأحداث وعن أفكاره. الأمر الذي ما كان يمكننا التعرُّف عليه لو التقى بهم وجهًا لوجه. وكأن رسائله التي وصلت إلينا تروي لنا تاريخ حياته، وتُسَجِّل لنا أفكاره سواء الخاصة بالكتاب المقدس أو الحياة السلوكية أو النُّسكية أو التنظيمات والتدابير الكنسية. فشكرًا لله الذي سمح له بالمرض الشديد ليخدم برسائله أجيالاً كثيرة بعد نياحته!

تكشف رسالته **إلى يوسابيوس أسقف ساموساطا** عام ٣٧٣م عن مدى ما كان يُعانيه من المرض، إذ جاء فيها:

[يمكنك أن تتصوَّر كيف ملأتني رسالة قداستكم بعاطفة قويّة.

الرُّوح الذي به كتبت الرسالة جعلني أريد أن أنطلق وأطير إلى سوريا، لكن ضعف جسدي ربطني وحدرني إلى أسفل، فليس فقط لا أستطيع أن أطير، وإنما لا أستطيع حتى أن أتقلَّب على السرير.

كأمرٍ واقعي عندما جاء الشماس البيدوس *Elpidius* إلى هنا، كنتُ مريضًا لمدة تسعة وأربعين يومًا، فقد مزَّقتني الحمَّى. وعادت المشكلة القديمة الخاصة بما أُعانيه من متاعب الكبد، فمنعني من كل طعامٍ، منعني من النوم، وجعلني ما بين الموت والحياة[1]].

يمكننا أن نلمس تزايد متاعبه الصحية من **رسالته إلى أمفيلوخيوس** *Amphilochius* أسقف أيقونية *Iconium* التي أرسلها له عام ٣٧٥م. افتتحها بقوله: [عانيت من مرضٍ بعد مرضٍ، حتى توقف كل عملٍ مُوَكَّل إليَّ، ليس فقط بخصوص شئون الكنيسة، بل وما يخص

[1] *Letter 138.*

الذين يُسَبِّبون متاعب للكنيسة، وذلك خلال فصل الشتاء، وحتى الوقت الحاضر. فكانت هناك استحالة تامة أن أرسل إليك أحدًا أو أقوم بزيارتك[1]].

في عام ٣٧٥م كتب إلى **طبيب مشهور يُدعَى ميليتس** *Meletius*، مُشبِّهًا نفسه بطائر الكركيّ، المعروف بساقيه الطويلتيْن جدًّا وأيضًا رقبته الطويلة بالنسبة لجسمه، فيستطيع بطوله أن ينظر إلى مكان بعيد جدًّا، ويدرك وجود خطر قبل الاقتراب منه، لكن الفارق بينهما أن الكركي يستطيع الطيران من الخطر الذي يراه، أمّا باسيليوس فعاجز عن الطيران. يرى ما سيحلُّ به بسبب الأمراض المتوالية والحُمّى المُتكرِّرة، لكن كيف يهرب؟! يقول:

[لست أظن أن الكركيّ أفضل مني في توقُّع ما يحدث في المستقبل، لكنني عاجز عن الطيران. فإنني لست حُرًّا كالطائر في اختياري للحياة، أو لست مثل الكركي عاجزًا عن الهروب من متاعب الشتاء.

ففي المكان الأول تعوقني التزاماتي في الحياة من الطيران. بجانب هذا، فإن هجمات الحمى العنيفة المتوالية تُحَطِّمني بغير توقّفٍ. ليس أحد صار واهنًا أكثر مني، صرتُ هزيلاً أكثر مما كنت عليه...

فإن حُمَّى الربع (وهى تُصيب المريض يومًا ثم تتركه يومين وتعود إليه في اليوم الرابع) تعود إليَّ عشرين مرّة. الآن يبدو إنني لا أُعاني من الحُمَّى، لكنني هزيل حتى أبدو لست أقوى من نسيج العنكبوت. لهذا تبدو لي أقصر رحلة كأنها بعيدة جدًا، وكل نسمة ريح تبدو لي أكثر خطورة عليَّ من أمواج البحر العنيفة. ليس أمامي اختيار سوى الاختفاء في كوخي، منتظرًا الربيع، إن كنتُ أبقى حيًّا لمدة طويلة ولا أرحل فورًا بمرضٍ داخليٍّ لا أستطيع الهروب منه.

إن كان الرب يُنقذني بذراعه القويّة سألجأ إلى موضعك بسرورٍ، وببهجةٍ أُعانق صديقًا عزيزًا عليَّ هكذا. فقط صلِّ، لكي يُدَبِّر الرب حياتي فيما هو أفضل لصالح نفسي[2]].

٢. مُعاناته من الانشقاق واشتياقه للوحدة

عاصر فترة مُرَّة من **الانشقاقات في منطقته بسبب الفكر الأريوسي أو شبه أريوسي**، وكانت نفسه تئن بمرارةٍ من أجل الرَّغبة في وحدة الإيمان مع وحدة الفكر الروحي والحياة الكنسية بكل جوانبها.

---

[1] *Letter 200 to Amphilochius, Bishop of Iconium. N & PN Frs., Series 2, vol. 5, p. 240.*

[2] *Letter 193 to Meletius the noted Physician. N & PN Frs., Series 2, vol. 5.*

الحق أن القدّيس باسيليوس كان يعيش في دوّامة مُرَّة. فأنطاكية كانت تُعانِي من انقسام خطير بين الأرثوذكس والأريوسيين أو شبه الأريوسيين. هذا وكان القدّيس باسيليوس يكن كل تقدير للناسك يوستاثيوس أسقف سبسطية كما سبق فرأينا. وكان يُشَك في صحة إيمان الأخير. وقد رفض القدّيس باسيليوس أن يدخل في التساؤل بخصوص إيمانه، إذ كان يكن له تقديره العظيم في عينيه.

في مايو ٣٧٢م كان القدّيس باسيليوس في طريقه إلى أرمينيا. ليشارك في مجمع عقده ثيؤدوستس أسقف نيكابوليس *Theodstus of Nicapolis*، في الطريق عبر بسبسطية ودخل في حوار مع يوستاثيوس، وظن القدّيس باسيليوس أنهما في اتفاق تام من جهة الإيمان بالثالوث القدوس. انطلق إلى نيكابوليس مُتهلِّلاً، لكنه وجد أسقفها ثيؤدوستس لا يريد أن يدخل في شركة مع من في شركة مع يوستاثيوس. فيما بعد في رحلته إلى يوسابيوس الساموساطي التقي بثيؤدستس، وظن أنه قادر أن يقنعه بالشركة مع يوستاثيوس، إن وقَّع الأخير على قانون إيمان أرثوذكسي.

إذ حاول القدّيس باسيليوس تجميع الأطراف لم يظهر يوستاثيوس، فتشكك ثيؤدوستس في شخصية القدّيس باسيليوس نفسه. أخيرًا أعلن يوستاثيوس رفضه الشركة مع القدّيس باسيليوس.

قبل هذا لم يكن القدّيس باسيليوس يقبل أي تشكك في يوستاثيوس من أي شخص مهما كان.

ويمكننا أن نلمس مدى **اشتياق القدّيس باسيليوس إلى الوحدة**، وما كانت تُعانيه نفسه من مرارةٍ من الرسائل التالية:

أ. **رسالة إلى أساقفة الساحل:** كتبها عام ٣٧٥م. يرى *Newman* أن يوستاثيوس سبب انشقاقًا وانفصال جزء من ساحل بنتس عن كنيسة قيصرية، الأمر الذي سبَّب كآبة عظيمة في نفس القدّيس باسيليوس حتى بدا كمن عزل نفسه عن كل العالم المسيحي، في غير شركة مع المناطق الأخرى. لكن أشار عليه أساقفة الكبادوك أن يُوَجِّه نوعًا من العتاب لدى هؤلاء المنشقين لعدم حضورهم إليه. جاء في رسالته لهم:

[لديّ رغبة قوية للالتقاء بكم، لكن من وقتٍ إلى آخَر اعترضتني عوائق حرمتني من تحقيق هدفي.

كان يعوقني المرض وأنت تعلمون كيف أنني منذ سنِّي المُبكِّر إلى شيخوختي الحالية يرافقني اعتلال جسدي على الدوام، يقف دومًا فجأة معي، يضربني بحكم الله العادل، هذا الذي

يُدَبِّر كل الأمور في حكمةٍ أو الانشغال باهتمامات الكنيسة أو الصراعات مع المقاومين لتعاليم الحق...

حتى الآن لم تُقَدِّموا لي أيها الإخوة المُكَرَّمون جدًا ما يلزم من جانبكم، وذلك لسببين: إما أنكم لا تدركون الموقف تمامًا، أو تحت تأثير بعض الكوارث التي حلَّت بي وانتشرت في كل مكان، تحسبونني لست أهلاً أن تزوروني في محبةٍ.

لذلك وضعت على نفسي أن أقوم بالمبادرة. وأسألكم موضّحًا إنني مستعد تمامًا أن أواجه في حضوركم الاتهامات الموجهة ضدِّي، بشرط أن يقف الذين يشتمونني أمامي وجهًا لوجه أمامكم أيها الموقَّرون. فإن اقتنعت لن أنكر خطأي.

وأنتم إن اقتنعتم يسامحكم الله على انسحابكم من الشركة معي أنا الخاطي. ويكون للمتهمين لي بنجاحهم مكافأة علانية بسبب شرِّي الخفي.

على أي الأحوال، إن كنتم تدينونني ولديكم الأدلّة قدامكم، فسيكون موقفي أردأ، وأَتَحَمَّل الخسارة لأعزّ ما لدي وهو حُبّكم.

وأنتم أيضًا من جانبكم تحتملون نفس الخسارة إذ تفقدونني، إذ يبدو أنكم تضادون كلمات الإنجيل: "ألعل ناموسنا يدين إنسانًا لم يسمع منه أولاً؟" (يو ٧: ٥١).

أمَّا الذي يسبّني، فإن لم يُدلِّل ببُرهانٍ على ما يقوله، يُظهر أنه لم يقتن شيئًا من أسلوبه الشرير، بل يجلب على نفسه اسمًا شريرًا...

ليت الذي يسبّ يظهر لا كمفتري، إنما ليعترف بسلوكه هذا بما هو أخطأ.

لذلك ليت الذي يسبّ يظهر لا كمفتري بل كمن يتهم. لا، لست أدعوه مُتَّهِمًا بل بالحري أحسبه أخًا، وأنصحه في حبٍ...

لا تضعوا في اعتباركم الآتي: تقولون نحن نسكن على البحر، نحن معفيّون من الالتزام بالأمور العامة. لسنا في حاجة إلى عونٍ من آخرين! فما المنفعة بالنسبة لنا من الشركة الغريبة؟ فإن الرب نفسه الذي فصل الجزائر عن القارة بواسطة البحر، يربط جزيرة المسيحيين بقارة الحب.

ليس شيء يا إخوة يفصلنا عن بعضنا البعض، بل ليزول التغرُّب. لنا ربٌّ واحدٌ، وإيمان واحدٌ، ورجاءٌ مشترك.

تحتاج الأيادي أن تعمل معًا، وتسند الأقدام بعضها البعض. ويصير للأعين رؤية أوضح خلال التوافق بينها.

من جانبنا نعترف نحن بضعفنا، ونطلب مشاعر رفقتكم. فإننا نؤكد لكم أنكم وإن كنتم لستم حاضرين معنا بالجسد، لكن بعون صلواتكم تنفعوننا في هذه الأوقات الحرجة...

وإن كنت ضعيفًا في الجسد، لكن ما دمت أتنفّس، فإنني مُلتزِم بأداء الواجب عليَّ لبنيان كنائس المسيح.

أسألكم ألا تستخفُّوا بتوسلي.

لا تلزموني أن أستعرض متاعبي أمام آخرين.

حتى الآن أيها الإخوة، كما تعلمون جيدًا أحتفظ بحزني لنفسي...

ولكن بينما أنا أكتب هنا بنفسي، أفعل هذا بالاتفاق مع إخوتي في كبدوكية. لقد سألوني ألا أرسل أي رسول مع رسالتي هذه، لأنه من يقدر أن يملأ هذا الموقف...

لذلك اقبلوه في حُبٍّ وأعيدوه إلينا في سلامٍ، حتى يستطيع أن يجلب لنا أخبارًا سارة[1]].

ب. رسالة إلى رجال الكهنوت في قيصرية الجديدة. كتبها أيضًا في عام ٣٧٥م. لقد حملوا له كراهية لأسباب عجيبة ألا وهيَ:

١. تنقية القيادات الكنسية من التعاليم الخاطئة التي لسابيليوس ومارسيلليوس.

٢. نشره طريقة الترنم بالمزامير والتسبيح بالألحان الكنسية على غير المعتاد.

٣. نشر الفكر النسكي الإنجيلي وتشجيع حياة البتولية والرهبانية على أساس إنجيلي.

جاء في الرسالة:

[إنكم تتفقون على بغضكم لي. فقد اتبعتم قائد المعركة ضدّي (أتاربيوس الذي من قيصرية الجديدة *Atarbius of Neocaesarea*. لقد وضعت في فكري ألا أنطق بكلمة لأي أحدٍ... صممت أن أحتفظ بالحزن في صمتٍ لنفسي.

لكن من الخطأ أن أحتفظ بالصمت في مواجهة كارثةٍ، ليس لكي نُبَرِّر أنفسنا بتكذيب ما يُقَال عنّا، إنما لكي لا نسمح للاتهام الكاذب أن ينتشر بعيدًا، ويكون له ضحايا. لذلك فكرت أنه من الضروري أن أعرض الأمر عليكم جميعًا، وأن أكتب إليكم رسالة، مع أنه عندما كتبت مؤخرًا رسالة إلى كل الكهنة بوجه عام لم تكرموني بإرسال ردٍ عليها.

أيها الإخوة لا تسروا ببطلان أولئك الذين يملأون أذهانكم بآراء مُهلِكة. لا توافقوا على التطلُّع باستخفاف عندما يصل إلى علمكم أن شعب الله يفسدون بتعليم غير نقي. ليس أحد سوى

---

[1] *Letter 203 to the Bishops of the Seacoast. N & PN Frs., Series 2, vol. 5, p. 241-242.*

سابليوس الليبي ومارسيلليوس الغلاطي (من أنقرة) تجاسرًا أن يُعلِّما ويكتبا ما يحاول قادة شعبكم أن يُقدِّموه بينكم كاكتشافٍ جديدٍ لهم...

عندما يُسألون عن تلك الحرب العنيفة التي بلا هدنة، يدَّعون أن المزامير ونوع الموسيقى تختلف عمّا هو معتاد بينكم وأمورًا مشابهة، الأمور التي يُلزم أن يخجلوا منها.

إننا نُتَّهم أيضًا أننا نساعد على ممارسة التقوى الحقيقية، هؤلاء الذين يجحدون العالم وكل اهتمامات هذه الحياة، هذه يُشبِّهها الرب بالشوك الذي يخنق الكلمة، فلا تسمح لها بالثمر.

أناس مثل هؤلاء يحملون في الجسد إماتة يسوع. إنهم يحملون صليبهم ويتبعون الله.

إنني بكل سرورٍ أبذل حياتي إن كانت هذه هي أخطائي؛ إن كان معي أناس يعترفون بي كمُعَلِّمٍ اختاروه لمثل هذه الحياة النسكية.

أسمع إن حياة مثل هذه موجودة في مصر، وبعضهم ربما في فلسطين، هؤلاء الذين أحاديثهم تتبع وصايا الإنجيل.

أُخبر أيضًا أن بعض الكاملين المطوَّبين يوجدون في المصيصة (ما بين النهرين).

إننا نحن بالمقارنة بهم نُحسَب أطفالاً. ولكن إن كانت النساء أيضًا يخترن أن يعشن الحياة الإنجيلية، مُفَضِّلين البتولية عن الزواج، مُستأسرين شهوة الجسد، ويعشن حُزنًا يُدعَى الحزن المُطوَّب، هؤلاء مطوَّبون في عملهم أينما وُجِدُوا...

أودّ أن تعرفوا أننا نفرح أن تكون لنا جماعات من الرجال والنساء، تكون سيرتهم في السماء، يصلبون الجسد مع الأهواء والشهوات. لا يفكِّرون في الطعام واللِّباس، بل يبقون بلا قلقٍ بجوار ربِّهم، يُصَلُّون ليلاً ونهارًا. شفاههم لا تتحدَّث عن أعمال البشر، بل يغنُّون بالألحان لله باستمرار، يعملون بأياديهم حتى يوزِّعون على المحتاجين.

أمَّا بالنسبة للاتهام الخاص بطريقة الترنيم بالمزامير التي بها يشوِّه المفترون عليَّ عقول القطيع البسيط، فإجابتي هي هكذا. أن عادتنا الحالية تتَّفق تمامًا مع عادات كل كنائس الله.

اعتاد شعبنا أن يصعد إلى بيت الصلاة في الليل. وبتعبٍ وضيقٍ ودموعٍ يعترفون لله. وبعد هذه الصلوات يُرَتِّلون المزامير. ينقسمون إلى فريقين كل فريق يُجِيب على الآخر. بهذه الطريقة يقوى تأملهم في نص الكتاب المُقدَّس، إذ يركِّزون اهتمامهم ويجمعون قلوبهم... وبعد قضاء ليلة في المزامير مُرصَّعة بالصلوات، إذ يظهر النهار يتَّحدون معًا بصوتٍ واحدٍ وبقلبٍ واحدٍ في الصلاة بمزمور الاعتراف للرب (المزمور الخمسون)، يُعَبِّر كل واحدٍ عن التوبة بصفة شخصية.

إن كان هذا يجعلكم تبتعدون عنًا، فإنكم تبتعدون أيضًا عن المصريين والليبيين، عن الفريقين، وعن سكان طيبة، والفلسطينيين والعرب والفينيقيين والسوريين، والذين يعيشون بجوار الفرات. وباختصار تبتعدون عن الذين في أسهارهم وصلواتهم وتسبيحهم للمزامير معًا يُنظَر إليهم أنهم ساميون[1]].

ج. **رسائله إلى أساقفة الغرب:** في عام ٣٧٦م أرسل القدّيس باسيليوس إلى كنائس الغرب (رسالة ٢٤٢)، كما بعث رسالة إلى أساقفة بلاد الغال وإيطاليا، جاء فيها:

[إلى إخوتي الأعزاء جدًا، مُحِبّي الله، وشركائنا في الخدمة حاملي ذات الفكر، أساقفة الغال وإيطاليا، من باسيليوس أسقف قيصرية.

ربنا يسوع المسيح، الذي يتنازل ويُشَكِّل كنيسة الله الجامعة جسده، ويجعلنا أعضاء لبعضنا البعض، يمنحنا جميعًا أن نعيش في صداقة حميمة مع بعضنا كأعضاء مُتَّفِقَة مع بعضها.

لذلك وإن كنا نسكن بعيدين عن بعضنا، إلا أننا نُحسَب في ارتباطنا القوي قريبين جدًا.

وإذ لا يمكن للرأس أن تقول للقدمين لا حاجة لي إليكما (١ كو ١٢: ٢١)، لذلك فإنني واثق أنكم لن ترفضونا، بل بالعكس تتعاطفون معنا في المتاعب التي تحلُّ بنا بسبب خطايانا، والتي فاقت الحد، ونحن نشارككم الفرح في مجد السلام الذي يهبه لكم الرب[2]].

٣. الإمبراطور يوليانوس الجاحد والإمبراطور فالنس

إن كان الإمبراطور **يوليانوس** قد كرَّس جيشه وطاقاته لتحطيم الإيمان المسيحي، وذلك برفضه الإيمان وعودته للعبادة الوثنية، فإن الإمبراطور **فالنس** الذي حسب نفسه مسئولاً عن تحطيم قانون الإيمان النيقوي، وإلزام القيادات الكنسية خاصة الأساقفة على قبول قانون إيمان شبه أريوسي ورفض النيقوي. وقد رأينا مقاومته للقديس باسيليوس علانية، وحين فشل تظاهر بالكف عن مقاومته، غير أنه استخدم وسائل غير مباشرة ضد القدِّيس باسيليوس، وبقي في مقاومته إلى يوم موته في سنة ٣٧٨م، بينما تنيّح القدِّيس في عام ٣٧٩م حين بدأ الجو يهدأ، فانتقل قبل أن يتذوّق ثمرة جهاده الطويل.

---

[1] *Letter 207 to the Clergy of Neocaesarea . N & PN Frs., Series 2, vol. 5, p. 246-248.*

[2] *Letter 243. N & PN Frs., Series 2, vol. 5.* راجع تكملة الرسالة في الفصل الخاص بحال الكنيسة في عصره

٤. موت بعض الأصدقاء وحلفائه الأساسيِّين

بجانب المرض الشديد الذي كان يشتد عليه، مات بعض الأصدقاء الذين كانوا سندًا له، وحلفائه الأساسيِّين. مع المجهودات الضخمة التي بذلها القدِّيس باسيليوس من أجل الوحدة مع الغرب الذي لم يعانِ من متاعب مثل الشرق بسبب فالنس والقيادات الأريوسية، كان يلجأ إلى البابا أثناسيوس الرسولي، لأنه كان على علاقة وثيقة بأساقفة الغرب، لكن تنيَّح البابا السكندري في مايو ٣٧٣م. وفي سنة ٣٧٤م انتقل الشيخ الوقور غريغوريوس النزينزي.

٥. نفي يوسابيوس أسقف ساموساطا وإدانة القدِّيس غريغوريوس النيصي

في عام ٣٧٤م **نُفِي يوسابيوس أسقف ساموساطا** وآخرون، وكان ذلك بدء حركة مقاومة ومعركة أثارها شبه الأريوسيين تحت رعاية الإمبراطور فالنس.

رفع الأريوسيون وشبه الأريوسيين رؤوسهم ثانية، إذ **عقدوا مجمعًا في أنقرة** أدانوا فيه أصحاب عقيدة المساواة في الجوهر. لقد ضايق ديموستينيس *Domosthenes* النائب الإمبريالي في بنتس الأرثوذكس في عام ٣٧٥م. إنه لم يتحدَّ القدِّيس باسيليوس مباشرة، لكنه سند الأريوسيين في اتخاذ إجراءات كيدية ضد القدِّيس غريغوريوس النيصي، وكان الغرض منها جرح باسيليوس في شخص أخيه. وانتهوا إلى عقد المجمع في نيصص ذاتها وحكم بإدانة غريغوريوس وعزله، ونُفِي بعد ذلك بوقتٍ ليس طويل، فاضطر إلى الهروب.

٦. المتاعب الداخلية

سبق أن تحدثنا قبلاً عن **المتاعب الداخلية** في الكنيسة، وقد ازدادت جدًا في **السنوات الختامية من حياته**، أي في الست سنوات الأخيرة من حياته (٣٧٣ - ٣٧٩م).

كل المقاومة الخارجية لم تشغل القدِّيس باسيليوس مثلما شغلته المتاعب الداخلية التي كانت حتى بين المتَّفقين معه في الإيمان، أو الذين يظهرون كمتَّفقين فيه، من ذلك.

أ. أطلق يوستاثيوس أسقف سبسطية هجومًا على باسيليوس بأن نشر وثيقة كتبها أبوليناريوس أسقف لاودكيَّة أوضح فيها أن الأخير عَلَّمَ بالسابيلية، أي عدم التمايز بين الأقانيم الثلاثة، واتَّهم باسيليوس أنه سند أبوليناريوس في ذلك. هذه الوثيقة ضعيفة، ويُعرَف عن أبوليناريوس أنه لم يَتَبَنَّ السابيلية، وإن كان قد أخطأ بإنكار أن ناسوت السيد المسيح كامل، إذ ادَّعى أن اللاهوت حَلَّ محل العقل البشري فيه. وقد سبق لنا الحديث عن هذا الموقف عند

حديثنا عن القدّيس البابا أثناسيوس الرسولي الذي مع صداقته له هاجم هذا الفكر دون أن يذكر اسمه.

ب. أساء البعض النظر إلى القدّيس باسيليوس، فمع أرثوذكسية إيمانه بالثالوث، كان في حواره مع شبه الأريوسيين يحاول أن يكسبهم بلطفٍ، ولكن ليس على حساب استقامة الإيمان .

ج. استغل البعض صداقته مع يوستاثيوس وشركته معه في أعمال رعوية. هذا وقد سبق أن رأينا أن يوستاثيوس نفسه بعد ذلك هاجم القدّيس باسيليوس وقطع شركته معه.

٧. متاعب مقاومي الروح القدس

في هذه الفترة العصيبة (سنة ٣٧٥م) لم يعانِ فقط من أمراضه الجسدية التي أصابته بنوع من العجز عن الحركة والالتزام بالهروب إلى كوخه، وهو ليس بأقوى من نسيج العنكبوت. وأيضًا ما حلَّ بجسم الكنيسة من متاعب من كل جانبٍ، يُضَاف إلى ذلك مرارة نفسه من مقاومي الرُّوح القُدُس *Pneumatomachi (Spirit Fighters)*، الذين كانوا حوله يُعَلِّمون بأن الرُّوح القُدُس مخلوق.

في سبتمبر ٣٧٤م غالبًا في احتفاله السنوي بعيد القدّيس يويسيخوس *St. Eupsychius* هوجم القدّيس باسيليوس بطريقة عرضيه للعلاقة بين الآب والابن والرُّوح القُدُس. طلب منه أمفيلوخيوس أسقف أيقونية الذي كان حاضرًا الاحتفال أن يكتب توضيحًا للتعليم الحقيقي في هذا الشأن. وخلال عام ٣٧٥م كتب مقالة "عن الرُّوح القُدُس" وأرسلها إلى أمفيلوخيوس، أرجو أن أشير إليها في بند "الرُّوح القُدُس عند القديس باسيليوس الكبير".

نياحة القديس باسيليوس الكبير

الإعداد العجيب للرحيل!

لا نُدهش إن كانت كتابات القدِّيس باسيليوس قد تزايدت جدًا في السنوات الأخيرة من حياته، وذلك بفضل نعمة الله الفائقة، وحب الله العجيب لخدّامه وسط اشتداد عواصف الضيق والمتاعب في الخارج والداخل:

١. قدَّم لنا الرسول بولس خبرته العملية بقوله إنه كلما كثرت الآلام، ازدادت خبرته في الحياة المجيدة المُقامة. وسَجَّل لنا داود النبي وسط آلامه المُستمرّة الكثير من المزامير والتسابيح التي تملأ النفس بتعزيات إلهية. هكذا أيضًا القدِّيس باسيليوس، وقد اشتدّت به العواصف، تَمَتَّع بتعزيات إلهية ترجمها عمليًا خلال خدمة الكلمة المقولة والمكتوبة، فرفع بروح الله شعبه فوق الأحداث المُرَّة.

٢. في السنة السابقة لرحيله من هذا العالم كرّس فترة الصوم الكبير لسنة ٣٧٨م للتأمل مع الشعب في أيام الخليقة كما وردت في سفر التكوين، فلمس الكل يدّ الله القدير الذي أبدع في الخلقة من أجل إشباع احتياجات الإنسان، هذا الخالق القدير لا يكف عن الإعلان عن عنايته الإلهية ليهب سلامه وفرحه الإلهي لشعبه المحبوب لديه وكل مؤمنٍ.

عبوره من هذا العالم

بعد رحلة طويلة وفي وسط ضيقات ومتاعب لا تتوقَّف مع تعزيات إلهية لا تنقطع، اختبر خلالها القدِّيس بركات النصرة، وتلامس مع يد الله العجيبة، أخيرًا سَلَّم روحه في يديّ الله، وهو يَتَرَقَّب الرحيل في أية لحظة.

لسنوات طويلة كان القديس باسيليوس الكبير يتوقَّع لحظات رحيله، وهذا كان يدفعه بالأكثر نحو العمل المُستمر. أخيرًا، لم يعد جسمه قادرًا على تحمُّل الأعباء، فقد مزَّقه العمل المتواصل والمرض، وعانى كبده من حالة مزمنة كانت مثار ألمه وشكواه دائمًا، كما كانت قسوة الشتاء تحجزه أحيانًا كثيرة كسجينٍ في منزله، بل وفي حجرته.

في سن الخامسة والأربعين دعا نفسه عجوزًا. وفي السنة التي تلتها خلع كل أسنانه. وفي شتاء ٣٧٨م اقترب إلى الموت. وانتشر النبأ، ووصل الأساقفة إلى قيصريَّة. كان يُعالَج بحمَّامات ماء ساخن، ولكن فائدتها كانت ضئيلة. وأخيرًا لم يعد العقل الجبَّار، ولا الحماس المُلتهب نحو

الواجب قادرًا على تحريك طاقات ذلك الهيكل الضعيف. وأحاطت الجموع بالمكان الذي كان يرقد فيه، لتصلِّي بحماسٍ لكي يبقى معهم.

في أول يناير سنة ٣٧٩م وهو لم يبلغ بعد الخمسين من عمره، سُمِعَ يخاطب الله بروح القوة، بكلمات نشتهي نحن جميعًا أن ننطق بها عند رحيلنا، قائلاً: "**بين يديك أستودعك روحي**" (مز ٣١: ٥؛ لو ٢٣: ٤٦)[1]، وللحال انطلق الروح العظيم. وكانت جنازته مشهدًا لمشاعر القلوب الجيَّاشة والوقار الذي يُذهِل العقل. شغلت الجموع كل فسحة وكل دهليز، وكل نافذة، واشترك الوثنيُّون واليهود والمسيحيُّون في تشييعه، وغطَّت أصوات البكاء والعويل موسيقى التراتيل الدينيَّة. وكان كل إنسانٍ يطلب أن يلمس هدب ثوبه أو جثمانه، إذ حُمل جثمانه في نعشٍ مفتوح في الطريق. ودُفِنَ القدِّيس في قيْصريَّة، وانضم إلى آبائه.

يروي لنا صديق عمره القديس غريغوريوس النزينزي أنه نال قوة جديدة وهو يودِع نصائحه لتلاميذه. لقد كان القديس غريغوريوس مريضًا جدًا، لم يستطع الاشتراك في الجنازة، وبعد عامين كتب فيه رثاءً عظيمًا، صار من أحد المصادر الرئيسية لحياة باسيليوس، ونموذجًا حيًّا لعظة عملية. سَجَّل لنا علاقتهما الحميمة منذ شبابهما: "بيت صداقتنا، أثينا الجميلة، حيث أحببنا بعضنا البعض في رفقة تقوم على حياة تقوية أصيلة"[2]].

كتب إلى صديقه وسميّه أسقف نيصص رسالة رائعة، جاء فيها:

[هكذا عشت لأرى نياحة باسيليوس، ورحيل تلك النفس المطوّبة إلى حضرة الله الذي كان يُصلي إليه كل أيام حياته[3]].

كما كتب: [الآن يا للعزلة الشديدة التي حَلَّت بالكنيسة التي تفقد مجده على الأرض، فلم تعد تتزيَّن بتاجه[4]].

بقيت حياة القديس تسحب قلب أخيه القديس غريغوريوس أسقف نيصص كل أيام حياته، فبعد نياحة القديس بثمان سنوات انطلق إلى أنيسي حيث كانت أختهما ماكرينا تعيش كراهبة. وإذ رآها في مرضها الأخير قُبَيْل نياحتها تحدث عن أخيه وكانت دموعه تغلبه. أمَّا هي ففي شجاعة قالت له: إنها قريبًا تراه أمام عرش الله... وبعد فترة قصيرة ربما أقل من ساعة سَلَّمت الروح.

---

[1] القدّيس غريغوريوس: على القدّيس باسيليوس ٧٨-٧٩.

[2] *Epitaph 119.*

[3] *Epistle 76.*

[4] *Epistle 76.*

تحقّقت صلوات القديس باسيليوس، واستجاب الرب لجهاده، فقد انعقد مجمع القسطنطينية المسكوني في عام ٣٨١م، لإعادة وحدة الكنيسة، ويؤكِّد لاهوت الرُّوح القُدُس في قانون الإيمان الذي طالما كرَّس القدِّيس طاقته لتأكيد هذا الإيمان. وقام الإمبراطور ثيئودوسيوس الكبير بتوحيد الكنيسة، فاتحًا الباب لكل مَنْ يرغب في الانضمام إلى إيمان نيقيَّة.

مشهد جنازته وحفل تأبينه

صوَّر لنا صديقه القديس غريغوريوس النزينزي **مشهد جنازته**، مُعتبِرًا جنازته حدثًا لم يرَ مثله من قبل، إذ انتشر خبر نياحته انتشارًا واسعًا في وقت قصير جدًا، وسعى الكثيرون لحضور جنازته، وتوافد الكثيرون على مدينة قيصرية، وشارك في هذه الجنازة عشرات الألوف من الناس من داخل المدينة وخارجها، وكانوا يُشَكِّلون خليطًا من جميع الأعمار والأجناس والديانات منهم الرِّجال والنساء والشيوخ والشباب، ويونانيون قيصريون وغير قيصريين ولاتين ومسيحيون ويهود ووثنيون، وقد ملأوا الساحات والميادين والشوارع، واحتشدوا على أسطح المنازل وفي الشرفات، وكان كل شخصٍ يريد أن يُلقي عليه نظرة الوداع الأخيرة أو يلمس أذيال كفنه أو يشارك في حمل نعشه أو يلمسه ويتبارك به، وحضر الجميع صلوات الجنازة، وكان صوت بكائهم وصراخهم يعلو فوق صوت الشعائر الدينية. وبعد انتهاء المراسم حمل الناس النعش وساروا به إلى مدفن الآباء الأساقفة ورؤساء الأساقفة ودفنوه هناك[1].

أمّا عن **حفل تأبينه** ففي نهايته طفق القديس غريغوريوس ينتحب ويندب صديقه، ويحسب موته خسارة فادحة أصابته وأصابت الكنيسة والشعب على اختلاف فئاته ودرجاته، وحسب نفسه أن أصبح يعيش بنصف جسم أو بجسم دون روح من بعد وفاته، وبدء يشعر بالخوف مما يخفيه المستقبل له الذي سوف يعيشه وحده دون إرشاده وتشجيعه، وتمنَّى أن يُسرع الزمن ويعجّل بنهاية حياته حتى يذهب إلى صديقه في السماء ويحيا معه في حياة مطوَّبة خالية من الألم والحزن والمرض، حياة أبدية لا تنتهي[2].

---

[1] *Greg. Naz. Oration 43:80 The Panegyric on St. Basil.*

[2] *Greg. Naz. Oration 43:80-82 The Panegyric on St. Basil.*

سِمات القديس باسيليوس الكبير

[باسيليوس، راعي ذو مهابة عظيمة، وكرامة فذّة حتى اليوم. أعماله لازال لها تأثيرها القوي على جوانب مُتعدِّدة في العالم المسيحي، من جهة الثقافة وكتابات الآباء والليتورچية والروحانية الرهبانية[1]]. أمّا أهم سِماته، فهيَ:

١. وضوح الهدف

ما كان يشغل قلب كل من القدِّيس باسيليوس وصديقه القدِّيس غريغوريوس أثناء دراستهما في أثينا هو البحث عن هدفهما أو رسالتهما في الحياة، وقد اكتشفا أن الفلسفة الحقيقية أو سرّ السعادة في الشركة مع الله مُخَلِّص البشرية.

لم يكن يشغل قلب باسيليوس التنظيمات الإدارية سواء وهو راهب أو كاهن أو أسقف، إنما كانت تشغله "الحياة في المسيح يسوع". لهذا، كان كل ما تمتد إليه يداه، ينجح فيه. **ككاهنٍ ثم رئيس أساقفةٍ** قام بدور حيوي في الدفاع عن الإيمان النيقوي. **وكلاهوتي** اهتم بالكتابة ضد إفنوميوس الأريوسي، ومقالٍ عن الروح القدس. **وكراعٍ** أنشأ مستشفى للمرضى، وفندق للفقراء، وسندهم بشبكة قوية للأعمال تسندهم حتى بعد موته[2].

في **رسالته إلى مقاريوس ويوحنا** "وماخرينوس" (كما ورد في بعض المخطوطات)، أوضح أن المتاعب لا تُحَطِّم المؤمن مادام الهدف واضحًا أمام عينيه:

[متاعب الحقل الثقيلة ليست بالأمر الجديد لفلاّحي الأرض؛ ولا يدهش البحّارة إن واجهوا عاصفة في البحر.

العرق في حرارة الصيف خبرة عادية للعاملين الأجراء. وهكذا الذين يختارون الحياة المقدسة، فإن أحزان هذا العالم الحاضر ليست بالأمر غير المتوقع بالنسبة لهم. كل واحدٍ من هؤلاء لديه معرفة المتاعب التي لدعوته، وهم يختارونها ليس من أجل المتاعب ذاتها، بل من أجل تمتعهم بالأمور الصالحة التي يتطلّعون إليها...

بين هؤلاء أولئك الذين يتعبون لأجل القداسة والحق لا يتحطّم رجاؤهم بأي خداع، **لا شيء يقدر أن يُحَطِّم مجهوداتهم**، لأن ملكوت السماوات الذي ينتظرونه ثابت وأكيد. لهذا طالما تكون كلمة الحق في جانبنا، لا يمكن أن تتضايقوا بسبب أيّة كارثة تحل. لا تدعوا

[1] *Luigi Gambero: Mary and the Fathers of the Church, San Francisco, 1999, p. 142.*

[2] *Cf. Robert Louis Wilken: The Spirit of Early Christian Thought, 2003, p. 138.*

التهديدات الإمبريالية تفزعكم، لا تحزنوا لأجل الضاحكين والساخرين بمعارفكم، ولا بالآراء غير المقبولة التي يُقدِّمها لكم من يتظاهرون بتقديم نصائح لكم بينما هم يقدمون متاعب.

في المعركة مع هؤلاء جميعًا، استخدموا التعقل باستدعاء معونة ربنا يسوع المسيح، مُعَلِّم القداسة. **فالتألم من أجله حلو، والموت ربح** (في ١: ٢١)[1]].

٢. انشغاله الدائم بمعرفته لنفسه

ما كان يشغله تركيز عينيْه على أعماقه ليذكر على الدوام أنه إنسان الله.

❖ انتبهوا لأنفسكم، ليس لِمَا هو لكم ولا لِمَا يحيط بكم، وإنما لأنفسكم بالذات، لأنه يوجد فارق بين هذه الأمور. فالنفس هي ذاتنا، هي نحن وهي صورة الله فينا. وما لنا فهو جسدنا وحواسنا المُتعلِّقة بالنفس؛ وأمّا ما يُحِيطنا فهو الغِنَى ومختلف طيِّبات الحياة[2].

❖ تُنَبِّهك الأسفار المُقدَّسة إلى الاهتمام كثيرًا بنفسك. فلا تهتم بالجسد، ولا بما هو مُرتبِط بالجسد، كالصحة والجمال، واللّذة والعمر المديد. كذلك لا تعر اهتماماً كبيراً للغِنَى والمجد والسُّلطان، وكل ما هو مرتبط بالحياة الأرضية. ولكن اهتم بنفسك فوق كل شيءٍ. فهذه هي الكنز الثمين لك. زيّنها بالفضائل، نَقِّها من الخطيئة، وجمّلها بزينة الفضيلة التي هي أجمل زينة. تأمّل جيدًا بهذه الفكرة: إن الجسد يزول ويفنى، أمّا النفس فخالدة[3].

القديس باسيليوس الكبير

٣. المحبّة والصداقة

أبرز صفات القدِّيس باسيليوس "**المحبَّة**" في شتَّى صورها، لله وللكنيسة وللآخرين. كتب مرَّة إلى أسقفٍ صديقٍ، يقول: [إننا نشعر بجوعٍ متزايدٍ نحو الحُب... أنا في حاجة إلى إخوة أكثر ممَّا تحتاج يد إلى اليد الأخرى].

وكان استلامه رسالة من صديق له بمثابة "الماء لجواد السباق المُتعَب"، كما عبَّر هو عن ذلك. ويقول في إحدى رسائله: [إن الشخص الذي يُفكِّر في نبذ صديقٍ، عليه أن يُفكِّر طويلاً، ويمضي الليالي قلقًا بدون نومٍ، يطلب إلى الله بدموعٍ أن يرشده إلى الحق].

---

[1] *Letter 18.*

[2] *Hom. 3, in illud, PG 31:203 a*

[3] راجع الأب إلياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣١٥. عظة ٣: ٣.

علـى ضـوء هـذه المحبَّـة، يمكننـا أن نـدرك مقدار الحـزن الـذي سـبَّبه حـال الكنيسـة فـي أيامـه إلـى روحـه المملـوءة حبًـا وتقـوى. وقد كـان قصـده - بالإضـافة إلـى رد الكنيسـة إلـى المُعتقد القويم - أن يسود فيها روح المحبَّة نتيجة لوحدتها. وقد أثَّر مسلك الكثيرين الخاطئ على صحَّته.

سبق أن رأينـا فـي رسـالته الثانيـة التـي بعث بـه إلـى صـديقه الحميم القدِّيس غريغوريوس حُبِّـه وحكمتـه، فاجتذبـه ليرافقـه طريـق رهبنتـه. الآن أُقـدِّم لمسـات محبتـه لأصـدقائه، ففـي عام ٣٦٣م قبل سيامته كاهنًا، بعث بعض رسائل لأصدقائه تكشف عن شخصيته المملوءة حُبًّا:

ففي **رسالته إلى أولمبيوس** *Olympius*، وهو أحد مواطني قيصرية الجديدة الأغنياء، كتب:

[إعتدت أن تكتب لي على الأقل كلمات قليلة. أمَّا الآن فلا تكتب حتى القليل. يبدو أن اختصـارك ازداد مـع الزمن حتـى تحـوَّل إلـى صـمتٍ كاملٍ. لهذا أرجـوك أن تعـود إلـى طرقـك القديمة، وإنني لن أشكو طريقة اقتضـابك للكـلام. فإنني سأقبّل ملاحظاتك القصيرة بفرحٍ عظيمٍ، علامة حُبِّك العظيم. يكفي أن تكتب لي[1]].

وجاءت رسالته التالية إليه تكملة للسابقة، إذ كتب: [كما أن كل الفواكه تأتي في أوانها، هكذا كل شيءٍ بالنسبة لنا له أوانه اللائق. فالزهور في الربيع، والحنطة في الصيف، والتفاح في الخريف، هكذا فصل الشتاء للحوار[2]].

وعندما طلب منه **القديس أمبروسيوس** أن يرد رفات ديوناسيوس الميلاني، الذي تنيح في المنفى من أجل إيمانـه في كبادوكية، استجاب في الحال لطلبه، وكتب له رسالة رقيقة، امتدح فيها كثيرًا كهنة ميلان الذين ذهبوا إليه لإحضار الرفات، وأظهر إعجابه بالأسقف الذي أرسلهم. جاء في رسالته:

❖ إنسان الله! إنك لا تتعلَّم إنجيل المسيح من بشرٍ، بل من الله نفسه، الذي أخذك من كرسي الولاية الرومانية، ووضعك على عرش الرسل، لتُجاهِد الجهاد الحسن. ذلك حتى تشفي مرض الأريوسية من شعبك.

---

[1] *Letter 12.*
[2] *Letter 13.*

لتُجدِّد الطرق القديمة التي للآباء، ولا تنسى أن تكتب لي على الدوام، حتى لا تضعف صداقتنا قطّ. فنبقى على الدوام أقرباء بالرُّوح بالرغم من بُعد المسافة التي تفصل بيننا على الأرض[١].

القديس باسيليوس الكبير

في حديثنا عن رسائله في الفصل الخاص بكتابته نُقَدِّم أمثلة أخرى عن مدى حرصه على اقتناء أصدقاء وارتباطه الروحي بهم.

٤. الحكمة

في تأبين القديس غريغوريوس النيصي له تحدَّث عنه كأسقف "علَّم كل أحدٍ الحكمة الإلهية الزمنية *exothen* (أي من الخارج)[٢]".

كان يستخدم الحكمة الزمنية كسلاحٍ لمواجهة بعض الأشخاص مثل أريوس الذي كان يخلط التعليم الهيليني في تعاليمه[٣]. فقد كان القديس باسيليوس مُتشبِّهًا بموسى النبي الذي تَعَلَّم حكمة المصريين، فاستخدمها ضدهم لصالح شعبه. وقد أكَّد القديس غريغوريوس أن أخاه لم يكن بالقصبة التي تحركها الآراء المضادة، إنما أكد بحياته أن هذه الآراء لم تكن تهزه[٤].

سنعود للحديث عن اهتمامه بأن يهتم المؤمنون بالدراسات الزمنية دون انحراف عن الفكر الإنجيلي.

٥. عطفه على الفقراء والمرضى

كان عطفه على الفقراء والمرضى عظيمًا. لقد عاش فقيرًا باختياره مُتشبِّهًا بسيِّده، أحبَّ الفقراء، وكان يشكو المرض مُعظَم وقته، ولذا أحب المرضى، وعطف عليهم، وليس أدلّ على ذلك من مستشفاه العظيم الذي أسَّسه بجوار قيْصريَّة، والذي عُرِفَ باسم باسيلياد، وكانت فيه عناية خاصة بالمجذومين الذين حُرِمُوا من العناية في كل تلك الأصقاع، والذين لم يأنف من تقبيلهم أحيانًا إظهارًا لحنانه عليهم. ويذكر القدّيس غريغوريوس أنه [كان يجمع في الساحات كل الجياع من رجالٍ ونساءٍ، أولادٍ وشيوخٍ، من كل من كان في حاجةٍ إلى عونٍ ورعايةٍ، ثم يجمع كل ما يقتات به، من كل ما يمكنه أن يغيث الجائعين، ويخفِّف من ألم تلك البطون الفارغة، ثم يعمل منها قدرًا مملوءة من الخضار العصيدة وأنواعًا مملَّحة ممَّا هو لدينا يكون طعامًا للفقراء.

---

[1] *Epistle 197.*
[2] *E.J. Brill 110: 10*
[3] *Brill 110: 15.*
[4] *Brill 120: 17-19.*

ويعدها يتمثّل بمعلّمه الإلهي الذي ائتزر بالمنديل وغسل أرجل تلاميذه، فيدور مع أصحابه يعالج أجساد المتعبين، ويعزّي أنفس اليائسين، مبديًا لهم علامات الفرح والاحترام، عاملاً على تخفيف وطأة الكارثة على نفوسهم[1]].

٦. زهده وتقشّفه

على الرغم من مرضه الطويل، ومن عمله المضني، لم يكن يتناول غير وجبة واحدة في اليوم من الخضروات والخبز والماء. جاء في رثاء القدّيس غريغوريوس له: [إنه لم يكن يملك إلاّ رداءً واحدًا وعباءةً واحدةً؛ وفي البريّة، كان يفترش الأرض، يحرِم نفسه من أمورٍ كثيرةٍ، وكثيرًا ما كان ينتابه الأرق. كان طعامه المُفَضّل الخبز والملح... وفي هذا كله كان يجد زهوه ومجده[2]].

٧. شجاعته

لعلّ من أبرز صفاته أيضًا "شجاعته" النادرة، وقد عرضنا فيما سبق موقفه أمام الإمبراطور الأريوسي فالنس وحاشيته، وسبقتها وقفات أيضًا ضد الإمبراطور يوليانوس المُرتد، وكيف كرّس وقته في وحدته لتصنيف الكتب ضدُّه. عرف الناس فيه هذه الصفة، فلجأوا إليه، واحتموا به من الحكام.

بشجاعةٍ كتب القدّيس باسيليوس إلى كبير موظفي الجباية قائلاً: [لتعلّم أن هذا الكاهن الذي يحمل لك الرسالة جدير بثقة حكمتك، لأنه يخاف الرب؛ ولتأخذ على عاتقك قضيّة الفقراء، فتؤمّن لهم العون على قدر استطاعتك، كما تتفضّل بزيارة المأوى الذي تحت إدارته وإعفائه كليّة من الضرائب. وعلى هذا فقد سبق وسرَّ رفيقك بأن يستثني ميدان الفقراء من هذه الأعباء العامة[3]].

كما كتب إلى مراقب الجباية: [إذ أُفكّر بأنه يتحتّم عليّ الاهتمام بهم (أي الرهبان) قدر استطاعتي، فإني أكتب إلى شخصكم الكريم بأن تعفي أولئك الذين تخلُّوا عن الحياة، وأماتوا أجسادهم إلى حد لم يعد باستطاعتهم تأدية الخدمات العامة لا بأموالهم ولا بأجسادهم؛

---

[1] الأب إلياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٤٣.

Grégoire de Nazianze: Discourse funèbre. Trad Boulenger, Paris 1908, p. 134

[2] الأب إلياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٣٩.

[3] *Epistle 142.*

فهُم يعيشون طبقًا لنذورهم، وبالتالي لا يملكون أي شيءٍ لاستعمالهم الخاص؛ أموالهم وخيراتهم تركوها لجماعة المعوزِّين، وأجسادهم أذابوها بالأصوام والصلوات[1]].

٨. حُبّه الشديد للكمال

كان **عدوًّا بطبيعته لأي شيء غير كاملٍ أو غير مُنظّم**. هذا الحُبّ الشديد للكمال هو السرّ فيما خلفه لنا من تراثٍ. لذلك كان يبغي في نظامه الرهباني الحياة المدققة المنظّمة. [لا يذهب الراهب خارج حدوده، ولا يدخل إلى موضعٍ، لم يُطلَب منه الذهاب إليه، ما لم يكن لديه إذن من السلطات المسئولة]. ولعلّ هذا كان له أثره حتى على خدمته ورعايته كما على شخصيته.

إنه لا يتستر على العيوب ويتوارى عنها كالنعامة، وكأنه غير سامع بها، بل يكشفها لأصحابها بلطفٍ ووداعةٍ. وهكذا يطلب من الناس أن يعاملوه. ولا مانع عنده إن قسوا عليه وأزعجوه. يكتب لأحدهم مُجيبًا وقد كان قاسيًا على ما يبدو في كلامه مع الأسقف باسيليوس، فيقول له [إذا كان الكلام الذي نسبته إلينا - من أخطاء - آتيًا من رأيك فينا، فصلِّ كي نهرب من الانحراف الذي اكتشفته في عوائدنا. وأما إذا كان بسبب عادة لا واعية انزلق إليها لسانك، فنحن نتعزَّى ونسأل طيبتك أن تؤدي الوقائع وتشهد لها].

٩. تواضعه

اتَّسم **بالتواضع**، فلا يخاف أن ينتقده الآخرون في تصرُّف أو فكر، بل هو نفسه يُشَجِّع على أن ينتقدوه. فعندما كتب إلى أحد أصدقائه السوفسطائيّين ليونتيوس، أرسل إليه مع الرسالة وطلب إليه أن يُوَبِّخه على تقصيراته في الكتابة أن وجدها. ثم يحثّه على النقد قائلاً:

[هكذا يتميَّز الصديق من المدَّاح. فالثاني يقول ليسر أمامه الأول فلا يتأخر عن قولٍ ما يزعج. وأن وجهوا إليه القول المزعج بالنقد فهو لا ينزعج، بل يتقبّله برحابة صدر، خاصة إذا جاءه من المُحِبِّين.

إذا وجدت فيَّ عيبًا، فلن أغضب ولن أنزعج.

وأنا لست فوق الإصلاح حتى أتعجَّب من توبيخات المحبة التي يُوَجِّهها لي إخوتي].

لا يَدَّعي باسيليوس أنه بلا لوم. فهو يعرف ضعفاته، ويبكي من أجلها، ويطلب من مُنتقديه أن تكون عينهم بصيرة أولاً، وإذا رأوا قشّة عنده فلينزعوها. وهو يعترف أنه في حاجةٍ إلى

---

[1] *Epistle 284.*

مثل هؤلاء. ويطلب من أهل قيصريّة الجديدة، إذا كانت عيوبه تعالج، أن يأتي منتقدوه بالطبيب، ويعملوا بنصيحة الرسول الذي يقول: "وبّخ، انتهر، عِظ" (٢ تي ٤: ٢).

وإذا كانت لا تُعالج، يسألهم لماذا لا يعارضونه وجهًا لوجه، وينشرون عيوبه وينقذون الكنيسة من الذي يسببه. ثم يتحدّاهم بأن يجمعوا الأساقفة والإكليروس من كل رعيّة، ليسموا ويعلنوا رأيهم بصراحة ليصلوا إلى برهان دون أن يؤخذوا بالوشاية التي يسهل على أيٍّ كان أن يفبركها ويروّجها. يتحدًّاهم بأن يضعوا، بدون كراهيةٍ أمام عينيه الخبث الذي ينسبونه إليه وأن ينذروه كأخ.

إذ شعر القديس بشغف الشعب الشديد نحو الاستماع إلى كلماته، اعترف بضعفه علانية، مُشبِّهًا نفسه بأمٍّ عاجزةٍ عن إرضاع طفلها.

❖ إذ قارنت شغفكم للاستماع بضعف إمكانياتي، يثور في ذهني تشبيه معين لطفلٍ صغيرٍ نشيط لم يُفطَم من لبن أُمّه. إنه ثائر على ثديي أُمّه الجافين في ضعفٍ.

إذ تدرك الأم أن مصدر لبنها قد جفَّ، تُقَدِّم له صدرها لا لتقوت الطفل، إنما لمُجرّد توقُّف صراخه. يسحب الطفل الثديين ويضغط عليهما.

هكذا وإن كانت قوتنا قد جفَّت بسبب المرض الجسدي لزمانٍ طويلٍ وأمراضٍ متنوعة، ها أنا أقدمه لكم دون استحقاق لمديحكم، إنما أقدمه من أجل كفايتكم، لأن حبكم الرائع قوي، فيُشبِع اشتياقكم لنا حتى بمُجَرَّد سماع صوتنا[1].

القديس باسيليوس الكبير

١٠. فصاحته

تميَّز أيضًا **بالفصاحة**، سواء كخطيبٍ منبريٍّ أو كاتبٍ بليغٍ. كان يتابع الفكرة بكل قوّة العاطفة السامية، وسِحر البيان، واقتناع المختبر، وفي يُسر هائل. وحين كان يعظ كانت كلماته ذات تأثيرٍ عجيبٍ.

يقول في رسالة إلى أحد الآباء، يُعزِّيه في موت ابنه:

[إنها فعلاً لمصيبة جسيمة حلَّت بك، أيها العزيز، وقد كان لها عظيم الأثر في نفسي، بكوني الأب الروحي الذي يحب بنيه ويتألَّم لآلامهم.

---

[1] *Homily 20:1, A Psalm of David on Hope in Defeat (On Ps 59 LXX).*

لا تُقدِّرن مدى الحُزن الذي انتاب قلوبنا ساعة سمعنا بذاك الخبر المشئوم، فلم نستطِع كَبت دموعنا التي انهمرت غزيرة حُزنًا وأسى على الشباب الناضر... ولكن هكذا شاء الله، وهذا هو مصير الإنسان...

لا تتألَّم أيها الابن المحبوب على أن ولدك فارق الحياة وهو بعد في عنفوان الشباب، وغادر الوجود دون نسل.

لتُسَلِّم ذاتك بالكليَّة إلى إرادة الرب، وتشكر تدابير عنايته الإلهيَّة...

وها مثالنا في الضيقات أيوب الصدِّيق الذي رضي بما حلَّ به، مُرَدِّدا قول الحكمة الكاملة: "الرب أعطى، والرب أخذ، لقد صنع ما شاء، ليكن اسم الرب مباركًا"[١]].

وبنفس الشعور القلبي يرسل معزيًا إلى إحداهن وقد فقدت زوجها، حاثًّا إيَّاها على إكمال طريق الكفاح ولو بمفردها:

[من لم يذرف الدموع على موت هذا الرجل العظيم؟

أي قلبٍ من حجرٍ لم يلن أمام هول الكارثة؟

أما بالنسبة إلى فقده، انتابني حزن لا يُوصَف، خصوصًا عندما تذكَّرت تلك الحماية الكريمة التي كان يشمل بها الكنيسة. ولكن الله الذي أوكله على هذه الخدمة الشريفة هو ذاته العالم بمصائرنا قد نقله إلى جواره...

فنحثكِ أيَّتها الابنة على اعتبار هذه الأمور، أن تجعلكِ تتحملين الألم بصبرٍ وهدوءٍ.

إن الظروف مؤاتية لتخفي من مرارة قلبك وتنقادي لأوامر عقلك...

فمطالعة الكتب المقدَّسة مفيدة لكِ في مثل هذه الظروف التعيسة...

أُحرِّضك بأن تهتمّي بأُمِّكِ التي أثقلتها الشيخوخة، وبابنتكِ التي ما تزال شابة قاصرة، وأنتِ أصبحتِ الآن سندها الوحيد.

كوني قُدوة صالحة لبقيَّة النساء...

إن أولادك يبقون الصورة الحيَّة للذي تبكينه؛ فليكن اعتناؤك بتربيتهم حسنًا، وفيما تبقَّى من وقتكِ إعملي لتكوني مرضيَّة أمام الله، ناظرة بأعين الرجاء إلى تلك المكافآت السماويَّة التي وعد الله بها الصابرين على المضايق حتى النهاية[٢]].

---

[١] الأب إلياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٤٣-١٤٤. *Epistle 300*

[٢] الأب إلياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٤٤. *Epistle 269*

وكتب إلى نكتاريوس يُعَزِّيه في رحيل ابنه:

[هل من حاجة لأقول لك: كم ذرفت من الدموع، وأصعدت من الزفرات المؤلمة؟

ومن يقدر أن يكون غريبًا عن هذه الفاجعة، ولا ينشق قلبه حزنًا ولوعة؟...

ولكن إذا شئنا أن نبكيه كما يليق، فليس الزمان الحاضر بكافٍ لذلك! ولو تحوَّلت مياه الأنهار كلها إلى دموع، لما ظننت أنها كافية لتدليل كبير حزننا عليه!...

ولكن ماذا يُفيد البكاء؟ لتتأمَّل، أيها العزيز، بأحكام الله، وترضخ لإرادته المُقدَّسة، واعتبر أن ابنك لم يمت، وإنَّما انتقل إلى حياة أخرى جديدة... فكن صبورًا، ولتقتدِ أنت بطهارة نفسه، لتستحق بها أن تكون ابنًا ليسوع المسيح[1]].

[إن حزن العالم كله، لا يقدر أن يُعَبِّر عن عميق مشاعر المؤاساة التي نحس بها. لا، وحتى مياه الأنهار، لو صارت دموعًا، لا تكفي للتعبير عن الحزن الذي سبَّبه هذا الحادث المُفجِع.

إننا لم نُحرَم من ولدٍ، بل أرجعناه إلى الذي وهبنا إيَّاه؛ إن حياة الفقيد لم تتوقَّف، بل تغيَّرت وتحوَّلت إلى الأحسن، إن الأرض لا تخفي الشخص الذي نحبه، بل السماء تستقبله...

إن وقت الانفصال لن يطول. فمادمنا في هذه الحياة، فنحن مسافرون على الطريق، إلى مكان الراحة نفسه؛ فالبعض لا يزال يسير، والبعض الآخَر قد وصل؛ وآخرون لا يزالون يسرعون. لكن مكان الاستقبال واحد].

كما كتب إلى زوجة نكتاريوس يعزِّيها في رحيل ابنها:

[فكَّرت أن ألزم الصمت احترامًا لمشاعركِ، مُعتبِرًا أنه كما أن العلاجات حتى البسيطة تزعج وتسبِّب التهابًا في العين، كذلك المواساة التي تقدَّم في مناسبة حُزنٍ كبيرٍ أو خسارة عزيز قد تسبِّب، رغم أنها تبعث أشعة الأمل والسلوان، بعض الانزعاج والمضايقة في نفس المصاب بالحزن...

إني عارف كم هي عميقة محبَّة الأمَّهات، وأعرف لطفكِ الجم ومحبَّتكِ لجميع الناس، لذلك فإني أدرك أن حزنكِ كان عميقًا جدًا في هذا المُصاب الذي حلَّ بكِ.

فقد فقدتِ ابنًا، تشتهي كل الأُمَّهات أن يكون أولادهن مُتشبِّهين به، لو بقي حيًّا! وعندما مات بكين كلّهن أيضًا أسفًا عليه، كأنهن فقدن ابنًا لهن...

---

[1] الأب إلياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٤٤.
Epistle 6

إن هذه هي إرادة الله، وهذا تدبير عنايته، التي يؤكِّدها لنا الإنجيل بقوله: إن شعرة من رؤوسنا لا تسقط دون إذن الآب السماوي (لو ٢١: ١٨)... ولذلك أقول لكِ أيَّتها السيِّدة إن الذي جاء إلى الأرض سيذهب منها، وما قد حدث، فقد حدث بإرادة الآب الذي خلقنا... ومن يقدر أن يعارض مشيئة الله؟

فلنخضع لهذه الإرادة، فإنَّنا لا نقدر أن نقاومها... لا تجعلي المصيبة تتغلَّب عليكِ...

ولا أظن أن هذه الكلمات التي كتبتها تكفي وحدها لبعث العزاء والسلوان، فإنكِ أيضًا بحاجةٍ إلى الصلاة في هذا الظرف الحاضر. وأنا أشترك معكِ بالصلاة لكي يُشدِّدك الرب، ويُنير نفسك وعقلك، وهكذا تحصلين، من نفسك على ينابيع التعزية ومصادر السلوان].

[انظري إلى العالم وما فيه؛ كله سائر إلى الموت والفساد. السماء سوف تزول يومًا، الشمس لن تشرق إلى الأبد. كله سوف يتلاشى كحُلمٍ، وفي لحظةٍ واحدةٍ يختفي من الوجود... فلتتعزِّي إذن فيما أنت عليه[1]].

١١. ابتسامته

كان القديس باسيليوس يحمل **ابتسامة عريضة على شفتيه**، لكن لا تسمح لمن حوله بالضحك قط[2]. استمرت هذه الابتسامة كل أيام حياته، حتى وهو رئيس رؤساء الأديرة. حتى في قوانينه، فمع استخدام الحزم، كثيرًا ما يقدمه ببلاغة تحمل لطفًا تخفف من حدة الحزم، وفي رسائله يستخدم أحيانًا لمسات بلاغية فيها شيء من الدعابة. في دعابة لطيفة عندما جاء إلى الدير ديونسيوس الصبي ردَّه إلى أمه مع ملاحظة فيها دعابة، يدعوها أن ترده، بل وتقتدي به:

[صيد الحمام له فنّه، هذا ما أؤكِّده. عندما يصطاد الصياد حمامة، ويروضها فتأكل من يديه، يدهن جناحيها برائحة طيب ويردها لكي تُصحب جماعة الحمام برائحة الطيب. بهذا تصير كل جماعة الحمام ملكًا للصياد، إذ يأتون إليه طائرين بسبب رائحة الطيب التي لديه لكي ما تدخل عش الحمام.

ولكن لماذا أبدأ رسالتي هكذا؟ لأنني إذ استقبلت ابنك ديونسيوس مسحت جناحيه بالطيب الروحي، وها أنا أرسله إلى عزّتك، لكي ما تطيري معه، وتأتي إلى العش الذي بناه معنا[3]].

---

[1] الأب إلياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٤٥.

[2] *Robert Payne: The Holy Fire, St Vladimir's Seminary Press, N.Y., 1980, p. 121-124.*

[3] *Epistle 10.*

كان يكتب بشيءٍ من التسلية عندما يتحدّث عن نفسه، خاصة في مرضه. فإن كان القديس يوحنا الذهبي الفم قد شبّه نفسه بالعنكبوت، فإن القديس باسيليوس شبه نفسه بنسيج العنكبوت، ويكمل قائلاً: [ذاب جسمي من الحُمى، حتى صار أكثر نحافة مني؛ نعم صرت نحيفًا أكثر من نفسي[1]].

مع ذلك أحيانًا كان يستخدم أسلوبًا لاذعًا، ففي مهاجمته لنظام التوحد، كتب: [إن كنت تريد أن تعيش لوحدك على الدوام، فأقدام من سوف تغسلها؟]

وعندما اعترضت عليه سيدة هرطوقية تدع سامبليشيا *Simplicia* بقوة، لأنه قام بتكريس أحد خصيانها وهي تملك خصيان لا عدد لهم، كتب إليها: [على الأقل لا أُعطي اعتبارًا لما تفكرين فيه، إنما اهتم فقط بأحكام الله[2]].

في بداية عام ٣٧٤م كتب القديس باسيليوس إلى أوغريس *Euagrius*، كان كاهنًا جاءه من روما وذهب إلى أنطاكية، ومن هناك بعث إليه رسالة توجه إلى بعض الاتهامات. أجاب القديس عليها، يمكن أن يُقال عنها إنها تحمل تهكُّمًا بأسلوبٍ لطيفٍ. هذه الرسالة تكشف عن أسلوبه في معالجة بعض المشاكل بشيءٍ من الفكاهة.

❖ لم أكن حزينًا تمامًا بإطالة رسالتك. لقد سررت بها حتى بَدت لي مُختصرة جدًا. قبل كل شيءٍ ماذا يجعلني بالأكثر مسرورًا من أن أسمع كلمة سلام؟...

ليهبك الرب البركة التي وعد بها صانعي السلام... فتستطيع أن تتأكد أنه عندما تحل عليك ستشتهي وتطلب أن ترى اليوم الذي فيه جميع المُنشقِّين في الإيمان يصيرون مجتمعين معًا في اجتماع واحدٍ.

أعترف أنه ليس أحد يشتاق إلى هذا أكثر مني... لكن يلزمك أن تعرف أنه بمقدار رغبتي العظيمة هذه، فإنني أتبارى بأنني سأحقق هذا مع عجز قوتي.

القديس باسيليوس الكبير

١٢. حنوّه وعاطفته

اتّسم القدّيس مع حزمه وجدّيته بالحنو **والعاطفة**. ففي يونيو ٣٧١م ماتت والدته وتُدعَى *Emmelia* كان لها أثرها العظيم على حياته، ليس فقط في طفولته، بل بالأكثر في اختياره الحياة النُّسكية. كتب عنها ليوسابيوس أسقف ساموساتا *Samosata* بمناسبة نياحتها:

---

[1] *Epistle 193.*
[2] *Epistle 95.*

[الآن بسبب خطاياي فقدت أُمي، عزائي الوحيد في الحياة.
لا تضحك إن كنت وأنا في هذا السنّ الكبير أندب تيَتُّمي.
سامحني، إن كنت لا أحتمل الانفصال عن نفسٍ لا أجد من يُقارَن بها في المستقبل الذي أمامي. مرّة أخرى ترتد إليَّ. مرّة أخرى إني محصور في سريري. أتخبَّط في ضعفي، في كل ساعة أتطلّع إلى نهاية حياتي.
هكذا أيضًا حال الكنائس التي في نفس الظروف كما هو حال جسدي لا يشرق عليها رجاء صالح، وحالها يصير إلى ما هو أسوأ...
إذًا لا تضجر من الصلاة عن الكنائس والتوسُّل إلى الله[1]].

١٣. عشقه للكتاب المُقدَّس

على الرغم من أن تأثُّره بالعلاّمة أوريجينوس أكثر من أي مُعَلِّم آخَر، إلاَّ أنه لم يتبع الطريقة الرمزيَّة في التفسير، تلك التي كان أوريجينوس أستاذًا لها. أما طريقته، فكانت الفهم الحرفي للكلمات. والمواضع التي استخدم فيها التفسير الرمزي نادرة من أمثلتها (مز ٢٩: ٦)، حيث فسَّر "وحيد القرن" بأنه يرمز إلى الرب يسوع المسيح الوحيد في طبيعته، والواحد مع أبيه.

كان القدِّيس باسيليوس يمضي الكثير من أوقاته في دراسة الأسفار المُقدَّسة، ويدعو المسيحيِّين إلى الإكثار من قراءة الكتاب المُقدَّس، وخاصة العهد الجديد.

- ❖ دراسة الأسفار المُوحَى بها هي الطريق الرئيسي للتعرُّف على التزامنا. فإننا نجد فيه التعليم بخصوص السلوك، وأيضًا حياة الطوباويين مُسَجَّلة كتابة بكونهم يتنسَّمون صور الحياة التقية فنقتدي بأعمالهم الصالحة[2].
- ❖ الآن بالنسبة للعبارات الواردة في الإنجيل التي تبدو أنها تحمل شيئًا من التناقض، من الأفضل لكل أحدٍ أن يُوَبِّخ نفسه أنه لم يبلغ بعد فهم غِنَى الحكمة (رو ١١: ٣٣)، وأن يتذكَّر بالحقيقة أننا يصعب أن ندرك أحكام الله الغامضة، عن أن نصير خاضعين للاتهام بالوقاحة والتهوّر ونسمع الكلمات: "**عاق هو ذاك الذي يقول: أنت تعصي الناموس**" (أي ٣٤: ١٨ *LXX*)[3].

القديس باسيليوس الكبير

[1] *Letter 30 to Eusebius of Somasata.*
[2] *Mike Aquilina: The Way of the Fathers, Indiana 2000, article 31.*
[3] *Concerning Baptism, Book 2, Q. 4.*

١٤. اهتمامه بالنشاط الرعوي

كان تحت رئاسته خمسون أُسقفًا. وعلى الرغم من صحَّته المُعتلَّة، ومشاغله الكثيرة وكفاحه المتواصل، وتصانيفه العديدة، كان دائب النشاط في افتقاد الإيبارشيَّة وتوابعها. وقد كشفت زياراته الإفتقاديَّة عددًا من المخالفات الكنسيَّة والأوضاع غير القانونيَّة. وحتى ما يعالج هذه المشاكل في أساسها، جعل ذاته - بقدر إمكانه - المُسيطر على الانتخابات الأسقفيَّة، ورفض بحزمٍ أن يسيم أي شخص غير جدير بهذه الرتبة السامية. فطارت شهرة معاونيه حتى أرسل الأساقفة الآخرون يطلبون منه رعاة ليكونوا مساعدين لهم. وقد حافظ على الاتصال المستمر بكل مرؤوسيه ومعاونيه وأصدقائه الخصوصيِّين عن طريق الرسائل، وكان هؤلاء على أتم استعداد لتنفيذ كل تعليماته. وقد مدَّ نشاطه الرعوي إلى حدود أرمينيا. أمَّا نشاطه في الوعظ فكان عظيمًا جدًّا، ليس في قيْصريَّة والمُدن الكبيرة فحسب، بل حتى في قرى الأقاليم.

١٥. إضرامه للمواهب

كشف لنا صديقه غريغوريوس سرّ قوَّته، وهو ثقته بروح الله الذي لا يتزعزع. منذ أول يوم بعد اهتدائه، كان يعي المواهب التي حباه الله بها، فعمل على استثمارها. ولم يكن الإنجيل في نظره فرصة لإلقاء خطب رائعة، بل كان برنامجًا يجب عليه، بصفته أُسقفًا، أن يسعى لتحقيقه، حتى فوق قواه[1].

روى غريغوريوس: [إن أرملة عريقة في الشرف كان يُضايقها أحد القضاة، بمحاولته إغرائها على أن تتزوَّجه، فلم تجد حيلة للتخلُّص من مضايقته إلاَّ بالاعتصام بالكنيسة، والتماس حق الحماية (يعني منع القوَّة العامة من دخول الكنيسة حتى للقبض على مجرمٍ)، فاستجاب الأسقف طلبها وآواها في داره، فرفع القاضي شكواه إلى الوالي، فانحاز هذا إليه، وقال: "يجب على الجميع أن يخضعوا لسلطتي، وعلى المسيحيِّين أن يقدِّموا مشيئتي على شرائعهم الخاصة"، وأمر ففتش رجاله دار الأسقف وفي وَقاحةٍ دخلوا حجرته الخاصة فلم يجدوا أحدًا. فاغتاظ الوالي وجاء إلى قيْصريَّة، واستدعى باسيليوس إلى المحكمة بتهمة الخطف. فحضر باسيليوس وبدأت الجلسة:

قال الحاكم: انزعوا رداءه.

فقال باسيليوس: هل تريد أن أخلع ثوبي أيضًا؟

---

[1] الأب صبحي حموي اليسوعي: القديس باسيليوس الكبير، لبنان.

فصاح الوالي: إني أريد جلدك وتعذيبك.

فقال باسيليوس: قد يكون ذلك خير وسيلة لشفائي من مرض الكبد.

وكان قد ذاع في المدينة أثناء ذلك خبر إيقاف باسيليوس. فشعر كل من فيها أنه أُهين في شخص الأسقف، فتجمّعوا حشودًا وتسلَّحوا بمشاعل وحجارة ونبابيت، وهرعوا إلى دار العدل. وكانت النساء أكثر هياجًا من الرجال، وقد حملن المكانس وصنَّارات التطريز وانضممن إلى الثائرين. ووصل هذا الجيش الصاخب إلى قاعة المحكمة، وكل منهم يتوق أن يكون أول من يقبض على الوالي، فارتعب الوالي من هذه الثورة، وانطرح على قدميّ باسيليوس يستغيث به. وبقي باسيليوس في فوزه، كما كان في محنته هادئًا، وسكَّن هياج الشعب الثائر.

مثل هذه الأحداث لم تتكرر فيما بعد، لأن الوالي والإمبراطور فهما أنهما لن ينالا شيئًا من مثل هذا الرجل الذي يحميه شعب قيْصريَّة جميعه، وأن مسالمته خير من معاداته[1].

١٦. اشتياقه لخلاص العالم كله

يتركَّز مفهوم **القديس يوحنا الذهبي الفم** للعمل الكهنوتي الرعوي الكرازي، في أبوّة "الكاهن الراعي والكارز" لأولاده. فالأسقف أو (الكاهن) إذ "أؤتمن على العالم كله، صار أبًا لجميع الناس[2]"، ينحني بروح الأبوّة ليحمل شعبه على كتفيه ويدخل بهم، بالرُّوح القُدُس، إلى أعماق الكلمة، يتفاعلون معها ويتعرَّفون على أسرارها ويتذوّقون عذوبتها!

بنفس الروح يشتهي **القدِّيس باسيليوس** في أبوّته **خلاص البشرية كلها**؛ جاء في إحدى عظاته: [من يسمح لي أن أقف على عتبة منصّة العالم المُتَّسع؟ مَنْ يعطيني صوتًا واضحًا يخترق (العالم) مثل بوقٍ؟[3]].

١٧. تفاعله مع وحدة الكنيسة الجامعة

لعل أحد روائع سماته، أنه بروح التواضع أدرك الالتزام بالشركة خلال الكنيسة الجامعة. نجاحه وشهرته على مستوى العالم لم يدفعاه إلى التشامخ والعمل بروح الانفرادية. هذا ما تبرزه كلماته العجيبة عند نياحة القدّيس أثناسيوس، إذ كتب: [إلى من نُحَوِّل الآن الاهتمامات الخاصة بالكنائس؟ من الآن أحسبه شريكًا معي في أحزاني؟ من سيكون شريكًا معي في فرحي؟[4]].

---

[1] جان - ماري رونًا: القديس باسيليوس الكبير، ترجمة الأب عقيقي اليسوعي، منشورات المعادي، ص ٥١ - ٥٣.

[2] *De Sacerdotis 6:4.*

[3] *Homilia adversus eos qui per calumniam dicunt dici a nobis deos tres. Philip Rousseau, p. 270*

[4] *Letter 29.*

في رسالة بعث بها إلى المجلس الأعلى لمدينة تيانا، كتب عن الحاجة إلى الشركة مع الآخرين:

❖ آخرون قد يكونون عظماء وأصحاب سُلطان ومُعتمدين على أنفسهم، أمّا أنا فلا شيء، ولا أستحق شيئًا، لذلك لم أستطِع قطّ أن أعتمد على ذاتي كمَنْ هو قادر أن يُدَبِّر الأمور دون حاجة إلى معونة.

إنني أعرف جيّدًا أنني في حاجة أكثر إلى مُساندة كل واحدٍ من الإخوة، وذلك أكثر من احتياج اليد إلى مُساندة اليد الأخرى.

حقًا يُعَلِّمنا ربنا من خلال بُنياننا الجسدي ضرورة الشركة الجماعية. عندما أتطلّع إلى أطراف جسمي، وأرى أن واحدًا منها ليس فيه الكفاية في ذاته، كيف أستطيع أن أحسب نفسي كفوًا أن أتمّم التزامات الحياة؟... حتى الصلاة إن لم تتحد بصلاة (لآخرين) تفقد قوّتها الطبيعية، وقد أخبرنا الرب أنه سيكون في وسط الاثنين أو الثلاثة الذين يدعونه في اتفاق معًا...

أزيلوا من ذهنكم الفكر أنكم لستم في حاجة إلى الشركة مع الغير[١].

القديس باسيليوس الكبير

١٨. الثقة بالنفس في المسيح يسوع

مع شعوره بالعجز التام عن العمل بمفرده، وحاجته إلى كل مؤمنٍ في الكنيسة الجامعة، ليعمل الكل معًا في المسيح يسوع، كان مؤمنًا بقول الرسول بولس: "أستطيع كل شيءٍ في المسيح الذي يقوّيني" (في ٤: ١٣).

ما أروع شخصيته، فمع مركزه كرئيس أساقفة يحسب نفسه كلا شيءٍ بدون إخوته في الكنيسة الجامعة، وفي نفس الوقت لا يُصَاب بإحباط أو صغر نفس مهما قاومته تيارات الشر.

في إبداع يكتب إلى أساقفة الساحل، مُشَبِّهًا نفسه بلسان بحر يدخل إلى مسافة في وسط المياه، ويتعرَّض لعنف الأمواج المقاومة، لكنه كصخرةٍ، تخبطه الأمواج، فترتد دون أن تعبر فوقه إلى ما ورائه.

[1] *Letter 97 to the Senate of Tyana.*

❖ إنكم لا تجهلون أننا كنّا مُعَرَّضين للخطر علانية من الجميع مثل لسان البحر، كنتوءٍ في البحر، يتقبَّل عنف الأمواج الهرطوقية، التي تتحطَّم حولنا، ولن تعبر إلى المنطقة التي خلفنا[1].

القديس باسيليوس الكبير

مرة أخرى إذ يكتب إلى أمفيلوخس *Amphilochius* المُسام أسقفًا حديثًا يسنده في مواجهة المتاعب.

❖ مُباركٌ هو الله الذي من جيل إلى جيلٍ يختار الذين يُسَرّ بهم، ويُقيم منهم آنية مُختارة، ويستخدمهم لخدمة القديسين. بالرّغم من محاولتك للهروب، كما اعترفت، فإنك لم تهرب منّي، بل من الدعوة التي قُدِّمَت لك خلالي. لقد اصطادك (الله) في شبكة النعمة، وجاء بك إلى وسط بسيديا *Pisidia* لكي تصطاد الناس للرب، وتسحب فريسة إبليس من العمق إلى النور. لتقل مع داود: إلى أين أذهب من روحك؟ أو إلى أين أهرب من حضورك (الإلهي) (مز ١٣٩: ٧) هذا هو عمل السيد المُحب العجيب.

"لقد فُقِدت الأُتُن" (١ صم ٩: ٣)، لكي تصير ملكًا على إسرائيل...

لتقُم بدور الإنسان القوي، الذي يسير أمام الناس الذين ائتمنهم العليّ في يده. لتكن مثل قائد (مركب) مُختبر، وليسمُ فكرك فوق كل موجة هرطوقية تهبّ عليك... ولتنتظر الهدوء الذي يُقدِّمه الرب بمُجرّد أن يوجد صوت يتأهّل للارتفاع إليه، فينتهر الرياح والبحر![2]

القديس باسيليوس الكبير

١٩. إنسان الله الواقعي

إذ كان القدِّيس باسيليوس يتطلّع إلى العالم كله، مُشتهيًا خلاص كل إنسانٍ، اهتم بكل التيارات المقاومة للحق أينما وجدت، وليس فقط في إيبارشيّته. ومع تفاعله ومرارة قلبه لتصرُّفات الهراطقة العنيفة، غير أنه كإنسان الله المملوء رجاءً في الرب كان يتطلّع إلى الجوانب الطيّبة المُفرِحة.

ففي رسالته إلى الأسقف باتروفيلس يكشف له كيف كان على باب الموت، واشتهى أن ينطلق من العالم، لكن مراحم الله ردّته إلى الحياة ليرى الكنائس وقد استراحت من عواصف الهراطقة العنيفة.

---

[1] *Letter 223 to the Bishops of the Sea Coast.*

[2] *Letter 161:1-2 to Amphilochius on his Consecration as Bishop.*

❖ في السنة الماضية، إذ كنت مريضًا بحمّى شديدة جدًا، واقتربت من أبواب الموت عينها، إلاّ أن رحمة الله ردّتني، ولم أكن مُستريحًا لعودتي، مُتطلّعًا إلى الشرور التي أعود أواجهها مرّة أخرى. لكنني تساءلت ما هى أعماق حكمة الله في ذلك، فإذا بأيام حياتي في الجسد وُهبت لي. لقد أدركت هذه الأمور، وعرفت أن الرب أراد لنا أن نرى الكنائس وقد استراحت من العاصفة التي تعرضت لها قبلاً![1]

القديس باسيليوس الكبير

مرّة أخرى يُقدِّم لنا خلاصه خبرته الرائعة، أنه لا يليق بنا أن نسترسل في متاعب الماضي، بل نتهلّل بعمل الله الحاضر، إذ يقول: [**إننا لا نتأمل في الماضي، ما دام الحاضر مُستقرًّا**[2]].

٢٠. الوحدة وحُب التعلُّم

رأينا في كثير من رسائله ما يشغله هو الكنيسة الجامعة، فيحسب نفسه عاجزًا تمامًا عن القيام بأي عمل حتى وإن كان رئيس أساقفة وله شهرته ومواهبه ما لم يعمل كعضوٍ في الكنيسة الجامعة.

لا تستطيع يد إنسان أن تعمل بغير استخدام اليد الأخرى، أمّا هو فأكثر احتياجًا إلى إخوته من اليد المُحتاجة لليد الأخرى.

لا يقوم هذا الاحتياج كمُجرّد تنسيق للعمل، إنما كان يشعر وهو رئيس أساقفة موهوب أنه في حاجة إلى التعلُّم كل يومٍ ومن كل مَنْ يلتقي بهم في الرب، وهو في هذا يحمل نفس القدّيس الشهيد كبريانوس القائل إن كل مؤمنٍ، حتى وإن كان أسقفًا، يحتاج أن يَتَعَلَّم كل يوم. واحد يُعلِّم ولا يحتاج أن يتعلَّم، وهو الله.

❖ اسألوا آباءكم وهم يخبرونكم أنه حتى وإن بدا كأن الإيبارشيات مقسّمة جغرافيًا، إلاّ أنها تحمل فكرًا واحدًا، وتُدار بمشورة واحدة.

الاستمرارية هى اتحاد بين الشعب؛ الاستمرارية هى زيارات مُتبادلة بين رجال الكهنوت وبين الرُّعاة أنفسهم، فكل واحدٍ يحب الآخر، ويحسب كل واحدٍ الآخَر مُعلِّمًا ومُرشدًا في الأمور الخاصة بالرب[3].

القديس باسيليوس الكبير

---

[1] *Letter 244 to Patrophius, Bishop of Aege.*
[2] *Letter 210 to the Notables of Neocaesarea.*
[3] *Letter 204 to the Notables of Neocaesarea.*

٢١. تقديره للآخرين

سرّ قوته هو تقديره ومحبته الشديدة للآخرين الجادين في الاهتمام بخلاص نفوسهم وبُنيان كنيسة المسيح. فيرى في القديس أثناسيوس ليس فقط دفاعه عن الإيمان السليم، وإنما أبوّته واهتمامه بمتاعب الكنيسة الجامعة.

❖ إذ يتحرّك الزمن، يتأكّد باستمرار رأيي الذي بلغت إليه منذ زمن طويل عن قداستك. أو بالحري يزداد رأيي قوة مع الأحداث اليومية.

بالحقيقة كثيرون يكتفون بأن يعتني كل واحدٍ بما يخص مقاطعته. لكن الأمر ليس هكذا بالنسبة لك، فأنت تهتم بكل الكنائس ليس بأقل من اهتمامك بالكنيسة التي عهد بها ربنا إليك[١].

❖ عندما أُحوّل نظري إلى العالم، وأدرك المصاعب التي تعوق كل مجهود صالح، أشعر كأنني إنسان يسير وهو في قيودٍ، فأيأس من نفسي. ولكن حين أحوّل نظري نحو قداستك، أتذكّر أن ربنا قد **عيّنك كطبيب للأمراض في كل الكنائس**، فاسترد روحي، وأقوم من الإحباط الذي لليأس وأصير في رجاء في أمورٍ أفضل. بحكمتك تعرف تمامًا أن الكنيسة كلها في تعبٍ[٢].

القديس باسيليوس الكبير

[1] *Letter 69:1 to Athanasius, Bishop of Alexandria.*

[2] *Letter 82 to Athanasius, Bishop of Alexandria.*

حال الكنيسة في عصره[١]

أهم شيء يُقلق باسيليوس هو تمزُّق الكنيسة بسبب البدع، خاصة البدعة الأريوسيَّة، وكثيرًا ما يُشبّه حالها بحاله وهو مريض. ويظن أن مرضها لا رجاء منه، وأن الأمور تتطوّر دائمًا إلى الأسوأ[٢].

هذا اليأس نلاحظه أيضًا بعد ثلاث سنوات عندما كتب لكهنة طرسوس وشبَّه حال الكنيسة بثوبٍ عتيقٍ يتمزّق بسهولة ولأتفه سبب ويصعب إصلاحه[٣].

كتب إلى أساقفة إيطاليا وفرنسا يحثُّهم على التحرُّك من أجل الدفاع عن الإيمان القويم، ويقول لهم:

[حلَّ علينا الاضطهاد أيها الإخوة المكرمون جدًا، الاضطهاد في أعنف صوره.

الرُّعاة يُضطهدون، وقطعانهم يتشتتون.

لكن الأخطر من هذا كله أولئك الذين يعاملون بطريقة رديئة، لا يقدرون أن يقبلوا آلامهم كدليلٍ على شهادتهم، ولا يكرم الشعب المُصارعين كما يحدث في جيش الشهداء، لأن مُجرّد الاسم للمسيحيين يتعرّض له المُضطهدون.

لقد زال عنا الفرح والبهجة الروحية.

أعيادنا تحوّلت إلى مناحات (عا ٨: ١٠). بيوت الصلاة التي لنا أُغلقت. الهياكل التي تُقدَّم فيها الخدمة الروحية أفرغت. المسيحيون لم يعودوا يجتمعون معًا، ولا المُعلّمون يرأسون. تعاليم الخلاص لم تعُد تُعلَّم. لم تعُد لنا الاجتماعات المُقدَّسة ولا التسابيح المسائية[٤]].

بعد سنتين كتب لإسخوليوس *Ascholius* أسقف تسالونيكي:

[ما هو حالنا؟ المحبة فترت، تعليم الآباء فسد، في كل مكانٍ الإيمان قد تحطّم، إذ يُسحب الناس من بيوت الصلاة، يرفعون أياديهم في العراء لربهم الذي في السماء. أحزاننا ثقيلة، لم يعد الاستشهاد في مكانٍ ما، لأن الذين يسيئون التعامل معنا يأخذون نفس الاسم الذي لنا[٥]].

---

[١] الأب إبراهيم سروج: قراءة في رسائل القدّيس باسيليوس الكبير، مكتبة السائح، طرابلس لبنان، ص ٤ - ٥.

[2] *Epistle 30.*

[3] *Epistle 112.*

[4] *Epistle 243:2.*

[5] *Epistle 164.*

جاء في رسالة له إلى مجموعة من الكهنة والشمامسة والرهبان:

[بلغتني أنباء عن الاضطهاد العنيف ضدكم، وكيف أن الذين صاموا قاموا بعد عيد القيامة مُباشرة بالهجوم والجدال وهجموا على مساكنكم، وأشعلوا النيران في أعمالكم، وهم يعدون لكم بحق بيتًا في السماوات غير مصنوع بأيدٍ (٢ كو ٥: ١)، لكنهم خزّنوا لأنفسهم النار التي أعدّوها لأذيّتكم.

ما أن سمعت عن هذا، حتى تأوهت على ما حدث.

غير آسفٍ على ما حدث لكم يا إخوتي (حاشا!)، إنما على أولئك الذين غرقوا في الشر، ليحملوا أعمالهم الشريرة إلى هذا الحد.

لقد توقعت منكم جميعًا أن تسرعوا للحال إلى الملجأ المُعَدّ لكم في ضعفي، وإني أرجو أن الرب يعطيني انتعاشًا وسط متاعبي المُستمرة بأن احتضنكم، وأن أستقبل بجسدي الهامد عرقكم الكريم الذي يتصبّب من أجل الحق. وبهذا أشترك إلى حدٍّ ما في المكافآت المُعدّة لكم من ديّان الحق[1]].

وأمام هذا الضلال الذي يعصف في الكنيسة لا يستطيع أن يبقى صامتًا مكتوف اليدين. كتب بألمٍ عميقٍ ليوسابيوس أسقف ساموساطا *Eusebius of Samosata*:

[كيف يمكنني أن أصمت في هذه الفترة الحاسمة؟

وإن كنت لا أستطيع أن أصمت، فكيف أجد الكلمات المناسبة للظروف، فأجعل صوتي ليس تنهدًا مُجرّدًا، بل بالحري مرثاة مُتعقّلة تُشير إلى مأساة خطيرة؟[2]]

ولا يكتفي برفع الصوت، بل تراه يتحرّك بجرأة، ويكتب إلى الأساقفة في الشرق والغرب، يحثّهم على الدفاع عن الإيمان القويم. يعقد الاجتماعات مع الأساقفة، ويأخذ منهم اعترافات إيمان. ومن أجل الإيمان ومن أجل الكنز المُسلَّم إلينا من الآباء، يقف بشجاعةٍ في حلبة الصراع ولا يحصر همّه بإيبارشيّة، بل بالكنيسة جمعاء حتى يكون الموقف موحّدًا بينه وبين سائر الأساقفة قويمي الرأي.

يقول لبطرس أسقف الإسكندريّة: [يليق بك جدًا أن توبّخني، بكونك أخًا روحيًا تعلّمت الحُب الخالص من الرب؛ لأنني لم أعطِك جميع المعلومات الدقيقة والتفصيلية عن ما يحدث هنا. لأن من واجبك أن تهتم بما يخُصني، ومن واجبي أن أخبرك به[3]].

---

[1] *Epistle 251.*
[2] *Epistle 34:1.*
[3] *Epistle 266:2.*

الوحدة الكنسيَّة

كانت وحدة الكنيسة هى شُغله الشاغل، احتلَّت المركز الأول في كل اهتماماته، فقد تمزَّقت الكنيسة بسبب الأريوسية في الشرق، كما أزالت الوحدة بين أساقفة الشرق والغرب. لذا قام بمساندة البابا أثناسيوس الرسولي بالإسكندريَّة في محاولته لإقامة علاقات بين روما والشرق. كان يؤمن أن نجاح الكنيسة وبنيانها، إنَّما يتحقَّق متى زالت الانشقاقات، وعدم إضاعة الطاقة التي للمؤمنين.

للأسف وُجِدَ عائق في طريق التناسق بين الشرق والغرب، وهو النزاع الذي كان قائمًا بين بولينيوس *Paulinus* وميليتوس *Meletius*، فيمَنْ منهما هو الأسقف الشرعي لأنطاكية. ناشد القدِّيس باسيليوس الإسكندريَّة وروما لعلاج هذه المشكلة، ولكن روما كانت تحابي بولينيوس وتعترف به أسقفًا لأنطاكية، وقد جاءت رسائل روما ترفض التعاون. غير أنه عاصر موت فالنس في أغسطس ٣٧٨م، وسمحت الظروف الخارجيَّة إلى إعادة تواجد السلام.

جاء الكثير من رسائل القدِّيس يكشف عن ما في قلبه من شهوة الوحدة الكنسية من جهة الإيمان كما من جهة العمل. فقد عالج في رسائله الإيمان بالثالوث القدوس، ومركز الرُّوح القُدُس بكونه أقنومًا إلهيًا مساويًا للآب والابن. كما عالج بعض الممارسات الكنسية.

قائمة زمنية حول حياة القديس باسيليوس[1]

٣٢٩ ميلاده.

٣٣١ (حوالي) ميلاد أخيه القديس غريغوريوس أسقف نيصص.

٣٣٥ مجمع صور *Tyre*.

٣٣٦ موت أريوس.

٣٣٧ موت قسطنطين.

٣٤٠ موت قسطنطين الثاني.

٣٤٥ موت والده.

غالبًا ما ذهب باسيليوس إلى مدرسة بقيصرية كبادوكيا، حيث تعرَّف على غريغوريوس النزينزي.

٣٤٩ ذهابه إلى القسطنطينية، وذهاب غريغوريوس إلى قيصرية فلسطين ثم اجتمعا في القسطنطينية.

٣٥٠ موت قسطنس *Constans*.

٣٥١ ذهابه إلى أثينا.

٣٥٥ ذهاب يوليانوس إلى أثينا.

٣٥٦/٣٥٧ عودة باسيليوس إلى قيصرية، صار أستاذًا للخطابة لمدة عامين.

٣٥٧ عماد باسيليوس، إقامته أغنسطسًا.

٣٥٧/٣٥٨ رحلاته إلى أديرة مصر وسوريا وفلسطين وما بين النهرين.

والتحاقه مع أمه وأخته والعائلة في *Annesi* لتجنب الحياة العامة؛

أو عودته إلى دير على نهر *Iris*، وبقي حتى سبتمبر ٣٥٩.

٣٦٠ سيامة باسيليوس شماسًا، ونزاعه مع *Aetius*.

ترك باسيليوس قيصرية، وهو محطَّم بسبب توقيع ديانيوس *Dianius* على قانون الإيمان الأريميني *Ariminum*.

زيارته لغريغوريوس النزينزي.

---

[1] *Cf. N.& P.N. Frs, Series 2, vol. 8, p. xi; James Hanrahan: the Life of Saint Basil the Great, Toronto 1979; Adrian Fortescue: The Greek Fathers, San Francisco, 2007.*

٣٦١ باسيليوس يكتب لاغريغوريوس عن جمال الموقع الذي يختاره للخلوة، بينما الأخير يطلب التعرُّف على أسلوب الحياة التي يسلكها.

موت قسطنطيوس واستيلاء يوليانوس الجاحد على الحكم - وضع كتابه *Moralia*.

٣٦٢ مصالحته مع ديانيوس *Dianius* وهو على سرير الموت.

عماد يوسابيوس القيصري واختياره أسقفًا.

يوليانوس في قيصرية.

٣٦٣ موت يوليانوس، وتجليس جوفيان.

٣٦٤ موت جوفيان *Jovian* وتجليس فالنتينان وفالنس.

سيامة باسيليوس كاهنًا بواسطة يوسابيوس القيصري، وعودته إلى *Annesi*

ثم رجوعه إلى يوسابيوس القيصري.

باسيليوس يكتب ضد إفنوميوس *Eunomius*؛ ومقال عن الشباب والثقافة الهيلينية.

٣٦٥ فالنس في قيصرية.

٣٦٧ فالنس يسند الأريوسيين. مجمع تيانا *Tyana*.

٣٦٨ مجاعة في كبادوكيا، استمرت سنتان (نجم باسيليوس يتلألأ).

٣٦٩ نياحة إميليا *Emmelia*. باسيليوس يزور ساموساطا *Samosata*.

٣٧٠ نياحة يوسابيوس واختيار وسيامة باسيليوس أسقفًا على قيصرية.

باسيليوس يقوم برحلة افتقاد.

٣٧١ تهديد الأريوسيين ومودستوس لباسيليوس.

فالنس يسافر ببطء من نيقوميديا إلى قيصرية.

٣٧٢ فالنس يحضر قداس الأبيفانيا في قيصرية.

حوار بين فالنس وباسيليوس.

فشل محاولة فالنس أن ينفي باسيليوس، لمرض ابنه الشديد.

باسيليوس يزور يوسابيوس في ساموساطا.

إقامة انتيموس مطرانًا لتيانا.

باسيليوس يُلزِم غريغوريوس أسقفًا على *Sasima*، ويسيم أخاه غريغوريوس على نيصص.

باسيليوس في أرمينيا.

٣٧٣ معاناة باسيليوس من المرض.

نياحة البابا أثناسيوس.

باسيليوس يزوره جوفينوس أسقف *Perrha*، وسانكتسوس أسقف أنطاكية.

٣٧٤ نياحة أوكسنتيوس وسيامة أمبروسيوس على ميلان.

باسيليوس يكتب "عن الروح القدس".

نياحة غريغوريوس النزينزي (الأب) الذي كان له دوره الفعّال في مساندة باسيليوس.

نفي يوسابيوس أسقف ساموساطا.

٣٧٥ موت فالنتيان الأول. جراتيان وفلانتيان الثاني إمبراطوران.

عزل غريغوريوس أسقف نيصص.

باسيليوس يهاجم يوستاثيوس علانية.

٣٧٨ موت فالنس.

٣٧٩ نياحة باسيليوس.

٣٩٥ (حوالي) نياحة أخيه غريغوريوس أسقف نيصص.

REFERENCES

1. Saint Basil: Ascetical Works (Fathers of the Church) The Catholic University of America, Washington, 3rd edition, 1970.

2. J. Quasten: Patrology, Volume3, - The Cappadocians: Basil of Caesarea.

3. Nicene & Post-Nicene Fathers, Series 2, vol. 8.

4. St. Basil and his rule, E.F Morison, B.D.1912. Oxford University Press

5. Christopher A. Hull: Reading Scriptures with Church Fathers, Illinois 1998, Ch. 4 - The Four Doctors of the East (Basil The Great).

6. J.W.C. Wand, London 1962, Doctors and Councils, Part 1, ch. 2 - St. Basil and Work, p. 31- 47.

7. Maisie Ward, N.Y. 1959 Early Church Port Gallery, Ch. 7 St. Basil and the Cappadocians.

8. Encyclopedia of The Early Church, vol. 1 Oxford University.

9. Ferguson: Encyclopedia of Early Christianity.

10. The Oxford Dictionary of the Christian Church, Oxford University.

11. Philip Schaff: History of Christian, vol. 3.

12. Magnifiez Le Seigneur.

13. Nikolaos S. Hatsimikolaou: An Anthology of Patristic Prayers, Holy Cross Orthodox Press, Massachusetts, 1988, p. 53-55.

14. Cf. James Hanrahan: The Life of Saint Basil the Great, 1979, The Basilian Press, Toronto.

15. Letters of St. Basil (The Fathers of the Church, vol. 13).

16. Homilies on Psalms (The Fathers of the Church, vol. 46).

17. Philip Rousseau: Basil of Caesarea, University of California, 1994.

المراجع العربية الخاصة بالسِّيرة

١. دكتور أسد رستم: مدينة الله أنطاكية العظمى، جزء أول طبعة ١٩٨٨ - منشورات المكتبة البولسية ببيروت لبنان.

٢. دير السريان: القديس باسيليوس الكبير: حياته، نسكياته، قوانينه الكنسية، طبعة ١٩٦٠م.

٣. عن مخطوطات بأديرة السريان والأنبا بيشوي والبراموس. مخطوط رقم ١٨٢ نسكيات بالسريان، ٢٢٨ بالأنبا بيشوي (نُسِختا بدير أنبا انطونيوس ببرية العربة) مخطوط ١٠٠ بمكتبة دير السريان.

٤. مكسيموس مظلوم: الكنز الثمين في أخبار القديسين.

٥. الأب بطرس فرماج اليسوعي: مروج الأخبار في تراجم الأبرار.

٦. الأب إلياس كويتر المخلِصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩.

٧. شكري يوسف شكري: سيرة القديس باسيليوس الكبير، الإسكندرية، ٢٠١١.

الباب الثاني

القدِّيس باسيليوس الكبير

كتاباته

كتاباته

لم يكن القدِّيس باسيليوس مُديرًا لمدرسة لاهوتيَّة، لكنه يبقى اللاهوتي العظيم، الذي قدَّم أعمالاً لاهوتيَّة عظيمة، ويُعَد من بين الأوائل للآباء الشرقيِّين، ومن مُعلِّمي وحدة الإيمان المسيحي.

دعاه كواستن *J. Quasten*: "الروماني بين اليونانيِّين"، حيث كان رَجُل نظام وعمل، إذ يميل اللاهوتيِّون الغربيُّون إلى الجوانب القانونية والتنظيمية العمليَّة، وهو رجل فكر حيث يميل اللاهوتيُّون الشرقيُّون، خاصة السكندريُّون إلى الفكر اللاهوتي الروحي الفلسفي.

يشهد **القدِّيس غريغوريوس النزينزي** أن كتاباته كان لها تقديرها الخاص لدى معاصريه. من حيث مادتِها وتنظيمها. كان يقرأُها المسيحيُّون والوثنيُّون، المُتعَلِّمون والبُسطاء. ويعترف القدِّيس غريغوريوس عن أثر هذه الكتابات على فكره الشخصي، كما على حياته وطموحاته. وجاء **فوتيوس** *Photius* أكثر حماسًا للقدِّيس باسيليوس.

سمات كتاباته

١. يدعوه **القدِّيس غريغوريوس النزينزي** "مُعَلِّم البلاغة"، فقد جاءت كتاباته مُبدِعة، تعبيره واضح ومناسب. يميل إلى أسلوب الإقناع، لكن ليس بطريقة جافة، بل في عذوبة.

كتاباته تحمل بهاءً خاصًا، كلماته تنْساب كجدولٍ يتدفَّق طبيعيًا من ينبوع ماء، بارع في كتاباته الاستنتاجيَّة المنطقيَّة.

٢. تضم كتاباته دراسات عقائديَّة ونُسكيَّة وتعليميَّة وكنسيَّة أو طقسيَّة بجانب عدد كبير من العظات والرسائل مع وضع خلاص النفوس نصب عينيه.

٣. اسمه البرَّاق حفظ الكثير من كتاباته من النسيان، وإن كان بسبب شهرته نُسِبَت كتابات لآخرين إليه لجذب القارئ إليها. لذا تحتاج بعض الكتابات إلى فرز ما هو أصيل منها ممّا هو منسوب خطأً إليه[1].

قام بعض الدارسين بفحص المخطوطات للتحقُّق من الكتابات الأصليَّة وفرزها من الكتابات المنسوبة إليه، لكن توجد حاجة إلى مزيد من الدراسات في هذا الشأن.

أولاً: الكتابات العقائديَّة

اهتم بالدفاع عن الإيمان النيقوي، عاصر القديس أثناسيوس الرسولي وأَحَبَّه جدًّا خاصة بسبب غيرته المُتَّقِدة على استقامة الإيمان. يعتبره البعض في الجيل التالي بعده، وكسائر آباء

---

[1] *J. Quasten: Patrology, vol. 3,1966, p. 208.*

ذلك العصر كتب ضد الأريوسيين، أما عمله الشهير فهو عن الرُّوح القُدُس. غير أن شهرته لم ترتكز على أعماله الجدلية، بل بالأكثر على حياته النُّسكية، فيرون أنه قام بتنظيم الرهبنة الشرقية في كبادوكية. وقد جاءت رسائله على وجه خاص تكشف عن عذوبة شخصيته ولطفه، مما جعل لشخصيته جاذبية خاصة؟[1]

١. ضد إفنوميوس *Against Eunomius*

أغلب كتاباته العقائديَّة التي وصلت إلينا مُخصَّصة لمقاومة الأريوسيَّة.

من أقدَم كتاباته العقائديَّة ثلاثة كتب "ضد إفنوميوس *Against Eunomius*"، مدحها **القدِّيسان جيروم وغريغوريوس النزينزي.**

إفنوميوس: وُلِدَ في قرية بكبدوكية تُدعَى ديكورا *Dacora*، أُعجِبَ به *Philostorgius* الذي وصفه بأن شكله كان قبيحًا وكثيرًا ما كان يتمتم[2]. قام والده بتعليمه، وبناء على مشورة *Secundus* أسقف أنطاكية، وكان أريوسيًّا، ذهب إلى الإسكندرية، وتتلمذ على يدي أوتيوس *Aëtuis* الأنطاكي، رجع معه إلى أنطاكية حيث حضرا مجمعًا أريوسيًّا دعا إليه أودكسيوس *Eudoxius*، وسيم شماسًا. وفي حوالي عام ٣٦٠م سيم أودكسيوس أسقفًا على القسطنطينية وإفنوميوس أسقفًا على مدينة *Cyzicus* في ميسيا *Mysia* بكبدوكية.

اشتهر إفنوميوس بقيامه بدور قيادي للأريوسيِّين المُتطرِّفين، وكان أكثر جِدَّة من أريوس نفسه. دُعِيَ أتباعه الأونوميوسيِّين، تكوَّنت هذه الجماعة سنة ٣٦١م.

وضع إفنوميوس عملاً يُدعَى "الدفاع"، وذلك في عام ٣٦٠م بعد سيامته مباشرةً، وإن كان البعض يعتقد أنه وضعه عام ٣٦٥م. في دفاعه عن نفسه أعلن مُعتقداته الخاطئة بغية طلب الشهرة:

١. إن الله غير المولود خلق وولد الابن وحده، لا علاقة له بجوهره، ولا يشبهه.

٢. إن الله أوجد الابن بإرادته ومسرته وليس من جوهره.

٣. بعد ذلك خلق الرُّوح القُدُس أول وأعظم الأرواح، وذلك بسُلطانه وبطريقةٍ غير مُباشرة، وبسُلطان وعملٍ مُباشرٍ للابن.

٤. بعد الرُّوح القُدُس خلق كل ما في السماء وعلى الأرض، ما يُرَى وما لا يُرَى، وذلك بسُلطانه وبطريقةٍ غير مباشرة، وبسلطان وعملٍ مباشرٍ للابن.

٥. إن الآب والابن والرُّوح القُدُس مختلفون في كل شيء.

---

[1] *Adrian Fortescue: The Greek Fathers, San Francisco, 2007, p. 43.*
[2] *Mcclintock & Strong's Cyclopedia.*

قام القديس باسيليوس الكبير بتفنيد ما كتبه إفنوميوس بتوسعٍ في ثلاثة كتب، دُعِيَ عنوان هذا العمل في اليونانيَّة: "دحض دفاع الشرير إفنوميوس *Refutation of the Apology of the Impious Eunomius*" وهو أول كتبه العقيدية. أُضيف إليها الكتابان الرابع والخامس، ولكنهما من تأليف **القديس ديديموس الضرير**.

كان أتباع إفنوميوس يُدعَون إفنومينيين *Eunomians* مصطلح استخدم مرادفًا للمصطلح *Anomians*. حُرِموا في المجمع المسكوني الثاني، وكان إفنوميوس قد مات حوالي عام ٣٩٤م.

الكتاب الأول: يرد على دعوى أن جوهر الله غير قابل للانقسام، لذا فإن الكلمة لا يمكن أن يكون هو الابن الحقيقي لله، فهو مولود، لكنه ليس بأكثر من مخلوق. جاء في هذا الكتاب أن الذين قبلوا الإيمان باسم ربنا ومُخلِّصنا يسوع المسيح يقتنعون بما أعلنه الحق الإنجيلي، حسب التسليم الرسولي في بساطة الإيمان، فلا حاجة إليه أن يتكلّم. وكان يمكنه أن يستمر في الصمت كما كان حتى هذا الزمن. لكن عدو الحق الذي يغرس زوانًا في كنيسة الله من البداية (مت ١٣: ٢٥)، يعمل دائمًا على زيادة الشرور، مُستخدمًا كل حيلةٍ ممّن يتظاهرون بالمسيحية، وهم ينكرون لاهوت الابن الوحيد الجنس.

يرى أن أول من علَّم بوجود اختلاف في الجوهر بين الله الآب والابن الوحيد الجنس هو *Aetius* السرياني. والذي تبعه إفنوميوس الذي من غلاطية في شَرِّه وأكمله. كان يطلب الشهرة بالمُناداة بأمورٍ مُخزِية للغاية. وقد ظنّ أنه يجد تكريمًا له بكتابة أمورٍ لم يجسر أحد أن يكتبها.

الكتاب الثاني: دفاع عن إيمان نيقية، بخصوص أن الكلمة واحد ومساوٍ للآب في ذات الجوهر.

الكتاب الثالث: يؤكِّد بنفس القوَّة بخصوص الرُّوح القُدُس.

اقتبس براهينه هذه من **القدِّيس ديديموس الضرير** مُدير مدرسة الإسكندريَّة.

اقتبس القدِّيس عبارات من كتاب إفنوميوس الذي دعاه "**للدفاع**". وردَّ عليه، نذكر منها:

أ. ادَّعى إفنوميوس أنه دافع عن نفسه، لأن البعض هاجمه. ردَّ القدِّيس باسيليوس بأن إفنوميوس لم يجسر أن يذكر اسم شخص ممّن هاجموه، لأنه يعلم أن دفاعه خيالي بعيد عن الحق.

ب. يطالب إفنوميوس عدم الاعتماد على أقوال الأولين، وعدم الاعتماد على عدد الذين في جانب مُعَيَّن، وألاّ يُسرِعوا في الحكم والتمييز بين الحق والباطل. يُجيبه القدِّيس بأن الإيمان لا يعتمد على مركز الأشخاص ولا على عدد المؤمنين، لكن ما يطلبه إفنوميوس أن يجلس الكل

كتلاميذٍ له يسمعون ويتقبّلون أفكاره بلا مناقشة، ويخضعون لمكره وسفسطته ومغالطاته. أوضح أيضًا أن إفنوميوس لم يعتمد على الكتاب المُقدّس.

عالج القدّيس التعبيرين **"غير مولود"** و**"غير مُقارَن أو لا يُضاهى"** فإن إفنوميوس يقارن بين الآب والابن، حاسبًا الابن كأنه مخلوق، ويتجاهل قوله: "لكي يُكرِمَ الجميع الابن كما يكرمون الآب" (يو ٥: ٢٣)، وأيضًا: "الذي يُرذلني، يُرذل الذي أرسلني" (لو ١٠: ١٦).

لو أن الابن لا يُقارَن مثله مثل كل المخلوقات، فكيف يربط الابن نفسه بالآب، قائلاً: "أنا والآب واحد"؟ (يو ١٠: ٣٠).

٢. عن الرُّوح القُدُس

مقاله عن الرُّوح القُدُس يُدافع فيها عن مساواة الرُّوح القُدُس والابن مع الآب في ذات الجوهر الواحد. يذكر صيغتيْن للذكصولوجيَّة **"بالابن في الرُّوح القُدُس"** و**"بالابن مع الرُّوح القُدُس"** ويؤكِّد أنهما مؤسّستان على الكتاب المُقدّس والتقليد. وأوضح أنهما ليسا بأقل أرثوذكسيَّة من العبارة **"الآب والابن والرُّوح القُدُس"**. وأنهما يحفظان الإيمان من السقوط في السابليانيَّة والآريوسيَّة.

يحتوي على ثلاثين فصلاً، أرسله إلى أمفلوخيوس *Amphilochios* أسقف أيقونيَّة حسب طلبه. تمّت كتابة هذا العمل حوالي عام ٣٧٥م، ولما كان الابن والرُّوح القُدُس لهما ذات الطبيعة مع الآب، فإن مجد الآب يخُصّ الأقنومين الآخرين أيضًا، وقد أثبت ذلك من الكتاب المُقدّس والتقليد الكنسي.

نعود للحديث عن هذا العمل في الفصل **"الرُّوح القُدُس عند القديس باسيليوس الكبير"**.

٣. الفيلوكاليا *Philocalia*

رأينا في حديثنا عن سيرة القديس باسيليوس الكبير أنه نجح في جذب صديقه **القدّيس غريغوريوس النزينزي** إليه سنة ٣٥٨م، وجمعا مُقتطفات من أعمال أوريجينوس وبعض آباء الكنيسة الآخرين وأيضًا كتبا قوانين رهبانية لتنظيم حياة الرهبان، التي عُرِفَتْ فيما بعد باسم "الفيلوكاليا *Philocalia*"، والتي معناها "محبَّة الصلاح"، في حوالي سنة ٣٦٤م.

لقد وضعا هذا العمل في أسلوب بسيط وجَذّاب، ليُسَهِّلَ لأي شخص الاطلاع عليها، ووُصِفَ هذا العمل بأنه يحمل غرضًا عقائديًا في المقام الأول يتّفق مع رغبة مؤلّفيه في جعله الحُجة والبرهان ضد افتراءات الهراطقة الأريوسيين الذين قويت حركتهم ونشطت هرطقتهم جدًا في ذلك الوقت، وكانوا يعتمدون على فهمهم لتفسيرات أوريجينوس للأسفار المُقدَّسة بطريقة

مغلوطة تتفق مع آرائهم العقائدية. استاء باسيليوس وغريغوريوس لأفعال الأريوسيين الدنيئة، وقاما على الفور بالدفاع عن **مُعَلِّمهما أوريجينوس**، فأخذا على عاتقهما تأليف هذا الكتاب ليوضِّحا فيه براءة مُعَلِّمهما من الأخطاء التي نسبوها إليه، واستقامة منهجه البحثي في الكتاب المُقدَّس، وتوافق تفسيراته وتعاليمه وآرائه مع نصوص الكتاب المُقدَّس وتعاليم الرُّسل[1].

ثانيًا: الكتابات التفسيريَّة

أ. **الاكساميرون أو الهكساميرون *Hexamaeron*** أو ستَّة أيام الخليقة أو سداسيَّات الأيام المذكورة في سفر التكوين (تك ١:١ - ٢٦). وهو من أشهر كُتبه، ويشمل ٩ عظات عن ستَّة أيام الخليقة؛ مع عظتيْن العاشرة والحادية عشرة ينسبهما البعض لأخيه القديس غريغوريوس النيصي.

وقد أتمَّ هذا العمل قبل عام ٣٧٠م، وهو كاهن. قدَّم هذا العمل كواعظٍ في الصوم الكبير خلال أسبوعٍ واحدٍ، حيث كان يُقدِّم عظتيْن كل يومٍ، واحدة في الصباح والثانية في المساء. وهي تضم ٩ عظات طويلة تُفَسِّر المعنى الحرفي لنص الكتاب المُقدَّس، وتشمل أوصافًا عظيمة لقدرة الله الخلاَّقة وجمال الطبيعة، وتبدو هنا عظمة عِلْم باسيليوس الفلسفي، وقد استخدم القدِّيس أمبروسيوس أفكار باسيليوس في عظاته عن الستَّة أيام.

بالرَّغم من وضوح أنه ألقى هذه العظات ارتجاليًا، لكنها كانت موضع تقدير الكثيرين في الشرق كما في الغرب.

يُقَدِّم فكرة مسيحيَّة للعالم عن نقيض المفاهيم الوثنيَّة القديمة وضد فكر ياني الفارسي في القرن الثالث. فهو يظهر الخالق الذي وراء الخليقة. ويرسم صورة مزركشة لجمال الطبيعة، ويكشف عن عجائب الكون في عرض رائع للعلوم الطبيعيَّة والفلسفة، ممَّا يجعله في مقدِّمة الباحثين والمُعَلِّمين المُعاصِرين له. اقتبس في تفسيراته من أرسطو وأفلاطون وبوسيدينوس *Posidnius* وهو يدين *Plotinus* وإن كان لم يذكر اسمه. يكشف في عمله هذا عن الإنسان بكونه صورة لله.

لا يوجد في الأدب اليوناني المُتأخِّر ما يمكن مقارنته بهذه المواعظ من جهة روعة البلاغة.

---

[1] *Socrates: H.E. 4:26; Sozomen H.E. 6:17.*

قام أوستاسيوس *Eustathuis* الأفريقي بترجمتها في بداية ٤٤٠م.

واضح أن القدِّيس باسيليوس لم يكن يهتم بالتفسير الرمزي لسفر التكوين، إذ جاء فيها: [إني على علم بقواعد الرمزيَّة، ليس من خلال أعمالي الخاصة، بل من أعمال الآخرين. لا يقتنع بعض الوعاظ بالمعنى المألوف للكتاب المُقدَّس. فهم لا يُسَمُّون الماء ماءً بل يعطونه اسمًا آخر. يُفسِّرون نباتًا أو سمكًا كما يتراءى لهم، ويُغيِّرون طبيعة الزواحف والحيوانات المفترسة لتناسب تشبيهاتهم، مثل الذين يشرحون الظواهر التي تظهر في الأحلام لتناسب أغراضهم. فعندما أسمع كلمة "عشب"، فإني أعي أن المعنى المقصود هو العُشب، وهكذا النبات والسمك والوحوش والحيوانات الأليفة وخلافه، فإني أفهم كل منها بالمعنى الحرفي، لأني لا أخزى من الإنجيل].

نعود للحديث عن هذا العمل في الفصل: "**رحلة مُمْتِعة في رفقة الخالق**"، سَبَق لي نشره مُستقلاً.

ب. **حوالي ١٨ عظة عن المزامير** منسوبة للقدِّيس باسيليوس: يبدو أن ١٣ عظة منها أصيلة، وهي تدور حَوْل المزامير، غرضها تعليمي، وتطبيق روحي لها أكثر من تفسير للنصّ. جاء في مقدِّمة هذا العمل أن أسفار الأنبياء تُعَلِّم بشيءٍ، والأسفار التاريخيَّة بشيءٍ آخَر، والناموس بشيءٍ ثالث، وأيضًا أسفار الحكمة، أمَّا سفر المزامير فيضم هذا كله معًا، فهو أكثر الأسفار نفعًا. تتنبأ عن المستقبل، وتُذَكِّرنا بالماضي، وتضع قوانين الحياة وتُعَلِّمنا عن واجباتنا، وباختصار فهي خزينة عامة للتعاليم السامية (عظة مزمور ١:١).

العظة الأولى عن المزامير عامة ترجمها **روفينوس** إلى اللاتينيَّة، والباقيَّة التي وصلت إلينا عن المزامير: ٧، ١٤، ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٤٥، ٤٦، ٤٩، ٦٠، ٦١، ١١٦ (الأرقام هنا حسب النصّ العبري، غير أن القديس باسيليوس استخدم الترجمة السبعينية كأغلب الآباء حتى يُمْكِنَ للأمم الرجوع إليها)؛ وسنشير إليها فيما بعد.

واضح أن الكاتب استخدم تفسير يوسابيوس القيصري للمزامير استخدامًا موسعًا.

ج. **تفسير الستة عشر أصحاحًا الأولى من سفر إشعياء**. يقتبس فيه الكثير من تفسير المزامير ليوسابيوس القيصري وتفسيره لإشعياء.

يفترض Wittig أن أصل هذا التفسير مجموعة من العظات والمحاضرات ألقاها القدِّيس باسيليوس في قيْصريَّة الجديدة في شتاء ٣٧٤/٣٧٥م، غير أن بعض الدارسين يرون أن هذا التفسير ليس أصيلاً.

ثالثًا: المقالات

تشمل ٢٤ مقالة في مواضيع عقائديَّة، وأدبيَّة، ومديح.

رابعًا: الرسائل

كَتَبَ الأب إبراهيم سروج[1]: [اخترنا الرسائل لاعتقادنا بأنها أكثر تعبيرًا عن حقيقة فكره وواقع حياته، وهذا ما يُشِير إليه ناشرها بالفرنسيَّة: "إن الرسائل، من بين جميع مؤلَّفات القدِّيس باسيليوس هى الأكثر اعتبارًا والأغنى معرفة بحياته وزمانه، والأكثر تمثيلاً لنفسه وعبقريّته[2]"].

تكشف رسائله عن تعليمه الرفيع وذوقه الأدبي أكثر بكثير من عظاته، وصارت مثالاً رائعًا للمراسلات. عندما سأل *Nicodolus* القدِّيس غريغوريوس النزينزي عن قواعد عِلْم المُراسلات، أشار الأخير إلى القدِّيس باسيليوس كأستاذ للغة المراسلات. وإذ طلب نيوكودوليس منه أن يبعث إليه ببعض رسائله. وقد قام بعض الرهبان بنشر ما لا يقل عن ٣٦٥ رسالة، بعضها رسائل موجَّهة للقدِّيس باسيليوس.

تُعتبَر رسائله كنزًا نفيسًا غزير المعلومات عن الكنيسة الشرقيَّة في القرن الرابع، خاصة في كبادوكيَّة. كما تُعتبَر مصدرًا هامًا عن سيرته والأحداث المُعاصِرة له وأنشطته المُتعدِّدة، وسموّ شخصيَّته، وأثرها على القيادات الكنسيَّة.

الرسائل التي بين أيدينا عددها ٣٦٦ رسالة، قَسَّمها الدارسون إلى ثلاثة أقسام[3].

١. الرسائل من ١ - ٤٦، كُتِبَتْ قبل الأسقفيَّة من سنة ٣٥٧ - ٣٧٠م.

٢. من ٤٧ - ٢٩١، وهى الرسائل الأسقفيَّة من ٣٧٠ - ٣٧٨م وتُشَكِّل ثلثي المجموعة.

٣. من ٢٩٢ - ٣٦٦، وهى التي لم يُحَدَّد زمانها، أو يشكّ في صحَّتها، أو مزوَّرة.

أمَّا من حيث مضمونها، فيمكن تقسيمها إلى:

أ. **رسائل عائليَّة ورسائل للأصدقاء:** كان له أصدقاء كثيرون، يتبادل معهم الأفكار للتعزية والتشجيع والنُّصح. اتَّسم بشوقه للاستماع لأصدقائه، وكان يسألهم أن يراسلوه. تشهد رسائله عن اهتمامه العجيب بأصدقائه في الرب.

---

[1] الأب إبراهيم سروج: قراءة في رسائل القدّيس باسيليوس الكبير، مكتبة السائح، طرابلس لبنان، ص ٣.

[2] *Saint Basile, Letters, tomes I et II, texte établi et traduit par Yves Courtonne, collection G. Bude, Paris 1957, p. 1.*

[3] *Nicene & Post-Nicene Frs., Series 2, vol. 8.*

يروي لنا التاريخ عن اللقاء بين القديس باسيليوس الذي لم يعرف السريانية ومار أفرام الذي لم يعرف اليونانية، كيف تحدَّثا معًا لمدة طويلة كصديقيْن، كأنهما يعرفان بعضهما منذ زمنٍ طويلٍ. عندما عاد أفرام إلى بلده لم ينسَ قط باسيليوس، وبعد مدة طويلة كتب رثاءً عنه. وأيضًا تذكَّر باسيليوس الشماس السرياني الذي سار هذه الرحلة الطويلة لكي يراه[1].

كتب القديس باسيليوس: "منذ شبابي حتى شيخوختي كان لي الكثير من الأصدقاء"[2]. مَرَّة أخرى كتب: "إنني لم أخطئ قط في حق الصداقة"[3].

من أصدقائه أوستاثيوس السبسطي *Eustethios of Sebaste* في أرمينيا لمدة سنوات، لكن أوستاثيوس بدأ ينحرف تدريجيًا نحو الأريوسية وسَبَّب له مشاكل كثيرة واتهامات لمدة ثلاث سنوات، ولم يتفوَّه القديس باسيليوس بكلمة ضده، بل بهدوءٍ كان يبذل كل الجهد ليَرُدَّه إلى الحق. إنما في حالة واحدة حيث افترى أوستاثيوس افتراءً فاضحًا اضطر القديس أن يُبَرِّر نفسه في رسالة بعثها إلى رهبان إيبارشيته[4].

مات أوستاثيوس سنة ٣٨٠م وهو مُصَمِّم على الهرطقة، وخلفه بطرس أخ باسيليوس على الأسقفية.

ب. **رسائل توصية**: بعث برسائل كثيرة للسُّلطات العليا وكبار الأغنياء، يوصيهم بالفقراء والمظلومين ويتوسَّط للمدن.

ج. **رسائل تعزية**: تحمل عواطف مُوَجَّهة لبعض الأقارب أو لأناس مُجَرَّبين فقدوا أحِبَّاءهم، كما كتب لأساقفة وكهنة ورهبان يُعانُون من نوع من الكآبة غالبًا بسبب الاضطهاد أو نشاط الهراطقة ولكنائس ومؤمنين يهاجمهم غير مؤمنين.

د. **رسائل طقسيَّة**: تمسُّ قانون الكنيسة. بعث برسائل كثيرة، غايتها إعادة تأسيس النظام عوض ما حلَّ بالكنيسة من تشويش أو اضطرابات أو إهمال في الطقس الكنسي، بعضها صارت قوانين كنسيَّة.

هـ. **رسائل نُسكيَّة وأخلاقيَّة**: كتب إلى كثير من الكهنة والعلمانيِّين يحثهم على العودة إلى الحظيرة وإلى الحياة الجديدة، كما يحث الأساقفة والكهنة على التزامهم بأداء واجباتهم بضميرٍ صاحٍ، ويكشف لهم البلوغ إلى الكمال ويمتدح الحياة الرهبانيَّة بحماسٍ شديدٍ.

---

[1] *Sozomen: His. Eccl.3:16.*
[2] *Epistle 272.*
[3] *Epistle 272.*
[4] *Epistle 226.*

و. **رسائل عقائديّة وتنظيميّة:** بعضها مُطَوَّلة جدًا، حتى يُمكِنَ اعتبارها مقالات. عالجت موضوع الثالوث، وقانون الإيمان النيقوي. ورَدّت على الأريوسيّة والسابيليّة والأبولوناريّة وجاءت رسائله للأسقف أمبفيلوخوس أسقف أيقونيّة (رسائل ٢٣٣ - ٢٣٦) تُمَثِّل مجموعة رسائل متجانسة تبحث في العلاقة بين الإيمان والعقل والطبيعة والوحي كمصادر لمعرفة الله. وجاءت رسالته ٣٨ المُطوّلة والموجّهة إلى أخيه القدّيس غريغوريوس أسقف نيصص تبحث في الفرق بين المادة والإنسان.

س. **رسائل كنسيّة (ليتورجيّة):** بعض الرسائل لها أهميتها بالنسبة لتاريخ خدمة الإفخارستيا. الرسالة ٢٠٧ مُوجَّهة إلى كهنة قيْصريّة الجديدة تُقَدِّم تفصيلاً رائعًا عن خدمة السهرات، والرسالة ٩٣ توصي بالتناول يوميّا.

ح. **رسائل تاريخيّة:** إذ كانت اتصالاته متّسِعة النطاق للغاية، لهذا جاءت مصدرًا هامًا لتاريخ الإمبراطوريّة وأحوال الدولة والكنائس والعلاقة بين الشرق والغرب والجدال بين الأرثوذكس والهراطقة.

الرسائل بمُجْمَلِها هي مجموعة وثائق فريدة من نوعها، تُعتبَر أحد المراجع الهامة لتاريخ الكنيسة الشرقيّة في القرن الرابع، وأفضل مَرْجَع لحياة القدّيس باسيليوس نفسه. ووَجَّهها القدّيس إلى شخصيّات مختلفة، وكتب لهم في شتى الموضوعات، وإذا نظرنا إليها من حيث الحجم، وجدناها تتنوَّع من بطاقة التوصية إلى المقالات اللاهوتيّة والتنظيميّة.

ينطلق باسيليوس من الواقع التاريخي، فيتعرَّف إليه كما هو ولا ييأس من المأساة العميقة التي وصلت إليها الكنيسة في عصره. لا يتعامى عن الكارثة، ولا يقف كمن هو تحت سلطان القضاء والقدر مسلوب الإرادة. لا يتعلَّل بعلل الخطايا، ويقول كما نقول اليوم "هذه حال الدنيا". لا يتخاذل ولا يتراجع قائلاً: "وهذه حال الكنيسة على مرّ العصور ولا يمكن إصلاحها" إن كان الإصلاح ممكنًا فليبدأ غيري".

كما تكشف مجموعة رسائله عن شخصيته، يقف حازمًا وثابتًا أمام أصحاب المراكز الكبيرة، ولطيفًا ورحومًا على الفقراء. من رسائله نلمس سماته التي جعلت منه شخصًا جذَّابًا للغاية بين آباء الكنيسة[1].

١. بحزمٍ شديد تصرَّف مع شماسٍ يُدعَى *Glykeros* ارتدى ثيابًا مثل بطريرك، وكان يُغَنِّي مع خورُس من الفتيات[2].

---

[1] *Adrian Fortescue: The Greek Fathers, San Francisco, 2007, p.46.*

[2] *Epistles 169-171.*

٢. بروح الأبوَّة الحانية تصرَّف مع خوري إبسكوبس يُدعَى تيموثاوس اندمج في السياسات. ويَّخه القديس برسالة غاية في الرِّقة مع تقديم نصيحة بحنوٍّ[1].

٣. عندما قُدِّمَ إليه لصٌّ، صرفه ومعه عظة عِوض العقوبة[2].

٤. كان يكتب ليدافع عن الأبرياء المُتَّهمين ظُلمًا أمام الحكام والقضاة، وكان يشفع طالبًا عفو الفقراء من الضرائب، كما كان يشفع في العبيد لدى سادتهم، وكتب لأبٍ وثني كي يُهَدِّئ من نفسه لأن ابنه صار مسيحيًّا[3].

خامسًا: نصوص ليتورجيَّة (صلاة القدَّاس)

نال القدِّيس باسيليوس شهرةٍ بسبب تنظيم العبادة الإلهيَّة. في مديح القدِّيس غريغوريوس النزينزي له أشار إلى تعديله للقدَّاس الإلهي بقيْصريَّة، الذي أنجزه وهو كاهن بها. وفي كتابه "عن الرُّوح القُدُس"، دافع عن استخدامه لصلوات جديدة. وفي رسالته ٢٠٧ ردَّ على اتِّهامه بأنه اتَّبع طريقة جديدة مختلفة في الترنيم.

توجد ثلاثة ليتورجيَّات تحمل اسم القدِّيس باسيليوس، إحداها هى الليتورجيَّة المُستعمَلة في كنيستنا القبطية، وهو أكثر القدَّاسات استخدامًا بها. كما يشهد غريغوريوس النزينزي، تُستخدَم ليتورجية القدِّيس باسيليوس في الكنيسة البيزنطيَّة في ١٠٠ يوم من أيام السنة. نُقِلَت ليس فقط باللغة اليونانيَّة، إنَّما ببعض اللغات الشرقيَّة. حاليًا تستخدمه الكنائس البيزنطيَّة في أيام آحاد الصوم (فيما عدا أحد الشعانين) وفي أيام الاثنين والثلاثاء وليالي أعياد الميلاد والقيامة والغطاس وأول يناير وفي عيد القدِّيس باسيليوس.

يرى بعض الدارسين أنه لم يضع النص، وإنَّما قام بمراجعته لاهوتيًّا مع إضافة زيادات إليه، وقد أُدخِلَت عليه فيما بعد بعض التعديلات.

سادسًا: الكتابات النُّسكية

نترك الحديث عنها في الفصل الخاص بالرهبنة والنُّسك.

---

[1] *Epistle 291.*

[2] *Epistle 286.*

[3] *Epistles 96,107, 108, 109, 180, 273, 276, 305 etc.*

سابعًا: الكتابات التعليميَّة

أ. **عن الشباب:** كتب القدِّيس مقالاً صغيرًا "**للشباب كيف ينتفعون من الأدب الهيليني**". له أهمية تاريخية للباسيليين *Basilians*، فهو أحد النصوص اليونانية التي كانت تُدَرَّس في كلية في *Annonay*، وقام هذا العمل بدورٍ قيادي مع أول مجموعة من الباسيليين، فحسبوه نموذجًا لهم يقتدون به.

ب. **تحذير لأبناء الروح:** منذ القرن التاسع نُسِبَ هذا المقال للقدِّيس باسيليوس، لكن منذ القرن السادس عشر صار الرأي السائد أنها لكاتب مجهول. غير أن الدارس *P. Lehuram* يرى أصالة نسبها للقدِّيس باسيليوس الكبير، وذلك خلال مقارنتها بقواعد القدِّيس.

جاء هذا التحذير مملوءًا باقتباسات من الكتاب المُقدَّس، خاصة سفر الأمثال، كما جاء مُطابِقًا تمامًا لنظام الرهبنة المصريَّة الأولى. كما تشابه مع كتابات القدِّيس أوغريس *Euagrius Pontius*. ويشير إلى الإسقيط كمنشأ للرهبنة المصريَّة. يُحتمَل أن يكون قد كتبها القدِّيس باسيليوس ثم أضاف الرهبان إليها إضافات عام ٣٦٠م.

٤. عظات ومواعظ

يختلف القدِّيس باسيليوس عن باقي الآباء الكبادوك العظام في عدم كتاباته تفاسير للأسفار المُقدَّسة. لكن مهارته في التفاسير تَظْهَر في عظاته الكثيرة التي كشفت عن مهارته البلاغيَّة، مع المَنْطِق ومقارنات وتشبيهات ومتوازيات كعادة زمانه. غير أنه كان أكثر حذرًا من القدِّيسين غريغوريوس النزينزي وغريغوريوس النيسي في استخدام البلاغة في الوعظ.

تلألأ في خطبة عن العهد القديم، حيث يمزج التفسير البلاغي بالبساطة ووضوح التعبير. كان يبدو الطبيب للنفوس الذي يَمِسُّ ضمائر الناس ولا يطلب إعجاب سامعيه. وقد فحص *Rudberg* ١٦٩ مخطوطًا وقام بتبويبها في ١٤ إلى ١٨ نوعًا مُختلفًا.

١. **الهكساميرون *Hexamaeron*** أو ستَّة أيام الخليقة أو سداسيَّات الأيام، سبق الحديث عنها في الكتابات التفسيريَّة.

٢. **عظات عن المزامير:** سبق الحديث عنها في الكتابات التفسيريَّة.

٣. **تفسير إشعياء:** سبق الحديث عنها في الكتابات التفسيريَّة.

٤. **عظات أخرى:** توجد ٢٣ عظة أخرى، تُعتبَر عملاً أصيلاً فيها يتحدَّث عن الأعياد السيِّديَّة وأعياد الشهداء، وتعالج مختلف الموضوعات العقائديَّة والأدبيَّة والتفسيريَّة. وهي هامة جدًا لمعرفة تاريخ الحضارة والأدب في ذلك العصر. معظمها تتناول واجبات المسيحي، مثل

الصوم ومحبَّة الآخرين وعدم الانشغال بالغنى والبُخل والسُكر والحسد. وتُعتبَر هذه العظات مصدرًا غنيًّا عن العادات التي كانت سائدة في ذلك الحين.

القديس باسيليوس الكبير في المخطوطات العربية

خصَّص الأب إلياس كويتر المخلصي البحث السابع من القسم الثاني في كتابه "القديس باسيليوس الكبير"، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، عن "**القديس باسيليوس الكبير في المخطوطات العربية**" سواء في الشرق والغرب. أرجو الرجوع إلى هذا البحث الهام بالنسبة للباحث بالعربية.

الباب الثالث

القدِّيس باسيليوس الكبير

لاهوتياته

نظرة شاملة

للاهوتيات القديس باسيليوس الكبير

القديس باسيليوس يُجيب على تساؤلات الكثيرين

اتَّسمت كتابات القديس باسيليوس في معالجة اللاهوتيات بعذوبةٍ خاصة، سواء في كتاباته العقائدية المباشرة أو خلال عظاته الشعبية وتعليقاته على بعض الفصول من الكتاب المُقدَّس. ذلك لأن ما يشغله هو خلاص الإنسان وبُنيانه الروحي ونموّه في المعرفة البنَّاءة. هذا بجانب أنه يُجيب على تساؤلات الكثيرين، ليس في جيله فحسب، بل وما يثور في فكر الإنسان المُعاصر.

هذا وقد رأيت أن أُسجِّل في اختصارٍ شديدٍ الخطوط العريضة لأفكاره اللاهوتية التي تكشف بحقٍ عن شخصيته.

لأجل التبسيط وعدم التكرار، لا أشير في هذا العرض السريع إلى نصوص القديس، إذ يمكن للقارئ الرجوع إليها خلال الفصول التالية التي تُقدِّم لاهوتياته بتوسع أكبر.

فكره اللاهوتي الجامعي

يُعتبر القدِّيس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية مع صديقه القديس غريغوريوس النزينزي وأخيه القديس غريغوريوس أسقف نيصص أقمار الآباء الكبادوك الثلاثة.

استطاع الثلاثة بغيرتهم المُتَّقدة وسموّ أفكارهم وحياتهم أن يبلغوا القمة باللاهوت السكندري، خاصة ما يخُص جوهر الله والثلاثة أقانيم. قَدَّموا الفكر السكندري بصورة جذَّابة وبهية، وحَدَّدوا مفاهيم أهم المُصطلحات اللاهوتية.

يقف بعض الدارسين في دهشة أمام شخصية باسيليوس، فهو اللاهوتي البارع صاحب القلب الناري على استقامة الإيمان على مستوى العالم، حتى دُعِي بأثناسيوس الثاني، وفي نفس الوقت برع في الانطلاق بالرهبنة إلى وضع أُسس وقواعد ومناهج لها، مع دفع عجلة الرهبان نحو الاهتمام باحتياجات العالم الاجتماعية والعلمية والصحية. قال أحد الدارسين: إنه يمكن دعوته **بأب غربي يحمل الفكر الشرقي**. الأب الغربي من جهة الاهتمامات العملية لاحتياجات الكنيسة ووجود نظام مُعَيَّن خاصة للرهبنة، وشرقي في غيرته اللاهوتية.

نظرة سريعة إلى رسائل القدِّيس ومقارنتها برسائل القديسين أثناسيوس وكيرلس السكندريين، نجد رسائل باسيليوس تكشف عن حرصه على دفع عجلة المعرفة اللاهوتية بين

رجال الكهنوت والشعب، كلٌّ حسب إمكانياته وقدراته ومسئولياته. وفي نفس الوقت يهتم بالاعتدال في الحياة الكنيسة والرعوية والاجتماعية والنسكية والعلمية... الخ. أمَّا القديسان السكندريان فتغلّب على رسائلهما الجانب اللاهوتي، وإن كان لا يتجاهلان الجانب الرعوي العملي.

يمكن وضع الخطوط العريضة لفكر القدِّيس باسيليوس الكبير في الآتي:

١. الإيمان بالثالوث القدوس.

٢. دور كل أقنوم مع وحدة الجوهر الإلهي.

٣. خلقة الطغمات السماوية.

٤. خلقة الشياطين وقوات الظلمة.

٥. خلقة العالم المنظور.

٦. خلقة الإنسان.

٧. سقوط الإنسان وخلاصه.

٨. الحياة الأبدية.

٩. الكنيسة والعمل الجماعي.

١٠. العبادة وخاصة الليتورجيات.

١١. النعمة الإلهية والسلوك بالرُّوح.

١٢. الفضيلة المسيحية.

١٣. الخطية والتوبة.

١٤. وحدة الحياة.

١٥. الموت.

١٦. الدينونة.

١. الإيمان بالثالوث القدوس

أ. اهتم القديس باسيليوس الكبير **بوضع منهج واضح للمصطلحات الخاصة بالإيمان بالثالوث**. لقد ميَّز بين الأقانيم الثلاثة والجوهر الواحد، وأوضح أن ما يُميِّز كل أقنوم عن الأقنوميْن الآخريْن هو علاقته الخاصة بهما. فالآب يتميز بالعلة، والابن بالبنوة، والرُّوح القُدُس بالانبثاق من الآب. وهم متساوون في ذات الجوهر، لهم ذات الكرامة. متمايزون غير منفصلين، كل منهم يعمل في شركة مع الأقنوميْن الآخريْن.

ب. يُرَكِّز القديس على تأكيد أن الثالوث القدوس هو ثالوث الحبّ. ما يشغل الله هو أن تمارس الخليقة العاقلة، أي السمائيون والبشر، حرية إرادتها مع وجود خطة إلهية لتمتعها بالحياة المطوَّبة دون إلزام قهري.

تبرز مسرة الله في مرافقته للإنسان في رحلته إلى السماء، يعمل فيه ومعه ولحسابه كي يسترد صورة الله، ويكون على مثاله.

عقيدة الثالوث ليست فكرًا فلسفيًا نظريًا، إنما تمسُّ خِلقة الإنسان، ورعاية الله له كل أيام حياته ومصيره الأبدي. هى مصدر تعزية الإنسان في رحلة حياته وسعادته ورجائه في التمتُّع بعدم الفساد وشركة المجد الأبدي.

ج. يرى القديس أن كل مؤمن عاقل لا يجد تعارضًا بين الإيمان والعِلْم. فيَقْبَل كل ما هو حسن. يرى أن العلم يساعدنا على التأمُّل في الحق متجنِّبين كل ما يؤدِّي إلى الشرّ والخطأ والهلاك. يلزمنا ألاَّ ننكبَ بجهلٍ على العلوم، وإنَّما أن نعرف ما الأفيد منها، وخوفًا من أن نتعلَّق بها وننسى عمل الله مُنغمِسين في أبحاث باطلة.

د. أيهما الأول: **المعرفة أم الإيمان؟** يُجِيب بأنه بحسب العلوم الحسابية، الإيمان يسبق المعرفة. لكن إن كان في تعليمنا يقول أحد إن المعرفة تأتي قبل الإيمان، لا أعترض، إن أخذنا المعرفة بأنها تُشير إلى المعرفة التي في حدود الفهم البشري.

٢. دور كل أقنوم مع وحدة الجوهر الإلهي

في حديث القديس باسيليوس عن الأقانيم الإلهية يؤكد الحقائق التالية:

أ. مساواة الأقانيم في ذات الجوهر، وذلك لحفظ الإيمان المستقيم من الفكر الأريوسي.

ب. مع وحدة الجوهر الإلهي، يوجد تَمايُز بين الأقانيم، فهم ليسوا مجرد أسماء أو أشكال ثلاثة، وذلك لحِفْظِ المؤمنين من الفكر السابيلي (أتباع سابيليوس).

ج. كل أقنوم يحوي داخله الأقنومين الآخريْن (دون انفصال) للتحفُّظ من المناداة بثلاثة آلهة. فنحن لا نجمع واحدًا مضافًا إليه واحد فواحد، إنما واحد في واحدٍ في واحدٍ.

د. في كل عمل إلهي، لكل أقنوم دوره. ففي التجسد الإلهي كمثالٍ، قوة العلي (الآب) تُظلِّل القديسة مريم، والروح القدس يحلُّ عليها، والكلمة يتجسد في أحشائها. وأيضًا في الخلقة قال الآب "ليكن نور" مثلاً، وبالابن كان النور، وكان الروح القدس يَرِفُّ على وجه الغمر.

٣. خلقة الطغمات السماوية

خلق الله الطغمات السماوية، قبل العالم المنظور، وتتسم هذه الخليقة بأنها روحية ليس لها أجسام مادية مثل البشر.

سرُّ صلاح السمائيين ليس في طبيعتهم ذاتها، إنّما في شركتهم في قداسة الله خلال نعمته. يتمتّعون بالكمال النسبي، ويسلكون حسب إرادة خالقهم برضاهم ومسرّتهم.

يُمارسون حياة فائقة، وإن كانوا ينتمون إلى طبقات مُتباينة، غير أنه لا يشعر أحدهم بغيرةٍ أو حسدٍ من الآخر، ولا كبرياء، يشعر كل منهم بالسعادة والفرح والسلام.

لكل طغمة كما لكل واحدٍ رسالته وعمله؛ يعملون في خدمة خالقهم والتسبيح له، كما في خدمة الإنسان لبُنيان نفسه وقبوله رسالة الخلاص الإلهية.

٤. خلقة الشيّاطين وقوات الظلمة

يرى القدّيس باسيليوس الكبير أن الأرواح الشريرة ليست من نتاج علاقة بين ملائكة وبشر، إنما هم في الأصل ملائكة، سقطوا لا حسب الطبيعة، وإلاّ كان الله هو المسئول عن سقوطهم، وإنما باختيارهم قبلوا الشرّ والكبرياء والعصيان لله. لم يسقطوا في علاقات إذ ليس لهم أجسام مادية كالبشر. لقد سقطوا في حسدهم للإنسان، لذا يصارعون على الدوام ضد الإنسان، يحاولون جذبه للعصيان على الله وترك الحياة التقوية الفاضلة.

٥. خلقة العالم المنظور

أظهر القدّيس باسيليوس الكبير اهتمامًا كبيرًا بخلقة العالم المنظور (الكوزمولوجي *Cosmology*). اعتمد فيه على ما ورد في سفر التكوين، وفي نفس الوقت انتفع ببعض الأفكار الفلسفية للكوزمولوجي والنظريات العلمية في عصره التي لا تتعارض مع الكتاب المقدس.

نقطة البداية الرئيسية في كوزمولوجي باسيليوس هى أن المسكونة من خلق الله. وأن السماء والأرض لم يوجدا عفويًا، أو مصادفة، أو تلقائيًا.

خلق الله العالم من قِبَلِ صلاحه ومحبته. وليس من وجود مجال للقول بأن العالم أزلي، كان شريكًا في الوجود مع الله منذ الأزل كما ظن البعض.

يرى أن ادّعاءات المُلحِدين بأن العالم مساوٍ لله المُطْلَق وغير المُدرَك هى أشبه بنسيج العنكبوت الواهي.

خُلِقَت المسكونة من العدم بواسطة الثالوث القدوس، فهى ليست أزلية مع الله. لا يمكن القول بأن أصل هذا العالم جاء وليد صدفة. ولا أن الله كان مُشَكِّلاً لمادة أزلية، إنما هو خالق من العدم.

عملية الخلق هى ثمرة إرادة الله الحُرَّة، تممها من العدم، وليست منبعثة من جوهره، ولا تمت بضرورة حتمية طبيعية، إنما خلال الحب الإلهي.

يجد باسيليوس الفرصة للحديث عن جوهر الله والأقانيم عندما تحدَّث عن الخلقة. عندما ينسب باسيليوس الخلقة لإرادة الله وسلطانه (قوته) وصلاحه يقصد الثالوث الإلهي الذي يُعلِنُ عن نفسه بوضوح في عملية الخلق ليس فقط في العالم غير المنظور وإنما حتى في العالم المنظور.

يرى أن الزمن والمسكونة وُجِدَا معًا وسيزولان معًا.

عناصر العالم هى النار والأرض والهواء والماء، اتحدت معًا فأوجدت أبعاد المسكونة.

المسكونة هى من خلق الثالوث القدوس، لذلك فهى صالحة وجميلة. لها غايات هامة بالنسبة للإنسان، ليس فقط يقطن فيها، ويجد فيها احتياجاته، وإنما يتعلَّم الإنسان منها الكثير. هى مدرسة يتدرَّب فيها ليحيا كما يليق به كإنسان الله.

إذ تحقق الخليقة غاياتها تزول، ليوجد عالم سماوي فائق للطبيعة، خالد، ومَجيد.

٦. خلقة الإنسان

يتطلع القديس باسيليوس إلى الإنسان كأعظم كائن على وجه الأرض.

أ. امتاز عن بقية المسكونة أن الله وضع له خطة قبل خلقته: "تعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون..." (تك ١: ٢٦).

ب. "ذكرًا وأنثى خلقهم" (تك ١: ٢٧) ليلتصقوا به ومعه إلى الأبد.

ج. خُلِقَ الإنسان على مثال الله، يحمل طبيعة الحب، لذا يليق أن يغفر لأخيه، كما يغفر الرب لنا.

د. وهبه سلطانًا، فلا يليق به أن يكون عبدًا حتى لجسده وبطنه وشهواته.

هـ. لا يُدان أحد لأنه لا يصطاد أسدًا، لكنه يُدان إن لم يتسلَّط على جسده وأحاسيسه وانفعالاته.

و. الإنسان المخلوق العاقل الفريد في تغيره المستمر، سواء في الجسد أو النفس أو العقل أو العواطف. يهتم بنمو جسده لئلا يحطمه المرض أو الشيخوخة، لكن بنعمة الله

يستطيع أن ينمو في بقية عناصر ويبقى يتشكل حتى يصير أيقونة السيد المسيح، ولا يتوقّف تغييره حتى يخرج من هذا العالم.

ز. الإنسان عالَم صغير، إذ خُلق من جسد ونفس، فصار ممثّلاً للعالم الأرضي والملائكي.

ح. الإنسان كائن سماوي رأسه في القمة مع استقامة ظهره يتطلّع بسهولة إلى السماء، أما الحيوان فجسمه منحني يتطلّع إلى الأرض وإلى بطنه. لذا يليق بنا أن نتذكّر أننا مواطنون سمائيون، بلدنا أورشليم العليا.

ط. بعد خلقة الإنسان استراح الرب في اليوم السابع وقدّسه، حتى يستريح الإنسان في اليوم السابع بعبادته للرب، وإذ قام الرب في اليوم الأول من الأسبوع التالي لأسبوع البصخة، صار السبت لراحة الجسد والأحد للقيامة الأولى مع الرب "خبرة الحياة المقامة"

يُقدِّم لنا القديس باسيليوس أمثلة لمفهوم الراحة:

أ. الحياة المتهللة بالرب [الشهر السابع شهر الأعياد].

ب. الحرية في الرب [تحرير العبد العبري في السنة السابعة، والرجوع من السبي في السنة السبعين (إر ٢٥: ١١ - ١٢)].

ج. التمتُّع بالسماويات [أخنوخ السابع من آدم نقله الرب (تك ٥: ٢٤)].

د. التمتُّع بعذوبة الوصية الإلهية موسى السابع من إبراهيم استلم الشريعة.

هـ. الإيمان بالمُخَلِّص [ظهر السيد المسيح في الجيل السابع والسبعين بدءًا من أدم (لو٣: ٢٣ - ٢٨)].

و. التوبة والرجوع لله [الصديق يسقط سبع مرات ويقوم (أم ٢٤: ١٦)].

ز. اتساع القلب فيغفر لأخيه إلى سبعين مرّة سبع مرّات (مت ١٨: ٢٢).

٧. سقوط الإنسان وخلاصه

جاء تفسير القديس باسيليوس الكبير للمزمور ٤٩ (٤٨ *LXX*) مُمَثِّلاً لنظرية فساد الإنسان وخلاصه، مبرزًا النقاط التالية:

١. يؤكّد الله حبه لكل البشرية دون محاباة لشعبٍ مُعيَّن، فيدعو كل الأمم وسكان الأرض للاستماع إليه (مز ٤٩: ١).

٢. حب الله وعدله في نفس الوقت يبعثان في الإنسان الراغب في الخلاص روح الفرح، فهو أب يفرح بسعادة البشرية ويُقيم منه قيثارة روحية يعزف عليها روح الله القدوس واهب ثمرة الفرح.

٣. لا يقدر إنسان أن يفدي نفسه، فكيف يفدي أخاه؟! مهما جاهد الإنسان ولو كدَّ إلى الأبد، لا يقدر أن يُقدِّم فدية عن نفسٍ بشريّةٍ واحدةٍ.

٤. الله وحده يفدي الإنسان، بتجسُّد الكلمة وصلبه وموته ودفنه، يلتقي مع الأموات كما في القبر وينطلق بهم بقيامته إلى الحياة الفردوسية.

٥. إن كان الإنسان قد خُلِقَ من التراب، فبالخطية اشتهى أن يُسَجِّلَ اسمه وينقشه على التراب عوض أن يُنقَش اسمه على كف الله وفي سفر الحياة.

٦. إذ تجاهل الإنسان كرامته كإنسان الله، صار مقارنًا بالحيوانات غير العاقلة، بل ونزل إلى مستوى أبشع. بالفداء ينطلق إلى الشركة مع السمائيين، يُسَبِّح الله معهم، ويستقر في حضن الآب أبديًا.

٧. إذ يتمتَّع بهذا الخلاص، يلتصق بالله فلا يغريه غنى العالم وأمجاده، ولا يخشى ضيقاته ولا يترقَّب يوم السوء، بل يوم الرب المُفرِح!

٨. الحياة الأبدية

بفكر إنجيلي مُفرِح، يكشف القدِّيس باسيليوس عن دور الأبدية في حياة المؤمن:

١. خَلَقَ الله الإنسان فريدًا حتى بين المخلوقات العاقلة، إذ يعلن الكتاب المقدس أن الله خلق الإنسان على صورته ومثاله، فلا يَقْبَل الخالق الخالد أن يسقط الإنسان حامل صورته تحت سطوة الموت، وكأنه منذ بدء خلقته هيأه الله للخلود الأبدي في صحبة خالقه السماوي.

٢. خَلَقَ الله جسد الإنسان مُستقيمًا، رأسه مرتفعة لكي لا يُرَكِّز عقله وعينيه على التراب والأرضيات، بل يجد لذَّته في التطلُّع إلى السماء.

٣. عندما سقط الإنسان وفسدت طبيعته تجسّد كلمة الله، وقدَّم دمه ثمنًا للمصالحة بين السماء والأرض، فانفتحت أبواب الأبدية أمام الإنسان!

٤. غاية الإنسان وسعادته في الحياة المُطوَّبة السماوية.

٥. عمل إبليس أن ننحني لنسمع صوت الحيَّة التي طعامها التراب، ونصرتنا عليه بالمسيح يسوع تهبنا الانطلاق نحو السماويات.

٦. جعل الله مكافأة السلوك الروحي، خاصة العطاء للفقراء والمساكين التمتُّع بالغِنَى السماوي.

٧. ننال بالمعمودية البنوة لله بعمل روحه القدوس، فيصير لنا حق الميراث الأبدي مادمنا نسلك بالروح كأولاد له.

٩. الكنيسة والعمل الجماعي والاجتماعي

١. كان القديس باسيليوس الكبير يشعر بالتزام الراهب بقيامه بدور إيجابي في حياة المجتمع، هذا دفعه إلى إنشاء مدارس ومستشفى ودور إيواء والاهتمام بالفقراء. لم يعزل العمل الروحي مهما بلغ سموّه عن تحقيق العدالة الاجتماعية والتقدُّم الاجتماعي، بل حسب هذا العمل الذي يظنه البعض اجتماعيًا بحتًا في حقيقته لقاءً حيًّا مع مُحِب البشر.

٢. من كلماته: "إنني أعرف جيدًا أنني في حاجة أكثر إلى مساندة كل واحدٍ من الإخوة، وذلك أكثر من احتياج اليد إلى مساندة اليد الأخرى. حقًا يُعَلِّمنا ربنا من خلال بنياننا الجسدي ضرورة الشركة الجماعية. عندما أتطلع إلى أطراف جسمي، وأرى أن واحدًا منها ليس فيه الكفاية في ذاته، كيف أستطيع أن أحسبَ نفسي كفوًا أن أُتمّم التزامات الحياة؟... حتى الصلاة إن لم تتّحد بصلاة (لآخرين) تفقد قوّتها الطبيعية، وقد أخبرنا الرب أنه سيكون في وسط الاثنين أو الثلاثة الذين يدعونه في اتفاق معًا... **أزيلوا من ذهنكم الفكر أنكم لستم في حاجة إلى الشركة مع الغير**".

١٠. العبادة وخاصة الليتورجيات

١. غَنُّوا للرب أغنية حقًا جديدة، أي اعبدوا الرب، لا بعتق الحرف، ولكن بجدَّة الروح.

٢. إننا نتجّه نحو الشرق حسب تقليد غير مكتوب قد تَسَلَّمناه، إلا أننا قليلاً ما ندرك أننا بهذا إنما نطلب وطننا القديم، الفردوس الذي غرسه الله في عدن نحو الشرق.

٣. ينبغي علينا أن نتأمل في الله حتى نلهج في الصلاة، ونبتعد عن البحث عن الغِنَى، واشتهاء المجد الباطل، والتمتُّع بشهوات الجسد، وكل أنواع الشرور نحو أقربائنا، حتى تعيش نفوسنا في سلامٍ بعيدًا عن كل شهوة. حينئذ نستنير بالله كما في مرآة نقيّة خالية من كل قبحٍ.

١١. النعمة الإلهية والسلوك بالروح

يربط القديس باسيليوس الكبير النعمة الإلهية مع الجدية والجهاد القانوني، فيقول: [الإنسان الذي أدرك القوة التي أخذها، يُقَدِّم الشكر لله "يارب أعطيت لجمالي قوة" (مز ٣٠: ٨). والفضائل التي نقتنيها بجهادنا، تتبعها فضائل تُعطَى لنا، كالجمال والقوة.] وأيضًا: [لنحرص إذن على جمالنا، حتى يستقبلنا العريس الكلمة بالترحاب بهذه الكلمات: "كُلُّكِ جميل يا حبيبتي، ليس فيك عيبة" (نش٤: ٧)]. [يليق بنا حتى إن أوكل إلينا أقل الأعمال أن نمارسها بغيرةٍ عظيمةٍ وحبٍ، عالمين أن ما يُصنَع بالله ليس تافهًا، بل يُقابِله ملكوت السماوات.]

١٢. الفضيلة المسيحية

١. ليست تقوى الأبرار وفضائلهم علّتها أن طبيعتهم أفضل من طبيعة الأشرار، إنما سرّها عمل الله فيهم، أو الاختفاء في المسيح. وكأن أمامنا طريقين، إما أن نستتر في المسيح فنحمل برَّه، أو نسقط من النعمة الإلهية، فننسحق تحت قدمي إبليس وتستعبدنا الشهوات والخطايا.

٢. يقول: [نحتاج إلى نعمة الله لكي يُولَد الجمال داخل النفس، وتظهر فاعلية القوة، للقيام بالعمل المناسب].

٣. من كلماته: [إني أحسب عبور الحياة خفية من بين أسمى الصالحات].

١٣. الخطية والتوبة

يجب تقديم توبة عن كل خطية، فإن كل الخطايا في نظر الله متساوية من جهة خطورتها.

سرد أشكال مختلفة للتوبة، مثل بغض الخطية، والتذلُّل، وندامة القلب، والصلوات، وتقديم الصدقة... الخ.

وضع القدِّيس باسيليوس نظامًا للتوبة مُماثِلاً لنظام مُعَلِّم أجداده القدِّيس غريغوريوس صانع العجائب. يُفرَض على التائب درجات من التأديبات مع مراعاة العوامل والظروف متباينة.

الاعتراف بالخطايا أمر غاية في الضرورة، يُمارَس إمّا بطريقة سرّية أو علنية. يُقَدَّم الاعتراف مباشرةً لله ثم يُقَدَّم لأب الاعتراف.

١٤. وحدة الحياة

١. اهتم القديس باسيليوس الكبير بوحدة الحياة، فلا فصل بين التقدُّم في الحياة الروحية عنه في الحياة الدراسية والعلمية، أو في الحياة الاجتماعية.

٢. يرى أهميَّة الثقافة اليونانيَّة؛ **فالعلوم الزمنية هى حُليّ للعقل**، وذلك كأوراق الشجر التي تُزيِّن الشجرة الحاملة للثمار. فهي لا تضر الثمرة، بل تُغطِّيها.

٣. يليق بالمؤمنين إذ يتعرَّفوا على ما هو نافع وما هو ضار، وأن يحفظوا في أذهانهم **غاية المسيحي في حياته وهى الحياة الأبدية**، فيستخدمون كل طاقاتهم ومواهبهم لاقتناء الإكليل السماوي.

٤. قدَّم لنا أمثلة من الكتاب المُقدَّس لِمَنْ أحسنوا استخدام الثقافة الزمنية مثل **موسى** الذي تدرَّب على حكمة المصريين، **ودانيال** الذي درس علوم الكلدانيين ومعارفهم.

٥. ربما يتساءل البعض: أمَا يكفي الكتاب المُقدَّس دون دراسة الثقافات المعاصرة؟ يُجيب القديس باسيليوس الكبير أن الكتاب المقدس فيه كل الكفاية للتمتُّع بالخلاص. لكن الكتاب المقدس يدعونا إلى الدراسة والتعلُّم والتقدُّم في كل جانب، فيكون كالنهر الذي تصب فيه مياه نقية، فيزداد ويزداد بلا توقُّف.

١٥. الموت

يرى القدِّيس باسيليوس أن النفس بعد الموت تصير في حالة تتناسب مع انتظارها لمجيء الرب، وقيامة الجسد ومواجهة الدينونة.

نفوس الأشرار هى في الجحيم، وهو انفصال عن الله. أمَّا نفوس الأبرار، خاصة الشهداء، فتتمتَّع بحالة من التطويب، وتعيش في حضرة الله، وتتمتَّع برؤيته.

يتحقَّق مجيء الرب الأخير لكل البشرية دفعة واحدة لمجد الله، وذلك بعد قيامة الأموات. يؤكد القدِّيس باسيليوس هوية الجسد القائم من الأموات خلال الجسد المُنحل. غير أنه يرى أن الجسد القائم من الأموات لا يتكوَّن من نفس عناصر ذاك الجسد الذي انحلَّ.

الجسد القائم من الأموات روحاني على صورة جسد المسيح بعد القيامة.

١٦. الدينونة

١. كثيرًا ما يُكَرِّر القدِّيس باسيليوس الحديث عن الدينونة، فإنها تناسب الكرازة بروح التشجيع. يرى فيها حثًّا على تفادي الخطية والتوبة والاحتمال، وهو يُبَرِّرها على أساس عدالة الله، وتأكيدات الكتاب المُقدَّس لها.

٢. ستكون الدينونة عادلة، تقوم على سلوك الشخص نفسه وحياته. يُقَدِّمها القديس بفكرٍ إنجيليٍّ كمحاكمةٍ، لكنه لا يُقَدِّمها بطريقة حرفية في مكان مُعَيَّن وزمن مُعَيَّن.

٣. يُشرق الديان بنوره فيرتعب الأشرار.

٤. يصدر الحكم على الأبرار والأشرار، فينال الأبرار التمتُّع بملكوت الله أبديًّا، ويُدَان الأشرار أبديًّا دون أي رجاء في إصلاح موقفهم، فإن عدل الله يتطلّب المُكافأة الأبدية والإدانة الأبدية.

٥. استخدم العبارات الكتابية مثل جهنم والظلمة الخارجية والبحيرةِ المتَّقِدة نارًا. غير أنه يؤكِّد أن العقوبات هى الحرمان من الله، والشعور بالذنب، وعار الخطية.

٦. إذ تتم الدينونة يتمتَّع الأبرار بالخليقة الجديدة، حيث يتمتعون بربوبية السيد المسيح، الذي يُخضِعُ ملكوته للآب.

المحتويات

••••••••••••••••••••

الباب الأول

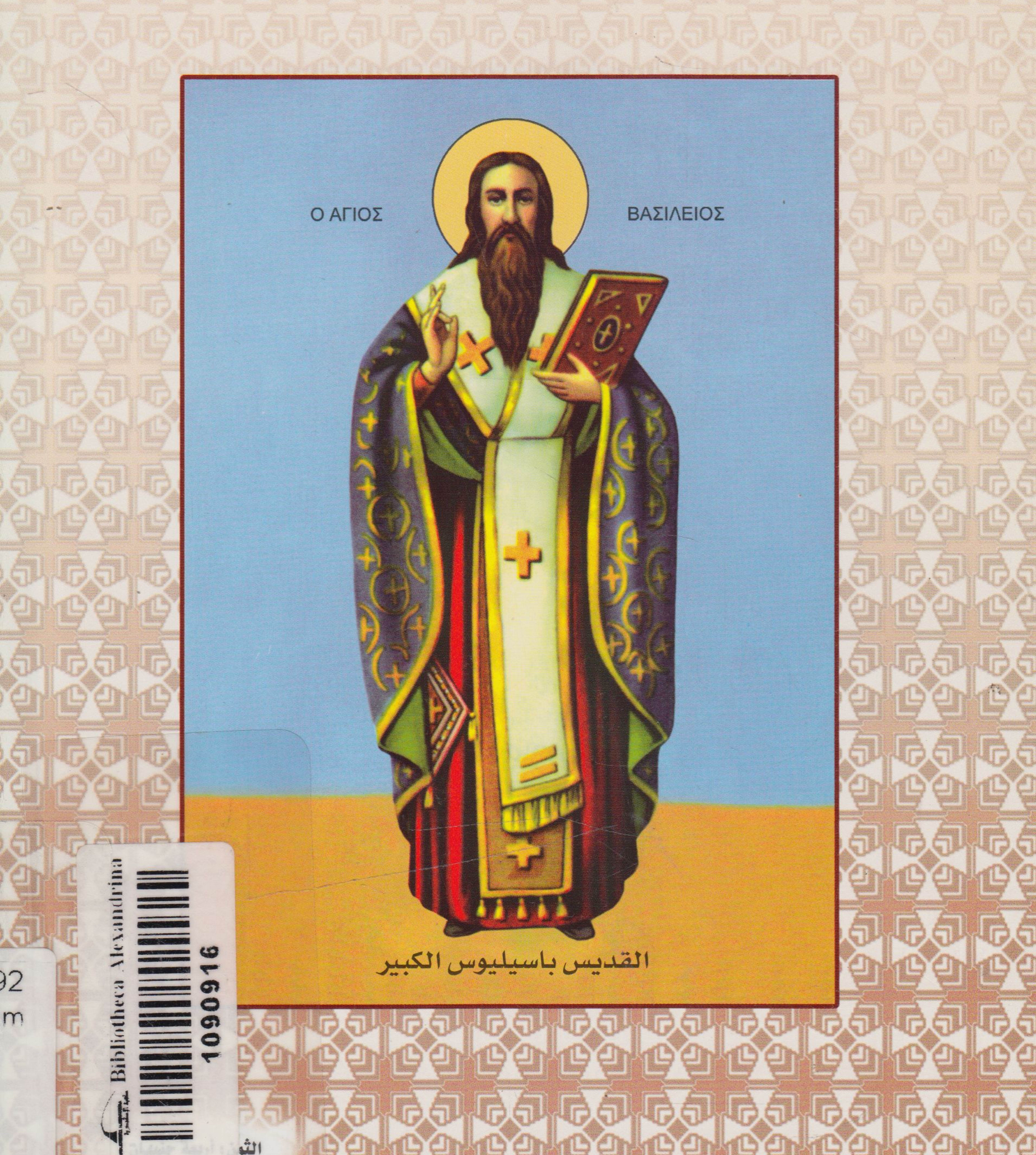
سيرته

الباب الثاني

كتاباته

الباب الثالث

لاهوتياته



كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس - سبورتنج - الإسكندرية
ت: ٥٩١٩٨٨٨ ٠٣ - ٥٩٠٦٠٠٣ ٠٣ فاكس: ٥٩٠٢٨٨٨ ٠٣